## «. . . ينبغى الكفاح ضد كل شرور العالم دفعة واحدة»

«لقد عشتَ الحياة كئيبا وكنتَ لسانا لضمير مريض للعصر . . .» . هذه الاسطر من شعر قيل فوق قبر غارشن وقد اهيل التراب على جدته فى التو ، تبين بوضوح مَنْ كان غارشن بالنسبة لزمنه .

لم يرتفع فسيفولود غارشن – معاصر دوستويفسكى ، تولستوى ، وتشيخوف (ذو النشاط الادبى الممتد منذ اواسط السبعينات وحتى العام ١٨٨٨) الى تلك الذرى ، وتلك الحقائق عن الانسان ، التى توصل اليها هؤلاء الاعمدة للادب الروسى الكلاسيكى . ولم يكتب غارشن الكثير ، فقصصه لا تبلغ العشرين عدا فى مجموعته غير الكبيرة . ولكنه يشغل مكانا ساطعا خاصا مميزا للغاية فى تاريخ الادب الروسى .

ثمة هالة من المعاناة تحيط بشخصية غارشن وتلقى ظلا على مصيره ككاتب ، فى وقت كانت ظروف

الحياة الخارجية للعديد من الكتاب الروس تضفى على اقدارهم طابعا اكثر دراماتية . لم يقدر لغارشن تجرع مرارات الاشغال الشاقة ، ولا تحمل اعباء الخدمة العسكرية المضنية ، ولم يدخل فى نزاع مكشوف مع السلطة . . . ولم تكن له طفولة ابناء الموظفين الصغار العسيرة ، الذين كانوا يعيشون على الكفاف ، ويشقون طريق الحياة بصدورهم . كان سليل عائلة نبلاء ليست ثرية تماما ، ومع ذلك مؤمنة ماديا ، وعلى قدر محسوس من اللبيرالية ، سمح بتكليف الثورى زافادسكى بالقيام باعباء مرب فى كنفها ، والذى لم يتباطأ فى اعطاء الصبى غارشن ، ابن الثمانية اعوام ، رواية «ما العمل» * لقراءتها . ثم كانت المدرسة الثانوية ، فالمعهد : الطريق المعتادة لفتيان ذلك الوسط آنذاك . بلى ، ولكن قدره كان موسوما بالمفاجآت ، والجموحات البطولية ، ونكران الذات . لقد استطاع ان يهجر دراسته فى معهد التعدين ليلتحق جنديا غير نظامى فى صفوف الجيش العامل (اثناء الحرب الروسية-التركية ١٨٧٧-١٨٧٨) وقد شعر فى نفسه بضرورة المشاركة فى نصيب اولئك الذين «يتصدون للرصاص بجباههم وصدورهم» .

لقد كانت خدمة غارشن العسكرية قصيرة ، فقد

* رواية الكاتب الروسى والمفكر ، الثورى الديمقراطى نيقولاى تشيرنيشيفسكى (١٨٢٨-١٨٨٩) .



جرح فى اول معركة كبيرة له . الا ان هذه التجربة بالذات كانت صاعقه الى الكتابة .

«لم اكن ارغب شرا لاحد عندما مضيت الى المعركة ، ولقد غابت عن رأسى بطريقة ما فكرة انه سيتحتم علىّ ان اقتل الناس . كنت اتصور لنفسى حسب كيف يتوجب علىّ درء الرصاص بصدرى ، ولقد مضيت ، ودرأته . وماذا بعد ؟ حماقة فى حماقة !» - هكذا يتعذب بطل قصة «اربعة ايام» شأنه شأن غارشن نفسه ، الجندى غير النظامى سليل النبلاء ، المنسى جريحا فى ميدان الوغى جنبا الى جنب جثة ضحيته الجندى التركى . ان هذه القصة (وهى ، فى الحقيقة ، اول تجربة نثرية لغارشن) يتردد فيها بكل قوة صوت المؤلف ، الذى هزه بطلان الحرب ، وفظاعة ابادة الناس الابرياء بعضهم لبعض ، تحت وطأة الاضطرار والقسر . . . لقد حظيت هذه القصة بنجاح هائل غير متوقع .

لم يجهد غارشن طويلا من اجل الاعتراف به ككاتب ، فقد جاءه ذلك منذ اول خطواته على طريق الادب . يرى تورغينيف فيه «ملامح موهبة كبيرة حقيقية» ويهلل له ليف تولستوى ، بينما يلاحظ معاصروه وبصوت واحد جاذبية الكاتب المدهشة ، نبله ، طيبته ونقاء مقاصده . يندغم فيه باختصار ، كمال اخلاقى نادر بجمال مظهرى غير معتاد فى الواقع . ويتذكره احد الاصدقاء بقوله : «. . . لقد احبه اترابه وزملاؤه الكتاب كما لو كان اخا لهم . . . واعترف بموهبته اكثر

المغالين فى تحفظهم فى صحافتنا» . ورغم ذلك فقد كان غارشن قد عاش حياة معاناة حقيقية . . .

بعيد موت غارشن كتب تشيخوف قصته «نوبة» من اجل مجموعة القصص المكرسة لذكراه . بطلها انسان ذو «خصال غارشنية» ، على حد تعبير تشيخوف نفسه ، له موهبة انسانية خاصة ، «رهيفة ، رائعة ، تحس الالم» . «وكما ان الممثل الجيد يعبر عن حركات وصوت غيره» فان غارشن ايضا استطاع ان «يعكس فى روحه آلام غيره . فاذا رأى دموعا بكى لها ، واذا وجد نفسه قرب مريض تمرض ذاته ، وتأوه ، واذا شاهد مظلمة تصور انها واقعة عليه . . .» .

ما ذكر اعلاه يبين بوضوح الملمح الرئيسى لشخصية غارشن ، والذى يحدد طابع نتاجه .

فى قصة غارشن «رسمان» يرسم الموهوب ريابينين صورة عامل صانع مراجل ، محتوم عليه الشقاء فى عمله ، الشبيه حقا بالاشغال الشاقة ، اذ ينبغى له ان يوضع نفسه فى المرجل ليسند البرشامة من الداخل بكلاّبة يضغطها بصدره بأقوى ما يستطيع ، ليطرقها الاسطه من الخارج بمطرقته . («. . . فالطَرْق هذا لا يختلف بحال عن الطرق على الصدر نفسه !» — ينذهل ريابينين) . ان معاناة الآخرين تعذب الرسام فتخلق له دافعا شديدا للابداع .

غير انه لا يكمن فى هذه القدرة الفائقة على تمثل آلام الآخرين ينبوع نزاهة الكاتب الاصيلة فحسب ،



والتى تضفى على نثره ذلك السحر الكئيب ، بل ويكمن ايضا مصدر محدودية موهبته ككاتب . فالدموع تعيقه عن ان ينظر الى العالم بوضوح (ما على الكاتب الفنان ان يجيده) فلا يكون قادرا على تفهم الناس كما هم فى واقع الحال ، واذا حاول ذلك باءت محاولاته بالفشل . هنالك بطل واحد حسب يبدو حيا بصورة فائقة فى نثر غارشن ، انه ذلك الانسان القريب بتركيبه الروحى من المؤلف نفسه . وليس مصادفة ان تكون لجميع اقاصيص غارشن تقريبا شكل السرد بالضمير الاول ، وهى فى الغالب منولوجات عاطفية مصاغة نثرا ، واعترافات اخيرة للبطل مواجها قدره .

ان بطل قصة «الزهرة الحمراء» يريد خوض الكفاح ضد كل شرور العالم . وهو يتخيل ان كل الشرور ، وكل الدماء البريئة المسفوكة ، والدموع التى سفحتها البشرية ، قد تجسدت فى ثلاث زهرات خشخاش حمر نمت فى حديقة المستشفى . فيقتطفها واحدة واحدة باذلا جهدا خارقا دون ذلك . انه يقوم بهذه المأثرة ، وان كانت متخيلة ، ضاما الزهرات الى صدره ، من اجل ان تمتص روحه ذلك الشر ، وهى مستعدة للكفاح ضده والتضحية فى سبيل ذلك .

فى نثر غارشن اكتئاب سادر ، يفسر غالبا بمرض روحى ألمّ بالكاتب ، فقد كانت ازمات السوداوية تصيبه كل عام وتمتد به اشهرا كاملة فى الصيف (انتحر خلال احداها وذلك برمى نفسه فى بئر

السلم) . الا ان مرض غارشن الروحى ، وباعتقاد الكثيرين من محبيه وعارفيه ، انما كان نتيجة العهد المظلم الذى كتب على غارشن العيش تحت ظله .

كان غارشن يتعذب ، وهو يتعثر كل يوم بتقرحات المجتمع الرهيبة ، معانيا من شوهاته الاخلاقية ، والمظالم الاجتماعية . وكان يتعذب مرتين بسبب عدم تبينه طرقا واقعية لمكافحة الشر . ومن المعلوم كيف ابهظ وضع الرجعية فى الثمانينات كاهله ، بما قامت به من ملاحقات مستمرة واعدامات ضد الشعبيين الثوريين الذين ، ينبغى القول ان غارشن لم يتعاطف مع طرائقهم الارهابية . غير انه ، وقد التهب حماسه ، يتوجه (عام ١٨٨٠) الى لوريس-مليكوف * ليتوسل الى الوزير مطلق الصلاحيات كى يرأف بالشباب الثورى ملوديتسكى الذى حاول اغتياله . وعندما يُشنق ملوديتسكى فى آخر المطاف يصاب غارشن بانهيار عصبى شديد . . .

ان هذه الحمية الرهيفة ازاء معاناة الآخرين ، واستجابة الضمير حدودَ المرض ، والعطش الى الحقيقة والعدالة هى الميزان التى لا تثمن لشخصية غارشن ،

---

* لوريس-مليكوف ، ميخائيل (١٨٢٥-١٨٨٨) - كونت ، كان منذ العام ١٨٨٠ رئيسا لـ«اللجنة الادارية العليا لشؤون الامن الحكومى والاجتماعى» التى انيطت بها مسؤولية التصدى للحركة الثورية فى روسيا آنذاك .



والتى انعكست فى نثره ، وتشكل وحدة مدهشة بين نتاجه ومصيره ككاتب . بلى ، هنالك فنانو كلمة موهوبون ، وغير قلائل ، ألمع وأهم من غارشن ، ولكن ليس هنالك فى الادب الروسى كاتب آخر يستطيع ان يقول عن نفسه انه كتب «بمحض اعصاب تعيسة» وان كل حرف كلفه «قطرة دم» . . .

**أ . لاتينينا**

## اربعة ايام

اذكر عدونا فى الغابـــة وازيز الرصاص وسقوط الاغصان تحت ضرباته وهجمتنا بين ادغال العض . كان الرمى يزداد كثافة . وعند طرف الغابة انبثق شىء احمر جعل يلتمع هنا وهناك . وفجأة تكوم سيدورف وهو جندى فتى من السرية الاولى («كيف جاء الينا ؟ – خطر ذلك ببالى) ونظر فى صمـــت الىّ بعينين محملقتين تطفحان رعبا . كان خيط من الدم يسيل من فمه . نعم ، اذكر ذلك جيدا . واذكر كذلك اننى لمحته . . . هو . غير بعيد من طرف الغابة فى الادغال الكثيفة . كان تركيا غليظا ضخما غير اننى اندفعت اليه على الرغم من قامتى العجفاء . وارتفع دوىّ ومر من قربى شىء بدا لى ضخما جدا ، فشعرت ان فى اذنىّ دويا . وفكرت فى نفسى : «لقد اطلق علىّ النار» . واما هو فقد انبعثت منه صرخة رعب واتكأ بظهره على شجيرة العض الكثيفة . كان فى



وسعه ان يدور حولها ولكن الخوف اطاشه فانقذف فى الاغصان الشائكة . ولم اضرب الا ضربة واحدة واذا ببندقيته تطير من بين يديه ، وبضربة اخرى غرزت حربتى فى شىء ما . فندت عنـــه صرخة بل زئير . ثم استأنف الركض . كان جماعتنـــا يصيحون «هورا» ويسقطون ويطلقون النار . واذكر انى رميت عـــدة مرات بعد خروجى من الغابة وانى رميت فى المنفسح . ودوت الـ«هورا» اقوى من قبل واندفعنا الى الامام على الفور . اردت ان اقول اندفع جماعتنا لانى انا ظللت فى مطرحى وبدا لى ذلك غريبا . والاغرب ان كل شىء قد اختفى فجأة : فلا صيحة ولا طلقات ؛ وانا لا اسمع شيئا ولا ارى الا الزرقة : لا بد انها السماء . وهذه الرؤية الاخيرة انمحت هى ايضا .

فى عمرى لم اجدنى فى موقف على مثل هذه الغرابة . يظهر انى كنت ملقى على بطنـــى فلا ارى الا قليلا من الارض امامى . بضعة عروق من العشب ونملة تنزل من احدها ورأسها الى الاسفل وهشيم متبق من العام المنصرم – هذا هو عالمى كله . ولا ابصره الا بعين واحدة لان الاخرى مسدودة بشىء صلب ، اغلب الظن بغصن يستريح رأسى عليه . انا فى غاية الضيق واود ان اتحرك ولكن قوة لا ادرى كنهها تشلنى . وهكذا تنقضى فترة من الزمن ، وانا اسمع غناء الجنادب وطنين

النحلة . لا شيء آخر . . . واخيرا ابذل جهـــدا كبيرا فاخلص يدى اليمنى من تحت بطنى واستند الى يدىّ الاثنتين محاولا النهوض على ركبتى .

واحس الما صاعقا يخترق جسمى كله من الركبتين حتى الصدر والدماغ فأقع على الارض من جديد ومرة اخرى اعود الى الظلمات ، الى العدم .

واستيقظ . علام ارى هذه النجوم التى تتلألأ هذا اللألاء البديع فى سماء بلغاريا السوداء الزرقاء ؟ ألست تحت الخيمة ؟ ما الذى اغرانى بالخروج منها ؟ ان حركة واحدة تسبب لى الما رهيبا فى ساقىّ .

نعم ، لقد جرحت فى المعركة . هل جرحى خطير ؟ واحمل يدى الى موضع الالم . ان ساقىّ اليمنى واليسرى مكسوتان بالدم المتخثر . ولا امسهما حتى يعود الالم حيا حادا . وهو مستمر مثير للاعصاب مثل وجـــع الاسنان . ورأسى ثقيل واذناى تطنان . وبى وجدان غامض انى جريح الساقين . ماذا حدث اذن ؟ لماذا لم يأخذونى ؟ ترى هل غلبنا الاتراك ؟ واستعيد الماضى غامضا بادئ الامر ثم لا يلبث ان يتوضح فأستنتج اننا لم نخسر المعركة . لقد سقطت (انا لا اذكر اللحظة على وجه الدقة وانما اذكر تسمرى فى مطرحى بينما كان الآخرون يتقدمون ولم استطع الركض ، ومن ثم الرؤية الزرقاء) ، سقطت فى منفسح باعلى هضبة ، اشار اليه



قائد فوجنا القصير وهو يصيح بصوته الرنان : «يجب بلوغه ايها الفتيان !» . وقد بلغنـــاه ، يعنى اننا لم نغلب . . . اذن فلماذا لم يأخذونى ؟ ان الموضـــع مكشوف فى هذا المنفسح وكل شيء فيه ظاهر للعيان . ومن جهة اخرى لست الانسان الوحيد الذى بقى هنا . فقد كان الرمى كثيفا . يجب ان ادير رأسى لكى ارى . الآن غدا ذلـــك علىّ اشد يسرا لان محاولتى النهوض حينما صحوت وتراءت لى بضعة عروق من العشب والنملة الهابطة ورأسها الى الاسفل كان من نتيجتها ان تغيرت وضعيتى : سقطت على ظهرى ولذلك ارى هذه النجوم .

واحاول الجلوس . ليس ذلك هينـــا مع هاتين الساقين المكسورتين . ويغلبنى اليأس عدة مرات . واخيرا انجح معانيا الما يدفع الدموع الى عينى .

فوقى تمتد خرقة قاتمة من السماء تلمع فيها نجمة كبيرة وعدد من النجوم الصغيرة وتحيط بى كتل سوداء عالية . انها الادغال . لقد ضللت بينها وجماعتى لم تعثر علىّ .

واحس جذور شعرى تتحرك على رأسى .

ولكن ماذا وقع لى حتى اجدنى فى الدغل بينما اطلقت النار على فى المنفسح ؟ يظهر انى جررت نفسى الى هنا غائبا عن الصواب من الالم . والغريب فى الامر هو انى الآن عاجز عن الحركة ؛ انا الذى استطعت ان ازحف حتى هنا . ولكن لعلى بدأت ازحف بجرح واحد ثم جاءت رصاصة اخرى فاصابتنى وانا فى هذا المكان ؟

وتنثر اضواء وردية باهتة فيما حولى . وقد شحبت النجمة الكبيرة واختفى قسم من الصغيرات . هذا هو القمر يرتفع . ما اجمـــل ان تكون فى مأواة فى هـذه اللحظة ! . .

وتتناهى الىّ اصوات غريبة . . . كأنها الانين . اجل ، انه انين . أتراه قريبا منى بائسا آخر يثوى منسيا مثلى محطم الساقين او مصابا برصاصة فى بطنه ؟ لا ، ان الانين قريب جدا ومع ذلك فكل شىء ينبئ انى وحدى . . . رباه هذا هو انا ، انـــا أئن فى خفوت شجيا . اذن فالمى كبير ؟ محتمل . ولكن لا اقدر هذا الالم حق قدره لان رأسى مشوش ، فيه ثقل الرصاص . الاحسن ان اعود الى الاستلقاء وانام ، انام . . . وماذا اذا لم افق ابدا ؟ ذلك عندى على حد سواء .

وبينما انا اهم بالاضطجاع اذا القمر يسفع بساطا عريضا من النور الباهت على الموضع الذى انا فيه فارى على بعد خمس خطوات هيئة قاتمة ضخمـــة متمددة . وانعكاسات تتلامع هنا وهنـــاك على ازرار وقطع عدة عسكرية . هذا ميت ام جريح .

سيان ، لاضطجع . . .

لا ، مستحيل ! جماعتنا لم يرحلوا قط . انهم هنا ، طردوا الاتراك وظلوا فى هذا الموضع . لماذا لا تنبعث اصوات ولا قرقعة نيران المخيمات ؟ ذلك لانى لا اسمع شيئا من الضعف . انهم هنا ولا ريب .

— النجدة ! . . النجدة !



صرخات مجنونة تنبعث من صدرى بصـــوت اجش وترن عاليا فى اجواء الليل . وما من مجيب . الباقى صمت مطبق . الجنادب وحدها تستمر فى غنائها من غير ان يتسرب اليها الوهن . ووجه القمر المدور ينظر الىّ مشفقا .

لو كان جريحا وحسب لايقظته صيحتى . انه جثة . اهو روسى ام تركى ؟ رباه ! كأن سؤالى هذا ينطوى على اهمية . ويهبط السبات على عينىّ الملتهبتين .

انى منطرح مغمض العينين مع انى مستيقظ منـذ مدة طويلة . انا لا اريد فتحهما لانى اخاف ان تبهرنى الشمس التى احس نورها يخترق اجفانى . وبعد فالاحسن الاّ اتحرك . . . جرحت امس (يبدو لى ان ذلك حدث امس) ؛ وقد انقضى يوم ، وغدا اكون فى عالـــم الاموات . لا ضير . فالاحسن الا اتحرك . ليكون جسمى فى سكون مطلق . لو انى استطعت ايقـــاف عمل المخ وحسب ! ولكن ذلك ليس فى وسعى . الافكار والذكريات تتدافع فى رأسى . ومع ذلك فان هذه الحالة لا تطول ، والنهاية تقترب . بضعة اسطر فى جريدة تعلن فقط ان خسائرنا كانت زهيدة ؛ كذا من الجرحى وقتيل واحد : المتطوع ايفانوف . لا ، يكتبون هكذا : قتيل واحد، من غير ان يذكروا اسمى . جندى واحد ، هذا شىء لا يسوى اكثر من كلب صغير . . .

وتعود الى ذهنى صورة كاملـــة لحادثة كنت من شهودها . مضى عليها امد طويل ؛ وكل شيء ، كـــل حياتى ، تلك الحياة التى سبقت وضعى الحالى وانـــا منطرح هنا محطم الساقين مضى عليه امد طويل جدا . . . كنت اسير فى الشارع فاوقفنى جمع من الناس . كان الحشد صموتا ينظر الى شلو ابيض مدمى تصدر عنه صرخات شاكية . كان هذا كلبا صغيرا جميلا قد دعسه ترام الخيل . وكان يحتضر مثلى تماما فى هذه اللحظة ، وابعد الحشد بواب ورفع الكلب من جلد عنقه ومضى به . وتفرق الناس .

وانا ، هل يمضى بى احد ؟ لا ، انفق فى موضعك . ومع ذلك فما اجمل الحياة ! . . ذلك اليوم (لما وقع الحادث للكلب الصغير) كنت سعيدا . بل كانت السعادة تسكرنى ولها ما يبررها . يا ذكريات دعينى وشأنى ، انت تعذبيننى ! سعادة منقضية ، عذابات ماثلة . . . انا مستعد لتقبل آلامـــى على الاّ تعذبنى الذكريات وتقسرنى على ان اوازن بين الحاضر والماضى . آه ، ايها الاسى ، انك اقتل من الجراح !

ويشتد الحر والشمس تحرق . وافتح عينىّ فأرى الادغال ذاتها والسماء ذاتها ولكن فى ضوء النهار . وها هو ذا جارى . انه تركى ميت . مـــا اشد ضخامته ! واتعرف به . انه هو . . .



لقد قتلت هذا الرجل . لماذا ؟

انه ملقى هنا ميت ومدمى . اى قدر قاد خطاه الى هناك ؟ من هو ؟ ربما له مثلى ام عجوز . ستطيل الجلوس فى المساء امام باب كوخها الحقير تنظر الى الشمـال البعيد فى انتظار ابنها العزيز ، سندها ومعيلها . . .

وانا ؟ انا أيضا . . . لست خيرا منه ، بل انـــا احسده . انه سعيد بكونه لا يسمع شيئا لا يحس آلام الجراح او اسى قاتلا او ظمأ . . . لقد شقت حربتى سويداء قلبه . . . وفى بدلته العسكرية ثقب اسود واسع مؤطر بالدم . **انه من صنع يدى .**

وفعلت ذلك على الرغم منى . لما ذهبت الى ميدان القتال لم اكن انوى الشر لاحد . وواجب القتل لم يدر لى بخلد . كنت ارانى معرضا صدرى للرصاص وحسب . وهذا ما فعلته .

وبعد ؟ ما اشد غباوتى وحمقى ! واما هذا الفلاح المصرى المسكين (عليه بدلة مصرية) فهو اقل منى ذنبا . قبل ان يكدسوهم مثل السمك المملح فى برميل ويشحنوهم على ظهر باخرة الى القسطنطينية لم يكن قد سمع بروسيا او ببلغاريا . قيل له امش فاطاع . لو انه احجم لانهالوا عليه ضربا بالعصى الا اذا خطر لاحد الباشوات ان يرديه برصاص مسدسه . وجاء من اسطمبول الى رشوك سالكا اطول الدروب واصعبها . وهاجمنا نحن فدافع هو عن نفسه ولكن لما رأى اننا اناس رهيبون نتقدم ابدا ولا نخاف بندقيتـــــه

الانكليزية التى تحمل اسم بيبودى او مارتينى استولى عليه الرعب . وبينما كان يهم بالهرب لحق به رجل صغير كان هو قادرا على ان يقتله بضربة من قبضته البرونزية وغرس حربته فى قلبه .

ما هى جريمته ؟

ما هى جريمتى انا قاتله ؟ وماذا جنيت انا ؟ لماذا يعذبنى الظمأ ؟ الظمأ . هل يعلم الناس ما تعنى هذه الكلمة ! ؟ انا لم احس حتى فى رومانيا حينما كنا نقطع خمسين فرسخا فى حرارة جنونية تبلغ الاربعين درجة ، بمثل ما اقاسيه اليوم . اواه لو ان احدا يأتى !

رباه ! لا بد ان فى مطرته الكبيرة ماء ! ولكن يجب ان ابلغه ، وما اصعب الطريق اليها ! سابلغه مهما كلفنى الامر .

وازحف . ساقاى رخوتان وذراعاى المتخاذلتان تنقلان جسدى الهامد فى جهد كبير . وليس بينى وبين الجثة الا بضع خطوات ولكن قطعها اشق من عشرات الفراسخ . ومع ذلك فيجب قطعها . ان حنجرتى فى لهيب . والموت بلا رى اسرع ، بينما الشرب . . .

وازحف . قدماى تلتصقان بالتربة وكل حركة تثير الما لا يحتمل . واصرخ ، ازار ولكنى اتابع التقدم . ها هو اخيرا . وها هى المطرة . . . ثمة ماء . . . كثير من الماء ! اكثر من نصف مطرة على ما اظن . اواه ، هذه البقية تكفينى امدا طويلا . . . حتى الموت !



يا ضحيتى ، انت منقذى ! . . واشرع بفك المطرة معتمدا على مرفقى ، واذا انا فجأة افقد التوازن واهوى بوجهى على صدر منقذى الذى كانت تنبعث منه رائحة تفسخ قوية .

وارتويت . الماء فاتر ولكنه لم يفسد والمطرة ملآنة . ساعيش بضعة ايام ايضا . واذكر انى قرأت فى «فيزيولوجيا الحياة اليومية» ان الانسان قادر على البقاء اكثر من اسبوع من غير طعام على ان يتوفر له الماء . وهم يستشهدون على الاخص بقصة رجل اراد ان يقتل نفسه جوعا ولكنه عاش زمنا طويلا لانه كان يشرب .

وبعد ؟ ماذا يفيدنى ان احيا خمسة ايام او ستة اخرى ؟ جماعتنا رحلوا والبلغار تفرقوا . وليس فيما حولى طريق . لا مهرب من الموت . والفرق الوحيد هو ان موتى عوضا عن ان ينتهى فى ثلاثة ايام سيدوم اسبوعا . أليست النهاية العاجلة خيرا ؟ ان بندقية جارى ، وهى سلاح ممتاز انكليزية الصنع ، قربه . وما علىّ الا ان امد يدى ، ثم النهاية فى طرفة عين . والرصاصات هنا اكوام . لم يجد متسعا من الوقت لاطلاقها كلها .

أأنتهى من الامر ام انتظر ؟ انتظر ماذا ؟ الخلاص ؟ الموت ؟ مجىء الاتراك ان يسلخوا جلد ساقىّ

الجريحة ؟ ألا يحسن ان اطلق على نفسى رصاصة الخلاص . . .

هيا ، لا نفقد شجاعتنا ؛ ساناضل حتى النهاية ما اسعفتنى قواى . لانهم اذا عثروا علىّ فقد انقذت . وقد يجدون العظام سليمة فيشفوننى ، وترى عيناى مرة اخرى بلدى وامى وماشا . . .

يا الهى ، لا تطلعهما على الحقيقة ، اجعلهما تظنان انى مت فورا . ما افظع ان تعلما انى احتضرت يومين ، ثلاثة ايام ، اربعة !

احس الدوار ؛ الرحلة التى رحلتها حتى بلغت جارى حطمتنى . ناهيك بهذه الرائحة المقيتة . ما اشد ما اسود . . . ما عساه ان يمسى غدا او بعد غد ؟ واذا ظللت قربه فبعجزى عن جر نفسى بعيدا منه . عندما الملم قواى ساعود الى موضعى القديم . من حسن الحظ ان الريح التى تهب من جهتى تبدد رائحة التفسخ .

واستلقى منهوكا . الشمس تحرق وجهى ويدى . لا شىء يظللنى . ليهبط الليل سريعا ، سيكون الليل الثانى اذا لم اخطئ .

ان افكارى تختلط وتاخذنى سنة من النوم .

نمت وقتا طويلا ، لانى حينما صحوت ، كان الليل . لا شىء تغير ، جراحى تؤلمنى والجثة هنا ابدا ضخمة لا حراك بها .



واعجز عن عدم التفكير فيه . أترانى هجرت كل ما هو عزيز علىّ وقطعت آلاف الفراسخ وقاسيت الجوع والبرد والحرارة المنهكة وانتهيت الى عذابى الحاضر لمجرد اغتيال هذا البائس ؟ أليس هذا القتل هو الشىء الوحيد الذى حققته فى الحرب ؟

قَتَل ، قاتل . . . من ؟ انا .

لما اتخذت قرارى فى الذهاب الى القتال لم تحاول امى او ماشا ان تثنيانى عن عزمى مع انهما ذرفتا الدموع . واعمتنى فكرتى عن ان ارى هذه الدموع . لم افهم (الآن فهمت) ما انزلته باهلى من عذاب .

علام التفكير فى ذلك ؟ كان ما كان .

وما كان اغرب رد الفعل عند عدد كبير من معارفى ! «انه احمق ! يقذف نفسه فى المعركة من غير ان يعلم لذلك سببا» . كيف قدروا على مثل هذا القول ؟ هل يتلاءم قولهم هذا ومفاهيمهم عن البطولة وحب الوطن واشياء اخرى من هذا النوع ؟ انى كنت فى اعينهم تجسيدا لكل هذه الفضائل ، ولم يمنع ذلك من انى كنت «احمق» .

هانذا اذن ارحل الى كيشينيوف ، احمل حقيبة الظهر وكومة من اللوازم العسكرية . واسافر مع آلاف الرجال ما فيهم الا بضعة من المتطوعين مثلى . والباقون ودوا ان يظلوا فى بيوتهم لو سمح لهم بذلك . ومع ذلك فهم يسيرون مثلنا نحن «الواعين» فيقطعون آلاف الفراسخ ويقاتلون كما نقاتل ان لم يكن احسن . انهم

يقومون بواجبهم على الرغم من ان التحرر منه يبهجهم لو ان التحرر مباح .

ريح الصباح تحرك الادغال ، فيطير عصفور صغير وسنان . تشحب النجوم . وتروح زرقة السماء القاتمة تضرب الى لون الرماد وتكتسى بغيمات خفيفـــات ؛ ويرتفع برقع الغسق من الارض . ويطلع على اليوم الثالث . فما يدعى ذلك ؟ حياة ؟ احتضار ؟

الثالث . . . كم يوما سيطلع علىّ ؟ ليس كثيرا على اية حال . . . انا اضعف من ان استطيع البعد عن هذه الجثة . ولن نلبث ان نضحى متماثلين فلا يثقل بعضنا على بعض .

انا ظمآن ، سأشرب ثلاث مرات فى اليوم : صباحا وظهرا ومساء .

وبزغت الشمس . وقرصها الضخم الذى تخططه كله اغصان الادغال السوداء احمر كالدم . يبدو ان النهار سيكون حارا . إلامّ انت صائر ايها الجار ؟ انت من الآن مشوه مقيت .

اجل ، انه مقيت . اخذ شعره بالسقوط . وشحب جلده البرونزى واصفر ؛ ومدده تورم الوجـــه حتى انبعج خلف الاذن واذا الشق يغلى بالدود . والرجلان متورمتان ولحمهما يندفع من بين ازرار الجزمـــة . والجسد كله منتفخ مثل قربة هولة . ما عسى ان تصنع به شمس اليوم ؟



ان هذا القرب الشديد منه لا يحتمل . يجب ان ابتعد مهما يكلفنى البعد . ولكن هل تسعفنى قوتى ؟ انا استطيع ان ارفع ذراعى ، ان اتناول المطرة ، ان اشرب – ولكن نقل جسدى الثقيل الهامد ؟ سأنسحب من هنا على اية حال ، حتى ولو قطعت نصف خطوة فى الساعة .

وتصرم الصباح كله فى هذا الانتقال . الالم عنيف حاد ، ولكن ماذا يهمنى من امره ؟ انا لم اذكر ، لم اعد قادرا على تصور احاسيس انسان سليم ، وغدوت كأنى قد اعتدت العذاب . وقطعت هذا الصباح ست خطوات ووصلت الى مطرحى القديم . ولكنى لم استمتع طويلا بالهواء النقى اذا فرضنا ان ثمة هواء نقيا على بعد ست خطوات من جثة فى حال التفسخ . ان الريح بدلت من اتجاه هبوبها وطفقت تحمل الىّ رائحة كريهة شديدة تثير فىّ الغثيان . وتشنجات مؤلمة تقبض معدتى الخاوية وتعرك احشائى . والروائح النتنـــة الموبوءة تغمرنى .

ورحت ابكى من اليأس . . .

كنت محطما ، مزعزعا ، شبـــه مغمى علىّ . فجأة . . . أليس هذا وهما مما تصوره مخيلـــة المحتضر ؟ اللهم ، كلا . اجل انا اسمع كلاما ؛ وقع حوافر خيل واصوات بشرية . فاحبس صيحة كادت

تنفلت منى . ماذا لو كانوا اتراكا ؟ اذن ستضاف الى آلامى عذابات اخرى اشد نكالا ، يقف لها شعر الرأس لمجرد قراءة تفاصيلها فى الصحف ، كأن يسلخوا جلدى ويشووا ساقىّ الجريحتين . . . ولو اقتصر الامر على ذلك ، ولكنهم حاذقون جدا فى هذا الميدان . اذن ألا يجدر بك ان تمتنع عن الموت بايديهم وتموت وحيدا ؟ ولكن ماذا لو كانوا من جماعتنا ؟ آه ، ايتها الادغال الملعونة ! لماذا تضربين حولى هذا السور الصفيق ؟ انا لا ارى شيئا من خلاله الا موضعا تنفرج فيه الاغصان فينفتح امامى منظر الوادى . واخال ان هناك ساقية شربنا منها قبل المعركة . اجل هناك البلاطة الكبيرة من الحجر الرملى التى تتخذ جسرا . سيمرون حتما من فوقها . وتسكت الاصوات . لم استطع معرفة اللغة التى يتكلمونها : لقد ضعف سمعى . يا الهى ! فليكونوا من جماعتنا . . . ساصرخ ويسمعوننى جيدا من الساقية . هذا خير من ان اقع بين براثن الباش بزق . ما اشد ابطاءهم فى المجىء . فنفاد الصبر ينهكنى ، فلا اشم الرائحة الفظيعة التى لم تخف ابدا .

وفجاة يظهر قوزاق على معبر الساقية ! بدلات زرقاء وبنطلونات ذات عصائب حمراء ورماح . نصف اورطة لا اقل ، يقودها ضابط ذو لحية سوداء يمتطى صهوة جواد بديع . ولا يكاد رجاله يعبرون الساقية حتى يستدير على سرجه صائحا :



– خببا الى امام . . . سر !

– قفوا ، قفوا على حب الله ! النجدة ، النجدة يا اصدقائى ! – ولكن جلبة حوافر الجياد القوية وصليل السيوف واصوات القوزاق كل هذا طغى على حشرجتى ، فلم يسمعونى !

يا لعنة الله ! وانكفأت ووجهى الى الارض ، وطفقت انتحب مهدودا محطما . وانقلبت المطرة يتسرب منها الماء : حياتى ، خلاصى ، اجلى . ولكنى لم اشعر ذلك الا حينما صار ما فيها لا يعدو نصف قدح ، واما الباقى فقد امتصته التربة الظمأى فى شراهة .

هل اذكر الخبل الذى خلفته فىّ هذه الكارثة ؟ كنت هامدا ، مغمض العينين . والريح القلّب تحمل الىّ الهواء النقى حينا وروائح التفسخ القاتلة حينا آخر . وفى هذا اليوم غدا جارى شنيعا شناعة تفوق الوصف . مرة فتحت عينى لانظر اليه فارتعبت . لم يعد له وجه . لقد انفصل اللحم عن العظام . ورأيت الى تكشيرة العظام ، تكشيرة ابدية فظيعة فشعرت ان اعضائى قد تجمدت على الرغم من انى كثيرا ما قلبت الجماجم بين يدىّ وحنطت الرؤوس . لقد زلزل زلزالى هذا الهيكل العظمى الذى يرتدى البدلة العسكرية ذات الازرار اللامعة . «انه صورة الحرب» هكذا قلت فى نفسى .

فى هذه الاثناء كانت الشمس التى لم تخف حدتها قط تحرق لى يدىّ ووجهى . ونفد الماء . واخذ العطش

يقلينى حتى انه حينما اردت ان اتبلغ بجرعة ابتلعت كل ما فى المطرة دفعة واحدة . اواه ، لماذا لم اناد القوزاق لما كانوا قربى ! وحتى لو انهم كانوا اتراكا لما خسرت شيئا . كانوا يعذبوننى ساعة او ساعتين بينا انا الآن لا اعلم كم سيدوم تعذيبى . يا امى الحبيبة ! ستشدين شعرك الابيض وتلطمين رأسك بالجدار لاعنة اليوم الذى ولدتنى فيه ، لاعنة العالم الذى اخترع الحرب لبؤس الناس وتعاستهم .

ولكنك انت وماشا لن تعلما بما قاسيته ابدا . وداعا يا اماه ، وداعا يا خطيبتى ، يا حبى ! اواه ، يا للالم ، يا للمرارة ! ان قلبى يترنح . . .

مرة اخرى ذلك الكلب الابيض الصغير ! البواب الذى خلا قلبه من الشفقة لطم برأسه الجدار والقاه فى القمامة . ولكن الحيوان لم يكن ميتا ، وظل يتألم طوال النهار . وانا ، انا اتعس منه لانى احتضر منذ ثلاثة ايام . وغدا سيكون الرابع والخامس ثم السادس . . . ايها الموت اين انت ؟ تعال ، تعال ! خذنى !

ولكن الموت لا يأتى ولا يأخذنى . انا متمدد تحت الشمس المرهقة ، ولا قطرة ماء تبل حلقومى الملتهب ، والجثة تسممنى . لقد تفسخت الجثة ومليارات من الديدان تخرج منها . ما أشد حركتها ! عندما تنتهى من افتراسها ولا تبقى منها غير العظام والبدلة العسكرية يجىء دورى . ساكون صنوه وشبيهه .



وينقضى النهار ، ثم الليل ولا يتغير شىء . ويتنفس الصبح . والحال كما هو . ويتصرم يوم آخر . . .

وتتحرك الادغال وتدمدم كأنها تتكلم بصوت خفيض فيما بينها . كانت تهمس قائلة : «ستموت ، تموت ، تموت !» فتجيبها الادغال المواجهة : «لا ترى ، لا ترى ، لا ترى !» .

– ولكننا لا نراهم هنا – يقولها قربى صوت قوى . فارتعش وافيق فورا . كانت العينان الطيبتان الزرقاوان لياكوفليف عريفنا تنظران الىّ من خلال الدغل . وصاح :

– هاتوا الرفوش ! لا يزال ثمة اثنان ، واحد منا والآخر تركى .

واحاول ان اصرخ : «لا رفوش ، لا تدفنونى حيا !» . ولكن شفتى الجافتين لا يند عنهما الا انين واهن .

– يا الهى ! ولكنه يتنفس . السيد ايفانوف ! تعالوا يا اولاد ! صاحبنا السيد حى ! استدعوا الطبيب حالا !

ولا تنقضى لحظة حتى يسكبوا فى فمى الماء والفودكا ولست ادرى ماذا ايضا . ثم يمحى كل شىء .

وتتقدم النقالة فى تأرجح منتظم يهدهدنى . وانا استيقظ ثم اغفو من جديد . وجراحى المضمدة لا تؤلمنى ابدا ، فتشيع فى اعطافى هناءة عذبة رضية . . .

– قف ! الى الارض ! حملة النقالة من النوبة الرابعة الى النقالة – سر ! خذوا النقالة ، ارفعوا !

انه بيوتر ايفانوفتش الممرض الرئيسى ، وهو رجل طويل اعجف طيب القلب جدا . وهو ممشوق القامة حتى انى اذا حولت عينىّ نحوه ارى ابدا رأسه ولحيته الطويلة غير الكثيفة وكتفيه مع ان الجنود الاربعة حملة النقالة كانوا كلهم طوال القامة .

واهمس :

– بيوتر ايفانوفتش !

– ماذا بك يا صديقى ؟

وينحنى علىّ .

– بيوتر ايفانوفتش ، ماذا قال لك الطبيب ؟ هل اموت قريبا !

– خل عنك ، يا ايفانوف ، ستعيش . ذلك لان عظامك سليمة . ايها المحظوظ ! لا العظام ولا الشرايين مصابة . ولكن كيف استطعت ان تقاوم ثلاثة ايام ونصف اليوم ؟ ماذا اكلت ؟

– لا شىء .

– وماذا كنت تشرب ؟

– اخذت مطرة التركى . انا لا استطيع الكلام فى هذه اللحظة يا بيوتر ايفانوفتش . سأروى فيما بعد .

– نم آمنا ايها الصديق .

ومن جديد عاد النوم والخلو . . .



واصحو فى مستشفى الفرقة . الاطباء والممرضات يحفون بى وأرى بينهم وجه استاذ مشهور من بطرسبورغ ينحنى على ساقىّ . كانت يداه داميتين . وانهى مهمته وتوجه الىّ قائلا :

– ما اسعد نجمك ايها الفتى ! ستعيش . قطعنا لك ساقا ولكن هذا لا شىء . هل تستطيع الكلام ؟

اجل استطيع ان اتكلم واقص لهم كل ما كتبته هنا .

١٨٧٧

## الجبان

الحرب لا تكف عن اقلاقى . وارى جيدا انها تطول وان من الصعب التنبؤ بخاتمتها . جنودنا ابدا شجعان ولكن العدو اقل ضعفا مما كانوا يفترضون ، وطوال اربعة اشهر مضت على اشهار الحرب لم نحرز انتصارا حاسما . وفى هذه الاثناء يودى كل يوم بمئات الانفس . قد اكون مفرط الحساسية عصبيا ولكن نشرات الانباء الحربية التى تشير الى عدد القتلى والجرحى تؤثر فىّ اكثر مما تؤثر فى الآخرين . وبعض الناس يقرأون من غير ان يطرف لهم جفن : «خسائرنا زهيدة . قد جرح كذا من الضباط وقتل خمسون جنديا وجرح مائة» ، بل قد يبتهجون لمثل هذا العدد القليل بينما اروح انا بعد قراءة نشرة من هذا النوع اتخيل مشهد المجزرة حالا . خمسون قتيلا ، مئة مشوه – انه لشىء تافه ! اذن لماذا تثور ثائرتنا حينما تذكر الصحف مقتل عدة اشخاص ؟



لماذا يرعبنا منظر بيت نهبه قاتل اكثر مما يرعبنا منظر جثث مثقوبة بالرصاص تتكوم فى ساحة معركة ؟ لماذا تعالت الصيحات من اربعة اطراف روسيا حينما وقعت كارثة السكة الحديدية فى تيليغول التى كان ضحاياها بضع عشرات من الناس بينما لا تهيج مناوشات الخطوط الامامية التى تبلغ خسائرنا «الزهيدة» فيها العشرات ايضا ؟

لفوف ، طالب طب من معارفى اناقشه غالبا فى قضية الحرب قال لى منذ عدة ايام :

– سنرى ايها المسالم كيف تطبق مبادئك الانسانية عندما يجندونك ويتوجب عليك اطلاق النار على الناس .

– لا يجندوننى يا فاسيلى بتروفتش . لقد عينت فى الاحتياط .

– اذا طال امد الحرب فسيجىء دور الاحتياط ايضا . لا تعاند ، سيأتى دورك .

فانقبض قلبى . كيف لم افكر فى ذلك من قبل ؟ والواقع ان ارسال الاحتياط الى الجبهة محتمل جدا . «اذا طال امد الحرب» . . . وسيطول امدها حتما . وحتى لو انتهت قريبا اعقبتها اخرى . فعلام الامتناع عن القتال ؟ علام القعود عن الامجاد ؟ ويخيل الىّ ان هذه الحرب ليست الا مقدمة لحروب مقبلة لا يستطيع انسان ان ينجو من عرك رحاها ، لا انا ولا اخى الصغير ولا الرضيع الغافى على صدر اختى . ولا يلبث دورى ان يأتى .

ماذا يكون من امر «ذاتك ؟» ان كيانك كله يحتج

على الحرب ومع ذلك فستضطرك الى حمل البندقية والذهاب الى الموت والى القتل . ولكن لا ، هذا مستحيل! فانا ، الفتى الطيب الخلق ، الوديع ، الذى لم اكن اعرف حتى ذلك الوقت غير كتبى وجامعتى واسرتى وبضعة اصدقاء خلص وانوى بعد سنة او سنتين ان ابدأ مهمة جديدة ، ان اغرق نفسى فى كدح الحب والعدالة ؛ انا الذى اعتدت النظر الى العالم على نحو موضوعى وانا الذى ظننت انى اميز الشر فيه وبذلك اتجنب سوءه – انا اشهد صرح الطمأنينة الذى شيدته ينهار ، وارانى البس انا نفس تلك الهلاهل التى تأملت آنفا فى ثقوبها واوساخها . واذا انا لا تعطينى لا ثقافتى اية ثقافة ولا معرفتى بذاتى او بالعالم اية معرفة ولا حرية فكرى اية حرية ، لا تعطينى هذه الحرية الطبيعية الحقيرة – حرية التصرف بجسدى كما اشاء .

وما كدت اشرح للفوف كرهى الحرب حتى يبتسم قائلا :

– لتكن نظرتك الى الامور ابسط ايها العزيز ، تسهل حياتك . أتحسب ان هذه المذبحة تعجبنى ؟ وما عدا كونها تحمل البؤس الى الناس كافة فهى تضيرنى شخصيا لانها تمنعنى من انهاء دراستى . وسيعجلون فى تخريج دفعتنا حتى يرسلونى لقطع الاذرع والسيقان . ولكن ذلك لا يغرينى بالاستسلام الى تأملات لا غناء فيها



عن فظاعات الحرب لانى مهما افكر فيها اظل عاجزا عن منعها ونفيها . ويقينى ان خير ما نصنعه هو الا نفكر فيها ، ان نقتصر على تأدية واجبنا . فاذا ارسلونى للعناية بالجرحى اذهب . ماذا تريد ؟ فى عصر مثل هذا تنبغى تضحية النفس . والواقع ، هل تعلم ان ماشا تطوعت ممرضة ؟

– أحقا ؟

– اتخذت قرارها اول امس وهى اليوم تتدرب على التضميد . لم احاول ان اثنيها عن عزمها ، لم افعل الا ان سألتها عما تعتزمه فى امر دراستها فاجابت : «سأنهيها فيما بعد اذا ظللت حية» . وبعد ، فلترحل الصغيرة ، فالرحيل يفيدها .

– وكوزما فومتش ؟

– لا يقول شيئا ولكنه يغرق نفسه فى جهامة شديدة ويهمل دروسه . يسرنى ان اختى ذاهبة لان المسكين لم يعد يطيق صبرا : انه يذوى ويتبعها مثل ظلها ولا يفعل شيئا . يا للحب الملعون ! – وهز فاسيلى بتروفتش رأسه – هاك انه ركض وراءها ايضا لكى يرافقها كأنها لم تمش وحدها فى الشارع ابدا .

– يبدو لى ، يا فاسيلى بتروفتش ، ان ليس من المستحسن ان يعيش عندكم .

– طبعا . ولكن من كان يستطيع ان يتنبأ بذلك ؟ الشقة واسعة جدا على اختى وعلىّ . وفيها غرفة زائدة . فلماذا لا تؤجرها لانسان شريف ؟ واذا هذا الانسان

الشريف ينغمس فى الغرام . . . اذا شئت الصراحة فانا اتضايق منها : أليس كوزما جديرا بها ؟ انه طيب ، ذكى ، لطيف . وهى ، انها تتصرف كما لو لم يكن موجودا . ولكن حسبك ، اخرج من غرفتى ، فليس لدى وقت . اذا كنت راغبا فى رؤية اختى وكوزما فانتظرهما فى غرفة الطعام ، ولن تطول غيبتهما .

– ليس لدى وقت ايضا ، يا فاسيلى بتروفتش . الى اللقاء !

ولم اكد اخرج الى الشارع حتى رأيت ماريا بتروفنا وكوزما مقبلين . كانا يسيران صامتين : ماريا بتروفنا فى المقدمة عليها سيماء الضيق وكوزما يتأخر عنها قليلا كأنه لا يجرؤ على مسايرتها كتفا لكتف ويلقى اليها احيانا نظرة من طرف عينيه . ويمران من غير ان يلاحظانى .

انا لا استطيع ان افعل شيئا وان افكر فى شىء . قرأت الانباء الواردة عن معركة بليفنا الثالثة . اثنا عشر الف روسى ورومانى خارج المعركة ما عدا الاتراك . اثنا عشر الفا . . . هذا الرقم لا يفارق ذهنى حينا على هيئة اشارات وحينا ممتدا فى صف لا ينتهى من الجثث المتلاصقة . لو انهم وضعوها جنبا الى جنب لصنعت طريقا من ثمانية فراسخ . . . فظاعة .

وحدثونى عن الجنرال سكوبيليف الذى اندفع الى مكان ما وهاجم شيئا ما واستولى على احد الحصون او



فقده . . . لم اعد اذكر . فى هذه المعركة الرهيبة لا اذكر ولا ارى الا شيئا : تلة من الجثث تتخذ قاعدة لحوادث جسيمة تسجل على صفحات التاريخ . ربما كان ذلك ضروريا وانا لا ابيح لنفسى الفصل فى هذا الشأن ولا اقدر على ذلك . انا لا اناقش مسألة الحرب ولكن فى قلبى منها نفورا غريزيا ، اسبابه سيل الدماء المهدورة . ويظهر ان الثور الذى يرى الى مصرع اشباهه يعانى احساسا من هذا النوع . . . ومن غير ان يفهم ما عسى ان يفيد موته يحدق فى الدم بعينين وسعهما الرعب ويخور بصوت يائس يتفطر منه القلب .

اترانى جبانا ؟

قيل لى اليوم انى جبان . صحيح ان القائلة شخص فارغ ، اعربت فى حضورها عن خوفى من ان ادعى الى الجندية وعن عدم رغبتى فى الاشتراك فى الحرب . لم يحزنى رأيها ولكنه حملنى على التفكير . أأنا حقا جبان ؟ أيكون سبب استنكارى هذا العمل الذى يحبذه كل الناس ، الخوف على حياتى ؟ وهل يجوز لنا ان نهتم لحياة لا اهمية لها حينما تدور رحى الحرب المجيدة ؟ ! وبعامة ، هل انا قادر على ان اعرض للخطر حياتى فى سبيل امر ما ؟

لم تشغل هذه الاسئلة بالى طويلا . استعرضت حياتى وجميع الحالات التى كان علىّ ان اواجه فيها الخطر – رغم انها غير كثيرة – فلم استطع ان اتهم نفسى

بالجبانة . لم اكن حينئذ اخشى التضحية ولست اخافها اليوم . اذن فليس هو الموت الذى يرعبنى . . .

معارك اخرى وقتلى وآلام . بعد ان قرأت الجريدة لا اجد بى همة للعمل . وانظر فى الكتاب ، فأرى بدل الاحرف صفوفا من الرجال يحصدهم الموت واتصور ريشتى سلاحا يغطى بياض الورق بالجراح السود . اذا ظل الحال على هذا المنوال اصبت بغاشية من الجنون . ولكن لدى الآن هما جديدا يلهينى عن فكرتى المرهقة بعض الشىء .

ذهبت البارحة مساء ازور آل لفوف . كانوا يشربون الشاى . كان الاخ والاخت الى المائدة وكوزما يذرع الغرفة طولا وعرضا عجلان ويده الى وجهه المتورم الملفوف بمنديل .

سألته :

– ما بك ؟

فاجاب بحركة ملول وتابع رواحه ومجيئه .

وقالت ماريا بتروفنا :

– وجع فى الاسنان سبب تورما ودملة كبيرة . رجوته ان يرى طبيبا فى حينه ، فلم يصغ الىّ وهذه هى النتيجة .

وقال فاسيلى بتروفتش :

– الطبيب آت ، لقد مررت به .

فدمدم كوزما من خلال اسنانه :



– ما كان اغنانا . . .

– قد تود ان ينتهى بك الامر الى ناسور تحت الجلد ؟ وتصر على المشى حينما توسلت اليك ان تأوى الى الفراش . هل تدرى الى مَ يمكن ان يؤول هذا ؟

فدمدم كوزما :

– الامر عندى سواء .

وقالت ماريا بتروفنا بصوت خافت :

– انت على خطأ ، يا كوزما فوميتش . لا تقل حماقات .

هذه الكلمات كانت كافية لتهدئة كوزما ، فجلس وطلب الشاى . فصبت له ماريا بتروفنا فاخذ منها القدح فى حرارة لا تتلاءم كثيرا والورم المضحك فى خده ، ولم استطع منع نفسى عن الابتسام وحذا لفوف حذوى ؛ وماريا بتروفنا وحدها كانت تنظر اليه نظرة جادة مواسية .

وجاء الطبيب مرحا غضا مثل التفاحة . فلما نظر الى عنق المريض اكفهر وجهه الفرح .

– لنذهب الى غرفتك . يجب ان افحصك بعناية .

ولحقت بهما الى غرفة كوزما .

مدده الطبيب على السرير وجس اعلى صدره باصابعه بلطف ثم تساءل :

– تفضل بالبقاء فى السرير هادئا . هل لك اصدقاء يمكنهم ان يضحوا قليلا من وقتهم لاجلك ؟

فاجاب كوزما محرجا :

اظن ان نعم .

– اذن – والتفت الطبيب الىّ متلطفا – ارجوهم ان يسهروا على المريض اعتبارا من هذا اليوم وان يخبرونى فى حال دخول الداء مرحلة جديدة .

وغادر الحجرة . وذهب لفوف يرافقه الى الدهليز حيث تحادثا طويلا فى صوت خفيض . وعدت انا الى ماريا بتروفنا التى كانت غرقى الافكار ، رأسها معتمد على يدها تحرك ببطء الشاى بالملعقة .

– امر الطبيب بالسهر على كوزما .

فتساءلت مذعورة :

– اذن الامر خطير ؟

– لا ريب . والا ، فعلام هذه الاحتياطات ؟ لن ترفضى العناية به ، أليس كذلك يا ماريا بتروفنا ؟

– لا ، حتما ! ها أنذا اصبح ممرضة قبل ان اصبح فى الجبهة . هيا بنا اليه ، فهو لا بد ان يسأم وحيدا .

واستقبلنا كوزما وهو يبتسم بقدر ما يسمح له تورمه . وقال :

– ما الطفكما . كنت احسبنى مهجورا .

– لا ، يا كوزما فوميتش . اهدأ بالا . سنسهر عليك . هذه نتيجة العصيان . – قالتها ماريا بتروفنا والابتسامة على شفتيها .

فسأل كوزما على استحياء :

– وتعنين بى ؟



– من كل بد . ولكن يجب ان تكون مطيعا .

فاغمض كوزما عينيه واحمر وجهه سرورا .

وقال لى فجأة :

– حقا ، اعطنى المرآة من فضلك . انها هناك على المنضدة .

فاعطيته المرآة المستديرة الصغيرة . فسألنى ان اشعل الضوء ، وبمساعدة المرآة فحص الموضع المتورم . ثم انه قتم وعلى الرغم من محاولاتنا ، نحن الثلاثة ، للتسرية عنه ، لاذ بالصمت طوال السهرة .

علمت اليوم من مصدر اكيد انهم سيجندون الاحتياطيين . وكنت اتوقع ذلك فلم اندهش كثيرا .

كنت قادرا على التملص من هذا القدر المخوف والافادة من صلات تصلنى باناس ذوى نفوذ ، فاقضى زمن الخدمة فى بطرسبورغ . قد «يوظفوننى» هنا ، ولو بصفة سكرتير . ولكنى اولا انفر من اللجوء الى مثل هذه الوسائل ، ثانيا احس فى داخلى شيئا لا يمكن تعريفه ، يحلل موقفى ويحرم علىّ تجنب الحرب ، ويقول لى صوت داخلى : «هذا سيئ» .

وقع امر لم يكن متوقعا ابدا .

جئت هذا الصباح احل محل ماريا بتروفنا فى

السهر على كوزما . فاستقبلتنى عند الباب شاحبة الخدين قد انهكتها ليلة سهاد وعيناها حمراوان فيهما اثر الدموع .

– ما بك يا ماريا بتروفنا ؟

فهمست :

– تكلم همسا . قضى الامر .

– ماذا ؟ انت لا تريدين ان تقولى انه مات ؟

– لا . ولكن لا امل فيه . الطبيبان . . . هل تعلم اننا استدعينا طبيبا آخر . . .

كانت الدموع تخنقها .

– اذهب الى رؤيته . . . هيا بنا .

– امسحي دموعك واشربي قليلا من الماء ، والا قضيت على شجاعته نهائيا .

– ما الفائدة من ذلك . . . أليس على علم ؟ لقد علم منذ الامس حينما طلب المرآة . لقد كاد ان يصبح طبيبا .

كانت ثمة رائحة شديدة تشبه رائحة قاعة تشريح تملأ غرفة المريض . وكان سريره قد سحب الى الوسط . والساقان الطويلتان والجذع الكبير والذراعان الممتدتان الى الجانبين ، كل هذا يبرز من تحت الغطاء . وكانت عيناه مغمضتين وانفاسه بطيئة ثقيلة . وبدا لى انه نحف اثناء الليل ووجهه المبتل اتخذ لونا ترابيا لا يبشر بخير .

وهمست :



– ما به ؟

– ليقل هو لك . . . ابق معه . واما انا فلم اعد اطيق صبرا .

وخرجت ، وجهها بين يديها يزعزعها النحيب المحبوس . وجلست انا قرب كوزما منتظرا يقظته . كان يهيمن على الغرفة صمت الموت ولا تسمع الا وسوسة خافتة ترسلها ساعة الجيب الموضوعة على منضدة قرب السرير وانفاس المريض الثقيلة المتباعدة . كنت انظر الى وجهه ولا اكاد اتعرف اليه . لم يفسد المرض ملامحه كثيرا ولكنى كنت اراه على ضوء جديد اطلاقا . كنت اعرفه منذ امد طويل وكنت صديقه (لا الحميم جدا) ولكن لم تسنح لى الفرصة ان اعرف حالته مثلما عرفتها ذلك اليوم . وتذكرت حياته ، اخفاقاته وافراحه ، كما لو كانت حياتى . كان حبه لماريا بتروفنا يبدو لى هزليا ابدا بينما افهم الآن عذاباته . ورحت اسأل نفسى : «أصحيح ان مرضه خطير حقا ؟ مستحيل : الناس لا يموتون من وجع الاسنان . ان ماريا بتروفنا تبكيه ولكنه سيتماثل للشفاء ويكون كل شيء على ما يرام» .

وفتح عينيه فرآنى . ومن غير ان يتبدل تعبير وجهه تكلم مستأنيا عند كل كلمة .

– مرحبا . . . انت ترى الى مَ انتهيت . . . انها النهاية . اخذت على حين غرة . . . حماقة . . .

– قل لى ، يا كوزما آخر الامر ، ما بك ؟ الامر لا يمكن ان يكون على مثل هذه الفظاعة .

– تقول ليس فظيعا ؟ بلى ، يا صاحبى ، انه فظيع . انا لا اخطئ فى معرفة مثل هذه الاشياء الاولية . هاك انظر !

وبحركة وئيدة رفع الغطاء وحل عرى قميصه فلطمت وجهى رائحة نتنة ، رائحة جثة . الى اليمين ، قرب العنق ، كان صدر كوزما بقعة فى سعة اليد سوداء مخملية رمادية اللون . انها الغنغرينا .

لم يغمض لى جفن منذ اربعة ايام وانا اسهر على المريض مع ماريا بتروفنا تارة ومع اخيها تارة اخرى . والحياة التى تبدو على وشك ان تنقطع اسبابها تتشبث بهذا الجسد القوى ولما قطع الجلد الميت المسود وقذف به مثل الخرقة ، اوصانا الطبيب ان نغسل الجرح الواسع الذى بقى بعد العملية كل ساعتين . فجعلنا ، نحن اثنين او ثلاثة ، نقبل كل ساعتين فنقلب هذا الجسم الضخم ونرفعه ونكشف عن القرحة الفظيعة ونرشها بمحلول حامض الكربونيك بواسطة انبوب من المطاط . ويتدفق السائل على الجرح . وكان كوزما يقوى احيانا على الابتسام قائلا : «لان هذا يدغدغنى» . ومثل كل اولئك الذين لم يمرضوا الا نادرا كان يبهجه ان يدلل . وحينما تأخذ ماريا بتروفنا ما يسميه هو «العنان» اى انبوب المطاط وتبدأ بالرش يسر كثيرا ويقول ليس من احد يقدر على ان



يفعل ذلك بالمهارة التى تمارسه بها ، مع ان يدى الفتاة ترتعشان غالبا من الانفعال فينسكب السائل على السرير .

ما اكثر ما تغيرت صلاتهما ! فماريا بتروفنا التى كانت عنده كائنا لا سبيل اليه ، لا يعيره ادنى انتباه ، كان هو لا يجرؤ على النظر اليه ، اما الآن فانها غالبا ما تبكى عند رأسه فى خفوت عندما ينام وتعنى به فى حنو . وكوزما يتقبل هذه العناية وكأنها من حقه ويكلمها كما يكلم الاب بنتا صغيرة .

احيانا يتألم كثيرا . يحرق جرحه وتهده الحمى . . . حينئذ تفد الى ذهنى افكار غريبة . يخيل الى ان كوزما واحد من الضحايا التى لا تحصى والتى تتحدث عنها نشرات الانباء العسكرية . فاحاول ان اوازن بين مرضه وعذاباته ، والالم الذى سببته الحرب . كم من الم واسى فى هذه الغرفة ، على هذا السرير ، فى هذا الصدر . ومع ذلك فليس هذا الا قطرة فى اقيانوس العذاب والويل الذى يعانيه سواد الناس الذين ينترون الى الامام ويعادون الى الوراء حتى يتكوموا فى ساحة المعركة اجسادا مدماة ، فقدت الحركة او لا تزال تختلج فيها دماء .

انا متعب منهوك من السهاد والافكار القاتمة . يجب ان اطلب الى لفوف او ماريا بتروفنا ان ينوبا عنى حتى انام ساعة او ساعتين .

نمت نوما ثقيلا متكوما على اريكة صغيرة . وهانذا استيقظت لأن ثمة من يهزنى من كتفى وصوت ماريا بتروفنا تقول :

– انهض ، انهض !

فوثبت واقفا وفى الوهلة الاولى لم افهم شيئا . كانت ماريا بتروفنا تقول شيئا فى همس سريع خائف :

– بقع ، بقع جديدة ! – تميزت فى نهاية الامر .

– اية بقع ؟ اين ؟

– رباه ! اذن فانت لا تفهم ! ظهرت بقع جديدة فى جسد كوزما فوميتش . وقد ارسلت فى طلب الطبيب .

فاقول بخلو انسان افاق لتوه :

– قد لا يكون فى ذلك سوء .

– رح ، انظر بنفسك .

كان كوزما ينام نوما ثقيلا مضطربا . ذراعاه متباعدتان وكان يحرك رأسه فيصدر عنه احيانا انين اجش . وعلى صدره العارى ارى بقعتين صغيرتين سوداوين اسفل الجرح المضمد بقليل . لقد انتشرت الغنغرينا تحت الجلد وظهرت على سطحه بقعتان جديدتان . وعلى الرغم من ان الشك خالجنى حتى الآن بشفائه فان اعراض الموت القاطعة هذه جعلتنى اشحب .



جلست ماريا بتروفنا فى احدى زوايا الغرفة ويداها مرتخيتان على ركبتيها وهى تحدق فىّ صامتة بعينين مذعورتين .

– لا تستسلمى لليأس يا ماريا بتروفنا . سيأتى الطبيب لينظر . والموت ليس محققا . قد ننقذه .

وتهمس :

– لا ، سيموت .

فاقول لها بنفس لهجتها :

– فليكن . انها كارثة رهيبة بالنسبة لنا جميعا ، ولكن يجب الا تغرقى فى هذا الحزن . ان لك وجه ميت .

– اواه ، كم اعانى من عذاب فى هذه الايام . انا لا استطيع ان اوضح لنفسى هذا الامر . انا لم اكن احبه ، والآن لست احبه على طريقته . ولكن اذا مات فسينفطر قلبى . ساذكرن ابدا نظرته الثابتة والصمت الدائم يلوذ به امامى هو الذى يحسن الكلام ويحبه . وسيلاحقنى دائما الندم على انى لم اشفق عليه ، على انى لم اقدر ذكاءه وقلبه وتعلقه حق القدر . ربما بدا لك مضحكا ولكنى تعذبنى ابدا هذه الفكرة لو انى احببته لسار كل شىء سيرة اخرى ولما وقع هذا الحادث المرعب المذهل . وعبثا اطيل الفكر وابرر نفسى . ان شيئا فى قرارة نفسى لا ينفك يردد : هذه خطيئتك ، خطيئتك ، خطيئتك . . .

والقى نظرة على المريض حتى اتأكد من انه غير يقظان من صوت همسنا ، فاراه قد استحال انسانا

آخر . لقد استيقظ وسمع كل ما تقوله ماريا بتروفنا ولكنه يأبى ان يظهر ذلك . الشفتان مرتعشتـــان والخدان من لهب ووجهه يضيء مثل مرج ندى حزين تحت شعـــاع شمس اخترق الغيوم . لا بد انه نسى مرضه وخوف الموت ؛ واذا العاطفة التى تطفح بهـــا روحه تعبر عن نفسها بدمعتين انبثقتا من تحت جفنيه المرتعشين . وراحت ماريا بتروفنا ترمقه لحظة بنوع من الخوف ثم اصطبغ وجهها بالحمرة وشع فيه معنـــى حنون وانحنت على المحتضر المسكين تقبله .

حينئذ فتح عينيه وانفرج فمه عن هذه الجملة :

– رباه ، ما اقسى ان يموت الانسان !

واذا اذناى تلتقطان اصواتا غريبة صماء حلقيـــة جديدة علىّ لانى لم اسمع هذا الانسان يبكى قط .

واترك الغرفة ، وانا موشك على ان استخرط فى النحيب .

انا ايضـــا لا اريد ان أموت . كلا . ولا هـــذه الالوف من الجنود . ان كوزما قد وجد على الاقل عزاء اخيرا . واما هم ؟ . . ان كوزمـــا يستشعر ما خلا غصص الموت وسكراته ، هناءة تجعل من هذه اللحظات انعم لحظات حياته . وليس الامر سواء ابدا . فالموت هوالموت دائما . ولكن موتك بين اقربائك ، بين من يخصونك بالحب ليس مثل غوصك فى الوحل وغرقك فى دمك فى انتظار ان يجهز عليك العدو او تسحقك عجلات مدفع كما تسحق الدودة . . .



ويصرح بى الطبيب فى الدهليز وهو يلبس معطفه وحذاءه المطاطى :

– لنكن صريحين . فى المستشفى تسع وتسعون بالمئة من هذه الحالات مميتة . ولا امل لى الا فى العناية الدقيقة وفى معنويات المريض الممتازة وارادته الحارة فى الشفاء .

– كل المرضى يريدون الشفاء ، يا حكيم .

فيقول الطبيب مبتسما :

– من كل بد . ولكن لصديقك ظروفا مشجعة . فسنجرى له عملية هذا المساء . وسنفتح فتحة اخرى ونضع انابيب ماصة للصديد حتى يكون تأثير المحلول المطهر اشد ولنظل متفائلين .

وشد على يدى وزرر معطفه من فرو الدب ومضى يتابع عياداته . وعاد فى المساء مزودا بادواته .

واقترح على لفوف :

– ألا يتفضل زميلى المقبل باجراء العملية من قبيل التدريب ؟

فوافق لفوف وشمر عن ساعديه وانكب على العمل بوجه جدى جاهم . كنت ارى اليه يغمس فى الجرح اداة غريبة مثلثة الرأس ، تغوص فى الجسد وكوزمـــا يتشبث بكلتا يديه فى السرير ويصر على اسنانه من شدة الالم .

– لا تكن امرأة ضعيفة – يقولها لفوف فى جهامة وهو يدخل الانبوب الماص فى الجرح الجديد .

وتتساءل ماريا بتروفنا فى عذوبة :

– هل تتالم كثيرا ؟

– لا ، يا حبيبتى ، ولكنى ضعفت جدا وتعذبت .

ونضمد المريض ونعطيه قليلا من الخمر فيهدأ .

وينسحب الطبيب ويغلق لفوف حجرته على نفسه لكى يفرغ للدرس وبقيت انا وماريا بتروفنا نعيد النظام الى الغرفة .

ويهمهم كوزما بصوت لا رنة له :

– اصلح الغطاء . احس البرد .

شرعت اصلح وضع المخدة والغطاء وفق تعليماته ؛ كان كثير المطالب ، يتشكى من تيـــار الهواء الذى يتسرب من شق صغير قرب مرفقه الايسر ويطلب ان احكـــم ســـده . ولكن على الرغـــم من حميتى كان يحس البرد دائما فى خاصرتـــه او فى رجليه ويهر :

– ما اشد خرقك . الهواء يعصف الآن فى ظهرى . انها ابرع منك .

ويرفع عينيه الى ماريا بتروفنا فوضـــح لى جدا السبب فى عدم رضاه عن عنايتى به .

وتضع ماريا بتروفنا قنينـــة الدواء التى كانت تمسك بها وتدنو من السرير .

– هل تريد ان اسوى لك هذا ؟

– اجل . . . طيب . . . احس الحرارة . . .

وينظر اليها وهى تسوى الغطاء ، ثم يغمض عينيه



وينام ووجهه الذى ينبئ عن عذاب الشهادة قد اضاءه فرح طفل .

وتسأل ماريا بتروفنا :

– هل تعود الى البيت ؟

– لا ، لقد نمت جيدا واستطيع السهر . ولكن اذا لم تكن لاحد حاجة بى ذهبت .

– ابق من فضلك . لنتحدث قليلا . ان اخى دائما يجلس الى كتبه ويرهقنى ان اظل وحدى قرب مريض ، وهو نائم ، فافكر فى موته .

– تشجعى ، يا ماريا بتروفنـــا . الحزن والبكاء محظوران على الممرضات .

– عندما اصبح ممرضة لن ابكى . العناية بالجرحى اقل قسوة من العناية بالقريب .

– اذن فانت راحلة حتما ؟

– حتما . سارحل سواء قضى او شفى . اعددت نفسى لهذه الفكرة ولا اطيق العدول عنها . انا اشتاق الى عمل جميـــل واود ان تكون لى ذكريات ايام نيرة طيبة .

– اخاف الا تترك لك الحرب الا الذكريـــات السيئة .

– لماذا ؟ العمل جميل . وانا اشتهى ان اشارك فى الحرب بما لدى من وسائل .

– تشاركين فى الحرب ! ألا تستشعرين النفور نحوها ؟ أ اياك اسمع ؟

– نعم ، اياى . ومن قال لك انى كنت احبها ؟ كل ما فى الامر . . . كيف اقول لك ؟ الحرب وباء ؛ وانت وانا وكثيرون غيرنا يتقاسمون هذا الرأى . ولكنها محتومة ؛ وهى كائنة سواء احببتها ام لم تحبها ؛ واذا انت رفضت القتال اخذوا آخر تشوهه المعركة او تضنيه المسيرة . ارانى اسىء الشرح واخاف الاّ استطيع التعبير عن افكارى . هاك : ارى ان الحرب مصيبة **جماعية** ، مأساة **جماعية** ، ولعل من الممكن ان يتهرب الانسان منها ولكن ذلك لا يعجبنى .

واصغى صموتا . لقد صاغت ماريا بتروفنا صياغة واضحة نفورى الذى احسه ولا اعقله من تجنب الجبهة . وما تحسه وتفكر فيه **احسه** انا ايضا ، ولكنى **افكر** على نحو آخر .

– يخيل الىّ انك لا تنفك تفكر فى وسيلة لبقائك فى المؤخرة اذا جندوك . وقد كلمنى اخى فى ذلك . انا اضمر لك الود خالصة ، وانت تعلم ، لانك فتى شجاع ولكن هذه الخلة لا تعجبنى .

– وما الفعل ، يا ماريا بتروفنا ؟ اراؤنا متضاربة . علام اتحمل مسؤولية الحرب ؟ أانا الذى بدأتها ؟

– لا ، ولا الجنود من قضى منهم ومن يقضى اليوم . هم ايضا ، لو استطاعوا ، لما ساروا ولكنهم لا يملكون الخيار مثلك . وبينا هم يذهبون للقتال تظل انت فى بطرسبورغ قرير العين ، موفور الصحة ،



سعيدا لسبب واحد هو ان لك معارف يشفقون على رجل يعرفونه ولا يرسلونه الى الجبهة . انا لا احمل نفسى مسؤولية الحكم عليك : ربما كنت معذورا ولكن ذلك لا يعجبنى . لا ، ابدا .

تهز رأسها الاجعد بقوة وتصمت .

واخيرا قضى الامر . لبست المعطف الرمادى وتلقيت ابجدية العلم العسكرى والتصرف بالاسلحة . ولا ازال اسمع هذه الاوامر تدوى فى اذنى :

– تهيأ ! . . الصف ضاعف ! . . للقائد قدم . . . سلاحك !

كنت اتهيأ واضاعف الصف واقلب البندقية . وما هو الا بعض الوقت حينما اهضم هذه العمليات هضما كافيا حتى اعين فى فئة على وشك الرحيل ونشحن فى مقطورات تحملنا الى البعيد ، ثم نوزع على الافواج لكى نحل محل القتلى . . .

ولكن هذا لا يهم كثيرا . انتهى كل شىء . انا لم اعد ملك نفسى بل ريشة فى مهب القدر . الخير الاّ افكر ، ان اتقبل مفاجآت الحياة من غير مناقشة مكتفيا بالصياح حينما اتألم . . .

وانا اقيم فى الثكنة ، فى غرفة خاصة محجوزة للممتازين . فيها سرير عوضا عن المضطجع الخشبى . ولكن ذاك لا يقل قذارة عن هذا المكان . ان المجندين العاديين احق بالرثاء . فهم يسكنون قبل توزيعهم على

الافواج فى مراح واسع ، اسطبل قديم ، انقسم الى طابقين بالواح من الخشب مفروشة بالقش . وكل مجند يتخذ مكانه ومأواه كما يشاء . وفى مدرب المراح المركزى يختلط الطين والثلج اللذان يردان كل لحظة من الخارج ، بالقش فتكون خليطا قذرا . وعن طرفى المدرب ليس القش بانظف منه فى المدرب . ومئات الرجال واقفون او جالسون او مضطجعون قد تجمعوا فئات حسب البلد ، حتى يخيل اليك انك فى معرض حقيقى للاجناس البشرية . اكتشفت فتيانا من ناحيتنا ، اوكرانيين طوالا خرقا يلبسون جبابا وطاقيات جديدة من الاستراكان . كانوا حوالى عشرة اشخاص قد اضطجعوا كيفما اتفق .

– مرحبا ايها الاولاد .

– مرحبا .

– هل تركتم البلد منذ زمن طويل ؟

– منذ اسبوعين .

وسألنى احدهم :

– ولكن من انت ؟

واقول اسمى فيصادف انهم يعرفونه جميعهم . كان لقاء بين ابناء المنطقة ، ففاضت الالسنة . وسألت :

– هل تسأمون ؟

– وى ، واية سآمة ! لو كنا على الاقل نأكل جيدا . . . ولكن ، يا له من طعام ردىء !

– الى اين يسوقونكم ؟



– من يدرى ؟ لقتال الترك على ما يقال . . .

– هل تودون ان تذهبوا الى الحرب ؟

– وماذا اجد هناك ؟

واسألهم عن بلدتنا . فتحرك ذكريات الوطن الالسنة . يدور الحديث عن زواج تم منذ امد قريب ، بيع لاجله زوج من الثيران واذا العروس يدعى للجندية وتمنى المتمنون لمحضر المحكمة ان «يموت مفتوح الفم» ، وتشكى آخرون من شح الاراضى الذى هجّر هذه السنة عدة مئات من الناس من ضاحية ماركوفكا على ضفاف نهر الآمور . . . ولم يتطرق الحديث الا الى الماضى ، ولم يفه احد بكلمة عن المستقبل ، عن المشقات والاخطار والعذابات التى تنتظرنا . ولم يول احد اهتماما للترك او البلغار او القضية التى نذهب للموت من اجلها .

ويتوقف جندى صغير ثمل من جنود الحامية عند زمرتنا . وحينما سمعنى اتكلم عن الحرب صرح قاطعا :

– الاتراك يجب ان نقاتلهم .

– حقا ؟ – قلتها مبتسما على الرغم منى للهجة الواثقة .

– معلوم يا سيدى حتى لايبقى تركى يصفر النار . ان عصيانهم سبب بلائنا والمقالب السيئة التى تقع لنا . لو كانوا عقلاء لكنت مع ابى وامى فى احسن حال . ولكنهم يتغالظون فتقوم قيامتنا نحن . كن مطمئنا ، انا اعلم ما اقول . هل من سيكارة ، يا

سيدى ؟ – قالها فجاة وهو يأخذ وضعية التهيؤ ويده على حافة عمرته .

واعطيه سيكارة واستأذنت من اولاد بلدى واعود الى البيت لاننا احرار ذلك المساء .

«يتغالظون فتقوم قيامتنا نحن» . . . لا يزال صوت السكران يرن فى اذنى . انه مختصر واقرب الى ان يكون غامضا ، ولكن ما افصحه واقدره على الايضاح .

ويرين على مسكن آل لفوف هموم قاتم . كوزما على اسوأ حال على الرغم من ان جرحه قد تطهر . انه يهذى يئن ، وهو فى لهيب . ومنذ ذهابى الى الخدمة لم يتركه الاخ والاخت لحظة واحدة . والآن حينما اصبح رحيلى مؤكدا ارى الاخت اكثر حزنا والاخ اكثر قتاما .

يقول لى حينما حييته فى غرفته الغاصة بدخان التبغ ، المثقلة بالكتب :

– ها أنت ذا فى اللباس العسكرى . يا للناس الملاعين انتم . . .

– اى ناس ، يا فاسيلى بتروفتش ؟

– انتم تمنعوننى من الدراسة هنا . لم يعد عندى وقت . سيرسلوننى الى الجبهة قبل نهاية السنة . سافوت على نفسى كومة من الدروس . وانتم تزعجوننى فوق هذا ، انتم وكوزما .



– كوزما سيموت . هذا مفهوم ، ولكن انا ؟

– انت ايضا . اذا لم يقتلوك تصبح مجنونا او تطيّر دماغك رصاصة . انا اعرفك . رح ، اعرف حالات سابقة مماثلة .

– ما هى ؟ أانت تعرف حالات انتحار ؟ قصّ علىّ يا فاسيلى بتروفتش .

– اغرب عن وجهى . انا لست حريصا على زيادة حزنك . هذا سيىء من اجلك . وبعد ، فانا لا اعرف شيئا وما تكلمت الا لكى اقول شيئا من الاشياء .

ولكنى لا ادعه بل الح ، فينتهى الى الايضاح :

– عرفت ذلك من فم ضابط مدفعى جريح . كان قد ترك كيشينيوف فى شهر نيسان فور اعلان الحرب . وكانت امطار غزيرة مستمرة قد حولت الطرق الى اوحال تنغرز فيها المدافع والعربات حتى محاورها . ولم تستطع الخيل جرها فقطرها الرجال . وكانت المرحلة الثانية شنيعة : اثنا عشر مرتفعا خلال سبعة عشر فرسخا ومستنقع فى كل فترة فاصلة يغوصون فيه حتى الحناجر . توقفنا فيه . والسماء تمطر مدرارا والرجال مبتلون جائعون منهوكون ولكن يجب جر المدافع والخروج من هنا . ويسقط جنود . وقد وهن العزم منهم ، مغشى عليهم ووجوههم فى الطين . ويندسون فى طين آخر لا يمكن وصفه ولكنهم لا يكفون عن الجهاد . «انا اختلج لمجرد التفكير فى ذلك» – هذا ما كان يقوله لى الضابط . وكان ثمة طبيب من الدفعة الاخيرة ، فتى عصبى جدا . كان

يبكى ويقول : «انا لم اعد اطيق رؤية هذا ، سأذهب فى المقدمة» . واذا هو راحل . وصنع الجنود طريقا من الاعواد . كان بمثابة جسر حقيقى . ساروا عليه . ولما تسلقت البطارية السفح وجدت الطبيب مشنوقا الى شجرة . . . هذه هى السابقة . اذا عجز هو عن تحمل منظر العذابات فكيف تصنع انت ؟

– أليس الالم افضل من اليأس الذى صار اليه هذا الطبيب يا فاسيلى بتروفتش ؟

– انا لا افهم اللذة فى لعب دور البهيمة الصابرة .

– على الاقل يظل وجدانى طاهرا .

– هذا ، ايها العزيز ، شىء دقيق جدا . لمثل هذه القضايا توجه الى اختى فهى تعرف هذه الاشياء جيدا . ان «انّا كارنينا» ودستويفسكى ميدانها . هذا الشىء يجب ان يحلل فى رواية ما . وداعا ، ايها الفيلسوف .

وبسط لى يده ، ضاحكا ضحكة طيبة لنكتته .

– الى اين ؟

– الى مستوصف حى فيبورغ .

وادخل غرفة كوزما . كان لا ينام ويحس بتحسن حاله ، هذا ما اعلنته لى ماريا بتروفنا الجالسة كالعادة عند سريره . لم يسبق له ان رآنى فى البدلة العسكرية ، فبدا مدهوشا غير راض عن رؤيتى وتساءل :

– هل تظل هنا او يرسلونك الى الجبهة ؟

– يرسلوننى . ألا تعرف ؟

صمت .



– بلى . ولكنى نسيت . ذاكرتى ضعفت يا صاحبى . . . اذهب ما دام ذهابك واجبا .

– وانت ايضا ، يا كوزما فومتش ؟

– ماذا ؟ انت لست من رأيى ؟ ما هى افضالك حتى يوفروك ؟ اذهب ، اذهب ومت . هناك اناس انفع منك واكثر كدحا ويذهبون . . . سوّي مخدتى . . . هكذا .

كان يتكلم فى خفوت بلهجة غضوب كأنه يأخذ على الآخرين مرضه .

– انت على صواب . ولكنى لا ارفض الذهاب الى القتال . انا لا احتج من نفسى . لو ان الامر يقتصر علىّ لبقيت ، والبقاء سهل جدا . ولكنى استنكف عنه . سأقوم بواجبى مثل كل الناس على الا يحظر علىّ الادلاء برأيى .

كان كوزما جامد الاسارير يحدق فى السقف ولا يبدو عليه انه يصغى الىّ . واخيرا ادار رأسه الىّ متئدا . قال :

– لا تحمل اقوالى على محمل الجد فان اعصابى ثائرة واغضب بلا سبب ولا انفك مشاكسا . لا ريب فى انه الموت يقترب .

– شجاعتك يا كوزما . ان جرحك قد تطهر وهو يندمل . كل شىء صائر الى التحسن . عليك ان تتحدث الآن عن الحياة لا الموت .

وترفع ماريا بتروفنا الىّ عينين واسعتين

محزونتين . فاتذكر فجأة انها قالت لى قبل اسبوعين يوما : «لا ، سيموت» .

ويلاحظ كوزما فى ابتسامة واهنة : — والحقيقة ، ما اجمل ان تبعث . سيرسلونك الى المعمعة وسنذهب نحن ايضا ماريا بتروفنا وانا : ستكون هى ممرضة وانا طبيبا . وساعنى بك كما تعنى بى .

وتتدخل ماريا بتروفنا قائلة :

— كفاك ثرثرة يا كوزما فومتش . يجب عليك الا تتكلم . وبعد ، فقد حانت ساعة عذابك .

واستسلم لنا . فنزعنا عنه ثيابه ورفعنا الضمائد وشرعنا فى غسل صدره العريض المشوه . كنت ، اذ اسلط نافورة السائل على الثقب الدامى الذى يظهر منه طرف عظم الكتف لامعا كالمحار وعلى الوريد الذى يقطع الجرح كله واضحا طليقا كأنه جثة اعدت لدراسة تشريحية لا جرح انسانى ، افكر فى جروح اخرى لا حصر لها اكثر فظاعة وهولا لم تسببها الصدفة ولكن الافعال المتعمدة .

ولا اصف هنا ما يجرى عندى فى البيت وما استشعره فيه . ان دموع امى والصمت المرهق الذى يرتق على مائدة الاسرة والطيبة الخصبة التى يحيطنى بها اخوتى واخواتى ، كل ذلك قاس على العين والسمع ، والكتابة عنه اشد قسوة . وعندما يخطر



فى بالى ان علىّ ان اترك بعد اسبوع واحد حشاشة قلبى تخنقنى العبرات . . .

حان ميعاد الوداع النهائى . غدا مع الفجر تسافر دفعتنا بالسكة الحديدية وقد سمح لى تمضية الليلة الاخيرة فى المنزل . وها انذا وحدى فى غرفتى لآخر مرة . آخر مرة ! هل يعلم اولئك الذين لم يعيشوا مثل هذه اللحظات ما معنى هاتين الكلمتين ؟ هذه هى المرة الاخيرة التى رأيت فيها اسرتى تتفرق ، وجئت للمرة الاخيرة اجلس فى غريفتى الى المنضدة التى ينيرها مصباح واطئ مألوف . مضى شهر مديد لم امد طواله يدا الى الكتب والاوراق التى تزدحم فوقها . لآخر مرة اتفحص عملى الذى بدأت . انه هنا ميت ، ناقص ، مهمل ، بدلا من ان تنهيه تزمع سفرا الى آخر الدنيا صحبة آلاف من الرجال الآخرين لان التاريخ يطالب بقواك الجسمانية . واما قواك الروحية فلا احد يحتاجها . ما نفع تنميتها طوال سنوات املا فى استخدامها ذات يوم ؟ ان الجهاز الواسع الغامض الذى تكوّن انت جزيئا رقيقا منه يرى استئصالك مثل زائدة لا غناء فيها . وماذا تملك ضد هذه الرغبة انت ،

. . . انت الذى لا تعدو ان تكون اصبعا فى قدم ؟ . . .

ولكن يكفى . لنأو الى السرير ونحاول النوم . علىّ ان استيقظ غدا فى ساعة مبكرة جدا .

لم اشأ ان يرافقنى احد الى المحطة لان الرحيل

الطويل يسبب فيضا من الدموع . ولكن لما اتخذت مكانى فى المقطورة المكتظة ناءت على الوحدة والكآبة بكلكل تمنيت معه ان ادفع غاليا لكى اقضى هاتيك الدقائق بين اصدقاء . واخيرا ازف الموعد ولكن القطار لا يتحرك ، ويظهر ان امرا قد احتجزه . نصف ساعة ، ساعة ، ثم ساعة ونصف وما يزال القطار لا يتحرك . فى ساعة ونصف كنت استطيع ان اذهب الى دارنا واعود . . . فقد ينفد صبر احدهم ويأتى الى . . . لا ، انهم جميعا يعتقدون ان القطار قد رحل ، وكيف يخطر لهم انه تأخر ؟ ومع ذلك . . . كان قلبى يضطرم بامل خفى فانظر من الباب . لم احس من قبل قط بان الزمن على مثل هذا البطء .

صوت البوق الرنان الذى يعلن التجمع يرعشنى . والجنود المحتشدون على الرصيف يسرعون الى العربات . القطار على وشك الرحيل ولا ارى احدا من جماعتى .

لا ، كنت على خطأ . هانذا ارى آل لفوف ، الاخ والاخت ، يهرعان فيخفق قلبى فرحا . لست ادرى مما قلناه بعضنا لبعض الا هذه الجملة : «امان كوزما» .

هنا تنتهى هذه المذكرات .

حقل واسع من الثلج ينبسط بين هضاب بيضاء



مكسوة باشجار بيضاء متجمدة . والسماء دانية عائمة ، وبشائر الذوبان فى كل مكان . والرصاص يئز ويختلط بطلقات المدافع ، والدخان الذى يلفع احد المرتفعات يهبط نحو السهل بطيئا . ومن خلال هذه الستارة تتراءى كتلة متحركة ، اذا امعنت النظر اليها رأيتها تتالف من نقاط منفصلة سوداء . كثير منها فى حال الجمود والاخرى تتابع تقدمها دائما على الرغم من ان عددها يتناقص مع ارتداد الطرف . وان الهدف الذى لا يزال بعيدا يتعين بالدخان الكثيف وحده .

وفوج الاحتياط منبطح فى الثلج ، البندقية فى اليد ، يلاحظ باعينه الالف مسير الكتلة السوداء .

– الاولاد يعودون الى التقدم . . . آه ، لن يصلوا ابدا !

– لماذا يحتجزوننا هنا ؟ اذا جاءت رفاقنا نجدة لم تطل المعركة .

– اذن فقد سئمت الحياة ؟ – يهر بها جندى مسن – ظل هادئا اذن ، وسرّ من انك سالم .

فيجيب فتى مرح القسمات :

– سابقى سالما من كل بد ، يا عمى . كنت اربع مرات فى خط النار وما من خدش ! فى البداية يركبك الخوف ، ولكن هذا لا يدوم . السيد الجديد ، اراهن على انه يسلم امره الى الله . أليس صحيحا يا سيدى ؟

ويقول جاره وهو رجل اعجف اسود اللحية :

– ماذا هناك ؟

– تشجع يا سيدى ؟

– ولكنى لست املّ يا صديقى .

– ابق قربى اذا حدث شىء . لقد جربت الشىء الكثير . ولكن السيد شجاع ولن يهرب ؛ ذلك لان سيدا كان قبلك شمر عن ساقيه من الهجوم الاول وقذف زنار الرصاص وبندقيته . هذه امور لا تفعل نظرا لانا اقسمنا اليمين .

ويجيب «السيد» فى صوت خفيض :

– لن اهرب ، اهدأ بالا . . . فلا مفر من الرصاص .

– معلوم ، اين المفر منها ؟ . . يا امى . . . اعتقد ان جماعتنا لا يتحركون .

وتتوقف الكتلة السوداء وقد جللها الدخان .

– ها هم اولاء قد بدأوا الرمى ، يظهر انهم ينسحبون . . . لا ، انهم يستأنفون التقدم . ايتها العذراء المقدسة ، احمينا ! ضربة اخرى . . . روحوا . . . ما اكثر الجرحى يا ربى ، ولا احد يلمهم .

وترتفع ضجة :

– رصاصة ! رصاصة !

ويسمع صفير فى الفضاء . انها رصاصة طائشة مرت من فوق قطعات الاحتياط تتبعها اخرى وثالثة ... وتقوم قيامة الفوج .

ويصيح صائح :



– نقالة !

الرصاصة الطائشة ادت وظيفتها . اربعة من حاملى النقالات يهرعون نحو جريح . فجأة ، على هضبة تقع خارج العملية الحربية تظهر اشباح الرجال والخيول الصغيرة . ومن هذه الجهة تطير حالا عمامة مدورة بيضاء من الدخان كأنها كرة من الثلج .

ويصيح جندى مرح :

– انها تستهدفنا ، بنت الكلب !

وتقبل قنبلة مقرقرة ويهدر انفجار . فيلتصق الجندى بالارض . وعندما يرفع رأسه يرى «السيد» منبطحا على بطنه ويداه على شكل صليب وعنقه قد مال ميلا غريبا . ان رصاصة طائشة اخرى خلفت ثقبا كبيرا اسود فوق عينه اليمنى .

١٨٧٩

## لقاء

ضوء القمـــر ينتشر على عشرات الفراسخ عريضا لامعا مرتعشا ؛ والبحر فيما عداها قاتـــم ؛ والضوضاء الصماء من الامواج الضاربة على الشاطىء الرملى تصعـد قمة السفح ؛ واشباح المراكب اشد سوادا من البحـر تتأرجح فى الخليج . وسفينة ضخمة («لا بد انهـــا انكليزية» – يقول فاسيلى بتروفتش فى نفسه) تقع فى منطقة النور ، تبصق بخارها نافورة من غمام تبدو فى الفضاء . والبحر يفوح هواء رطبا مملحـــا . وفاسيلى بتروفتش الذى لم ير قط مثل هذا المنظر يتأمل البحر وضوء القمر والبواخر والشراعيات معجبـا . ولاول مرة فى حياته يستنشق هواء البحر متلذذا . وهو يتأنى فى ترشف هذه الاحاسيس الجديدة ، وقد ادار ظهـره الى المدينة التى حل بها منذ امد يسير لكى يحيا فيهـــا سنوات طويلة . كان وراءه حشد غريـــب يتنزه فى



الشارع ، فتسمع كلاما بمختلـــف اللغات : اصوات الشخصيات المحلية الرزينة تتداول سمعـك مع ثرثرة الآنسات والضجة المرحـة الصادرة عن طلاب المدارس البالغين الذين يجولون شراذم حول اثنتيـــن او ثلاث منهن . وتنطلق ضحكة من احدى هذه الشراذم ، تجذب انتبـــاه فاسيـــلى بتروفتش . وتمـــر العصابـة الممراح من قربه ووجه فتى الى طالبة خطابا متدفقا ، يبدو وكأنه يتبرأ ، ورفاقه لا ينقطعون عن مقاطعته .

– لا تثقى به يا نينا بتروفنا ! انه كاذب محتال .

– نينا بتروفنا ، اؤكد لك انها ليست خطيئتى !

وترد الفتاة فى لهجة تحاول ان تكون وقورا :

– شيفيريـــف ، اذا بدا لـــك ان تخدعنى مرة اخرى . . .

ولا يسمع فاسيلى بتروفتش الخاتمة لان العصابـة قد ابعدت . وبعد لحظة بلغته ضحكة اخرى صادرة من الظلام .

ويقول فاسيلى بتروفتش فى نفسه : «هـــا هو ذا الحقل الذى ساعمل فيه كادحا متواضعا» . قالها لانـــه عين استاذا فى ثانوية المدينة ولأنه كان يحب ان يعبّر عن افكاره مجازيا حتى وان لم يقلهـــا بصوت عال . ويتابـــع حديثه لنفسه وهـــو يتخـــذ مجلسه على مقعد مواجها البحر : «اجل ، يجب ان اقنع بهذا الميدان المتواضع انا الذى كنت احلم بالتدريس فى الجامعـة ،

بان اكون صحافيا ، بان اشتهر ! لقد اعوزك الايد ، يا عزيزى فاسيلى بتروفتش . فجرب قواك هنا !» .

وترف فى رأس الاستاذ المقبل افكار جميلة وسامية. يقطع على نفسه عهدا ان ينقّر منذ الصفوف الصغيرة على «النار المقدسة» التى تتأجج عند تلامذته . وسيشجع الطبائع التى «تسعى لخلع نير الجهالة» ، ويسهر على نمو القوى الجديدة الطرية التى «لم تلوثها قذارة الحياة المبتذلة» ، واخيرا ، يصبح اولاده ذات يوم رجالا مرموقين . . . ويبتدع خياله حتى ابتدع مثل هذا المنظر : فاسيلى بتروفتش ، هرم ، اشيب ، يزوره فى مسكنه المتواضع تلاميذه القدامى . احدهم استاذ فى الجامعة «معروف عندنا وفى اوربا» ، والآخر كاتب ذائع الصيت ، والثالث رجل سياسة مشهور ايضا . وكلهم يظهرون له الاحترام . «يا فاسيلى بتروفتش العزيز ! ان الحبة الطيبة التى بذرتها فىّ حينما كنت طفلا قد افرعت» ، يقول هذا رجل السياسة وهو يشد على يد المعلم الشيخ فى حرارة . . .

ولكن الافكار العالية التى تشغل فاسيلى بتروفتش لا تلبث ان تفسح المجال لاعتبارات من الصنف العملى . فيخرج محفظة نقوده الجديدة وراح يحصى ما له ويحسب ما يتبقى معه بعد تسديد كل النفقات الضرورية . ويقول فى نفسه : «كنت مبذرا اثناء الرحلة ، للاسف . اجرة البيت . . . نفرض عشرين روبلا فى الشهر ، الغذاء ، الغسيل ، الشاى ، التبغ . . . على الاقل اوفر



الف روبل فى ستة اشهر . وقد ألقى دروسا خاصة لقاء اربعة او خمسة روبلات لكل منها . . .» ويتملكه الشعور بالرضا ويستشعر الرغبة فى ان يخرج من جيبه رسالتى توصية يحملهما الى متنفذين فى البلدة وان يقرأهما للمرة العشرين . ويخرجهما ويفك فى عناية الورق الذى يغلفهما ولكنه لا ينجح فى قراءاتهما لأن ضوء القمر اضعف من ان يتيح له مثل هذا الاستمتاع . فى الرزمة ذاتها صورة يديرها فاسيلى بتروفتش نحو القمر ويجدّ فى تميز ملامحها الاليفة . «ليزا ، يا حبيبتى !» . يقولها فى صوت يكاد يكون عاليا ويتنهد فى غير قليل من الحرقة . ان ليزا خطيبته ، تركها فى بطرسبورغ فى انتظار توفير الف الروبل التى رأيا انها ضرورية لاستقرارهما .

ويضع متنهدا الصورة والرسالتين فى جيب سترته الايسر ويفكر بحياتهما الزوجية المقبلة . فيخيل اليه ان هذه الاحلام احلى على القلب من اسطورة الرجل السياسى القادم لكى يشكر له الحب الطيب الذى بذره فى نفسه .

وبعيدا فى الاسفل ، كان البحر يضوضى فى خفوت ، والريح رطيبة . والسفينة الانكليزية قد تركت طريق النور الذى لا يزال يشع فيه الف نور مذهب ، وهى الآن ماضية تتلألأ اكثر فاكثر الى اللانهاية . وفاسيلى بتروفتش راغب عن ان يقتلع نفسه من هذا المشهد ويروح ينحبس فى غرفة الفندق الضيقة .

ولكن الساعة متأخرة وهو ينهض ويسلك الشارع .

وينهض سيد يلبس بدلة حريرية وقبعة من القش ذات شريط من الموسلين (زى المتأنقين المحليين الصيفى) عن مقعده عند مرور فاسيلى بتروفتش ويقول له :

– نارا من فضلك .

– فى خدمتك .

ويضىء نور الثقاب وجها معروفا .

– نيكولاى ، يا صديقى ، اهذا انت ؟

– فاسيلى بتروفتش ؟

– بالذات . . . ما اشد سرورى ! . . يحدثونك عن المفاجأة هذه هى المفاجأة . – هكذا يهتف فاسيلى بتروفتش وهو يعانق صديقه ويقبله ثلاث مرات – ماذا تصنع هنا ؟

– اشتغل . وانت ؟

– عينت استاذا فى الثانوية ووصلت منذ قليل .

– اين نزلت ؟ اذا كنت تقطن الفندق فتعال عندى . سعيد برؤيتك . انت لا تعرف احدا هنا ، اليس كذلك ؟ هلم ، نتعشى ونثرثر ونستعيد الذكريات .

– دعوتك لا ترفض ، – قال فاسيلى بتروفتش موافقا . – انا سعيد جدا ، انا الذى كنت اخالنى احل فى صحراء . . . هذا هو الحظ ! ايه ، يا حوذى !

– لا حاجة بنا الى عربة . تقدم ، يا سيرغى ! – هكذا ينطلق الامر من شفة الصديق هادئا قويا .



وهنا عربة بديعة تتوقف قرب الرصيف فيقفز صاحبها الى داخلها . وفاسيلى بتروفتش مصعوق يتأمل العربة والجوادين الاسودين والحوذى الضخم .

– أهذان الحصانان لك ، يا كودرياشوف ؟

– نعم لى . وهل يدهشك ذلك ؟

– ما اعجب كل هذا . . . أهذا انت حقا ؟

– من كل بد . هلم اصعد ! الوقت امامنا متسع للحديث .

ويقعد فاسيلى بتروفتش الى جانب كودرياشوف وتمضى العربة وهى تقرقر وتترجرج على بلاط الشارع . ويبتسم فاسيلى بتروفتش ، تهدهده الحركة ، على الوسائد الرخوة ويقول فى نفسه : «ما هذه الحكاية ؟ كودرياشوف ، الطالب الفقير سابقا ، يصبح من الاغنياء» . واما كودرياشوف فيدخن سيغارة صامتا وساقاه ممدودتان على المقعد الامامى . وتتوقف العربة بعد خمس دقائق .

ويقول كودرياشوف وهو يقفز من العربة ويساعد صديقه على النزول .

– وصلنا يا صاحبى ، انزل ! ساعرفك بكوخى المتواضع .

وقبل ان يدخل الزائر الكوخ المتواضع جعل يطيف به نظراته . الواجهة فى الظل فلا يميز الا بناء من الحجر بطابق واحد له عشر او اثنتا عشرة نافذة واسعة . وتحمى سقيفة على شكل شمسية محمولة على اعمدة صغيرة

مزينة بالنقوش باب المنزل وهو مصنوع من السنديان الثقيل ومزجج بالمرايا ومزود بأكرة من البرونز على شكل قائم طائر يمسك موشورا بلوريا . واسم المالك محفور على لوحة من النحاس .

– وتتكلم عن كوخ ، يا كودرياشوف . قل انه قصر ، – هكذا يصرح فاسيلى بتروفتش وهو يدخل الدهليز المؤثث بالسنديان تزينه مدفأة جدارية فاغرة شدقا اسود واسعا – اهذا ملكك ؟

– لا ، يا صاحبى . انا لم اشتر . انا مستأجر . وليس غاليا :الف وخمسمائة روبل .

– الف وخمسمائة روبل ! – يرددها فاسيلى بتروفتش .

– هذا اربح من هدر رأسمال يدر عليك مستثمرا اكثر منه مجمدا فى عقار . ناهيك بانى احتاج مبلغا ضخما ، لانى اذا اعتزمت البناء فلا يمكنك ان تبنى جحرا مثل هذا .

فيصرخ فاسيلى بتروفتش مذهولا :

–جحر !

– نعم ، المنزل لا بأس . هلم ، تعال فى سرعة . .

ويتبع فاسيلى بتروفتش مضيفه وقد خلع معطفه . ويسبب له داخل المنزل ذهولا جديدا . هناك صف من الغرف العالية ، ارضياتها خشبية لامعة ، وجدرانها محلاة بالذهب . غرفة الطعام جدرانها من الخشب المشغول مزينة بنماذج الصيد المحنطة الرديئة ، وثمة بوفيه



شاسعة منحوتة ومنضدة مستديرة كبيرة تضيئها انوار باهرة تنصب من ثريا برونزية ذات اباجور شاف . وغرفة الجلوس تزدحم ببيانو وبكمية من قطع الاثاث المصنوع من الزان ورسوم غالية ولوحات تافهة فى اطر مذهبة . والصالة التقليدية مفروشة باثاث مغطى بالحرير ، فيها عدد لا يحصى من الاشياء التى لا لزوم لها . يظهر ان رب البيت قد اثرى بين عشية وضحاها ، ربح مائتى الف روبل فى اليانصيب ، واعد هذه الشقة الضخمة على عجل . كل ما فيها قد اكتسب جملة ، وبلا ضرورة ؛ فلم يشتر هذا البيانو الا لكى يصرف المال ، هو الذى لا يعرف العزف الا باصبع واحدة ، ولوحة قديمة لا قيمة لها ، واحدة من تلك اللوحات الرديئة الكثيرة المعزوة للرسام الفلمندى من الصنف الثانى لا يؤبه له احد ، وشطرنج صينى الطف من يستخدم ، ولكن الرؤوس فيه متألفة من ثلاث كرات كل واحدة منها داخل الاخرى ، وكومة من الاغراض الاخرى .

ويدخل الصديقان المكتب وهو اشد الامكنة حفاوة . كان فى وسط الغرفة مكتب كبير مثقل بالاعلاق الصغيرة المصنوعة من البرونز والبورسلين ، والاوراق وادوات الرسم . على الجدران مخططات شاسعة ملونة وخرائط جغرافية منشورة فوق اريكتين تركيتين واطئتين ذات نمارق من الحرير . واحاط كودرياشوف

خصر فاسيلى بتروفتش بذراعه وقاده الى اريكة واجلسه عليها وقال :

– سعيد جدا ، سعيد جدا بلقيا صديق قديم .

– وانا ايضا . . . انا الذى كنت اخالنى احل فى صحراء . . . يا لها مفاجأة ! هل تعلم ، يا نيكولاى كونسانتينوفتش ، انك ايقظت فىّ كثيرا من الذكريات الغالية . . .

– ايها ؟

– وتسألنى ايها ؟ ايام دراستنا ، حينما كنا فى خير ، اذا لم يكن ماديا ، فمعنويا على الاقل . هل تتذكر . . .

– ماذا ؟ الحرمان ؟ حسبى يا صاحبى . فقد شبعت منه . . . هل تريد سيغارا ؟ خذ ، هذا يسمى «روغاليا امبيريالیا» او شيئا من هذا النوع ؛ على كل حال السيغار الواحد يسوى خمسين كوبيكا .

وتناول فاسيلى بتروفتش من العلبة الكنز الذى قدم له وجزه بسكين اخرجه من جيبه واشعله قائلا :

– اخالنى احلم . انا لا اصدق انك بعد سنوات قلائل وقعت على هذه الوظيفة البديعة .

– وظيفتى ؟ انها مسكينة ، ايها العزيز .

– ماذا ؟ كم تقبض ؟

– رواتب ؟

– نعم .



– ان رواتب كودرياشوف الثانى ، المهندس ، سكرتير الاقليم ، الف وستمئة روبل فى السنة .

واستطال وجه فاسيلى بتروفتش .

– ماذا ؟ اذن من اين يأتى كل هذا ؟

– واها ، يا عزيزى ، ما اشد سذاجتك ! من اين هذا ؟ من الماء ، من التراب ، من البحر ، من الشاطىء . ولكن على الاخص من هنا .

ومس جبينه بسبابته .

– هل ترى هذه الصور على الجدران ؟

– نعم . وبعد ؟

– هل تدرى ما هى ؟

– لا .

ونهض فاسيلى بتروفتش واقترب من الرسوم . لم يفهم شيئا من البقع الزرقاء والحمراء والسمراء والسوداء ، وكذلك الحال مع الارقام الغامضة المسطرة قرب الخطوط المرسومة بالحبر الاحمر .

– ما هذه ؟ رسوم ؟

– نعم ، ولكن رسوم ماذا ؟

– انا لا ادرى ، يا صديقى .

– مولص مقبل ، ايها العزيز . هل تعلم ما معنى كلمة مولص ؟

– من كل بد . ومهما يكن من امر انا استاذ اللغة الروسية . المولص بمعنى هو . . . نوع . . . من الجسور داخل البحر ، ماذا . . .

– تماما جسر يشكل خليجـــا اصطناعيا . وهذه رسوم مولص نحن بسبيل انشائه . هل رأيت البحـــر من اعلى الشاطىء ؟

– نعم ، طبعا . منظر رائع ! ولكن لم ار ورشة .

فقال كودرياشوف ضاحكا :

– وى ، ولكن المولص يكاد يكون جميعـــه فوق الارض اليابسة ، لا فى البحر .

– كيف هذا ؟

– عندى وعند البنائين الآخريـــن : كنوبلوخ ، بويتسيكوفسكى وغيرهما . هذا سر طبعا ، انا اكلمك واثقا بك . لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ الامر مع ذلـــك بسيط .

– ولكن هذا مقيت ! هل هذا ممكن ؟ ألا يثيـــر اشمئزازك اللجوء الى وسائل غير شريفة لكى تدفع ثمن هذه الفخفخة ؟ ألم يكن من شأن الماضى الا ان يدفعك الى هذا . . . الى هذه . . . وتتكلم عن ذلـــك فى هدوء . . .

– على رسلك ، يا فاسيلى بتروفتش ! لا تنزلـق فى الكلمات الفخمة من فضلك . «وسائل غير شريفـة» تقول لى ؟ اشرح لى بادئ الامر ما هو شريف وما ليس اياه . انا اجهل ذلك . قد اكون نسيته ، الا اذا لـــم اكن تعلمته قط ؛ والواقع انـــك انت ايضا لا تعرف شيئا عن هذا الامر ولكنك تتفاضل . من جهـــة اخرى حسبك . ليس هذا من التهذيب فى شىء . احترم حرية



الرأى . انت تجد ان هذا غير شريـــف . كما تشاء . ولكن ليس هذا مبررا لشتمى : انا لا آخذ عليك رأيك المغاير . كل هذا من قبيـــل اختلاف وجهات النظر . ووجهات النظر من الكثرة فى حيث يجدر بنا الا نتكلم ، بل نذهب فنأكل ونشرب ونتحدث عن اشياء طلية .

– اه ، يا نيكولاى ، انت تحزننى .

– هذا حقك . احزن ما حلا لك . سينقضى حزنك حينما تتعرف بالحياة عن كثب ، ستقول : «لم اكن الا عجلا !» . اجل انا واثق من ذلك . هيا بنا ، تعال ، خذ قدحا صغيرا وانس المهندسين الضالين . وما وهبنـــا المخ الا لكى نضل . . . انت ، يا عزيزى الاستاذ ، كم ستقبض ؟

– ماذا يهمك من ذلك ؟

– قل على اية حال ؟

– زهاء ثلاثة آلاف مع الدروس الخصوصية .

– يا للبؤس ! تركض وراء الدروس كـــل عمرك لاجل ثلاثة آلاف روبل . واما انا فاشتغل حينما يحلـو لى العمل ؛ واذا خطر لى ان ابصق على السقـــف طوال النهار لاستطعت . واما العملـــة . . . فهى كثيرة حتى «انها عندنا توافه» .

المائدة مهيأة فى غرفة الطعام . وقطعة من لحـــم البقر تشمخ اكمة حمراء . وعلب المحفوظات تكشف عن لصائقها الملونة المكتوب عليها بالانكليزية . وبطارية من القنانى تصطف على الغطاء . ويشرب الصديقان قدحا

من الفودكا ثم يقبلان على العشاء . وكودرياشوف يمضغ في بطء ، في تقيد ، في تلذذ وتمهل .

ويأكل فاسيلي بتروفتش من غير ان يكف عن التفكير . وهو محرج جدا ، لا يعرف الاتجاه الذى ينحاز اليه . ان مبادئه تأمره ان يترك من فوره منزل رفيقه القديم ولا يضع فيه قدمه من بعد ابدا . «لان هذه القطعة مسروقة – يقول هذا في نفسه وهو يبتلع لقمة من اللحم ويشرب الخمر الذى يصبه له مضيفه متأدبا – ألست شريكا في هذا الانحطاط ؟» . ويتزاحم حشد من التعريفات المماثلة على راس الاستاذ المسكين ولكنها لم تبق الا تعريفات ، كان وراءها صوت خفي يعترض عليها «وماذا بعد ؟» . يحس انه عاجز عن حل المعضلة محيرا ويظل في مكانه . «ما انا هنا الا مراقب» – هكذا يقول في نفسه مبررا ، ولكن هذا الاعتذار يخجله . «مراقب؟ وعلام ؟ هل انا كاتب؟» .

ويصرح كودرياشوف :

– انت لا تستطيع ان تجد مثل هذا اللحم في المدينة كلها .

ويروى قصة طويلة : راى هذا اللحم اللذيذ على مائدة غداء عند كنوبلوخ الذى كشف له عن مصدره . ثم ابحاثه المستمرة التى تكللت اخيرا بالنجاح . واوجز قائلا :

– حظك عظيم . هل سبق لك ان أكلت لحما على مثل طراوته ؟



– طيب جدا . حقا .

– ممتاز ، يا صاحبى . انا احب ان يكون كل شيء عاليا . ولكنك لا تشرب ؟ انتظر ، سأصب لك خمرا .

ومضى يروى قصة طويلة اخرى ، قصة الخمر . وفيها ربان سفينة انكليزية ومحل تجارى في لندن وكنوبلوخ ايضا والجمرك . وطوال حديث كودرياشوف عن الخمر كان يترشفها ويزداد انتعاشا . وتصعد الدم بقعا حمراء الى خديه المتغضنين وتدافع كلامه . وقال اخيرا لفاسيلي بتروفتش الذى يستقبل ملاحم اللحم والخمر والجبن وبقية المآكل التى تزين مائدة المهندس بصمت عنيد :

– لماذا لا تقول شيئا ؟

– لست اشتهى الكلام ، يا صاحبى .

– كلام فارغ .. . انا ارى ان اعترافى هو الذى يعذبك . ويؤسفني كوني ادليت به . لولا هذا المولص الملعون لكنا تعشينا في شهية عظيمة . . . ولكن لا تعمد الى التفكير فيه ، يا فاسيلي بتروفتش . . . كيف ؟ فاسيا ، يا صغيرى ، دع عنك هذا ! ماذا تريد ، يا عزيزى ، انا لست فاضلا . الحياة والمدرسة امران مختلفان . ومن جهة اخرى اشك ان تنجح انت في الحفاظ على الطريق السوى .

– خل عنك الافتراضات ، ارجوك .

– اراك امتعضت ؟ . . لا ، لن تحافظ على الطريق السوى . ماذا تنفعك نزاهتك ؟ هل انت اكثر طمأنينة ؟

الا تشهد كل يوم ابتعاد افعالك عن مثلك العليا ؟ الا تقتنع كل يوم انها مبتعدة ؟ بلى ، أليس كذلك ؟ اشرب من هذا النبيذ ، انه عظيم .

ويملأ قدحا لنفسه ايضا ويتملى شفافيته ويتذوقه وهو يقرقع بشفتيه ثم يكرعه دفعة واحدة .

– اسمع ، ايها الصديق العزيز . هل تظن انى لا احزر تأثمك ؟ رح فانا اعرفه جيدا . «لماذا اجدنى عند هذا الانسان ؟ ليذهب عنى هو وخمره وسيغاره» . هذا ما تقوله فى نفسك . . . دقيقة ، دعنى اكمل . حتما ليس السيغار او الخمر هما اللذان يبقيانك . كلا . انت لن تكون مداهنا ابدا من اجلهما . هذا دور سيىء . ولكن اذا كنت هنا تكلمنى فذلك لانك تتردد عن اعتبارى مجرما حقيقيا . انا لا اثيرك ، هذا كل ما فى الامر . وهذا يحزنك بداهة ، لان رأسك فيها اعتقادات شتى ، وانا ، رفيقك وصديقك السابق ، محتال حسب هذه الاعتقادات . ومع ذلك فانت لا تبغضنى . الاعتقادات هى الاعتقادات . ولا يمنع ذلك انى فى الصميم انسان طيب وحتى خيّر . وانت تعلم جيدا انى لا اوذى احدا . . .

– هل تسمع لى ، يا كودرياشوف ؟ من اين اخذت كل هذا ؟ – واشار فاسيلى بتروفتش اشارة دائرة من يده – انت نفسك قلت انه ريع احتيال . اذن فانت تؤذى اولئك الذين تنهبهم .



– ما اسهل هذا القول : اولئك الذين تنهبهم . واما انا فطالما اجهدت فكرى باحثا عن الضحايا المزعومين فلا اجدهم . انت لا تعرف كيف تجرى هذه الامور ، واذا شرحتها لك فربما اعترفت ان من الصعب معرفة المنهوب .

ودق كودرياشوف الجرس فمثل خادم جامد الاسارير فى لباس اسود .

– ايفان بافلوفتش ، احضر لى الرسم المعلق بين نافذتى مكتبى . سترى ، يا فاسيلى بتروفتش ، مقدار عظمته : بدأت ارى فيه شاعرية ، والله .

ويحمل الخادم حذرا ورقة كبيرة ملصوقة على قماش فيأخذها كودرياشوف ويدفع الصحون والقنانى والاقداح ويبسط الرسم على الغطاء الذى يحمل بقع الخمر ويقول :

– انظر . هذا هو المقطع العرضانى للمولص وهذا هو المقطع الطولانى . الازرق هو البحر . انه عميق جدا فى هذا الموضع حتى يستحيل البناء على القاع . ولذلك نعد متكأ .

فيردد فاسيلى بتروفتش :

– متكأ ؟ يا للاسم الغريب .

– متكأ من الحصى الكبير الخشن يجب الا يقل حجمه عن قدم مكعب . – ويفصل كودرياشوف عن سلسلة ساعته بركارا صغيرا من الفضة ويثبته على خط فى الرسم وهو يقول :

– هاك ، يا فاسيلى بتروفتش ، هذا تواز * . اذا قسنا به عرض المتكأ حصلنا على خمسين ، ليس قليلا ، آ ؟ وهذه الكتلة من الحجارة تقوم فى القاع على ست عشرة قدما تحت سطح الماء . واذا اخذنا بعين الاعتبار عرض المتكأ وطوله الفظيع تصورنا حجمه . هل تعلم ان سفن النقل تأتى احيانا كل يوم تفرغ حمولتها وحينما يقاس ، نجد ان الزيادة زهيدة . كأنك تلقى الحصى فى هوة ليس لها قرار . . . المتكأ هنا مشار اليه باللون الرمادى العكر . وبينما يسير العمل به فى البحر نقوم فوقه بعمل آخر اعتبارا من الساحل . وعلى هذا المتكأ تنزل روافع بخارية كتلا ضخمة من الجص والاسمنت ، حجم كل منها تواز مكعب وتزن مئات البودات ** . يرفعها البخار ويديرها وينضدها صفوفا . وتستشعر احاسيس غريبة حينما ترغم هذه الكتلة الضخمة ان ترفع وتنزل حسب ارادتك باخف حركة من اليد . ان نظرة اليها فى طاعتها تشعرك بقوة الانسان . . . ها هى ذى هذه الكعب – يشير اليها ببركاره – وتبلغ مداميكها سطح الماء تقريبا ، ثم نشرع بالبناء بالحجر النحيت . قصارى القول : هذا الشىء لا يقل عن اهرامات مصر . انت تعرف الآن جملة هذا العمل الذى يستمر منذ سنوات ،

* تواز مقياس قديم للطول – ١,٩٤٩ م (المعرب) .
** البود وحدة وزن – حوالى ١٦ كغ (المعرب) .



ولا يعرف الا الله متى ينتهى . وكلما تأخر كان خيرا . . . والواقع ان الوتيرة التى يسير عليها تكفينا مدى الحياة .

ويتساءل فاسيلى بتروفتش بعد صمت مديد :

– وماذا بعد ؟

– وبعد ؟ فلا نزال هنا ونقبض ما يستحقنا .

– انا لا ارى بعد من قصتك امكانية الارباح .

– انت فتى صغير ، يا بنى . فى الحقيقة اظن اننا فى سن واحدة ولكن التجربة التى تعوزك جعلتنى حكيما . ألا تعرف ان ثمة عواصف تهب على البحار كافة ؟ انها هى التى تتدخل . تخرب المتكأ كل عام فننشئه من جديد .

– لا ارى امكانية . . .

فيستأنف كودرياشوف هادئا :

– ننشئه على الورق لان العاصفة تخربه هنا وحسب .

فاسيلى بتروفتش مصعوق .

– انت تريد ان تصدع المتكأ امواج لا يزيد ارتفاعها عن ثمانى اقدام ؟ بحرنا ليس بالاقيانوس ولا سيما ان المواليص التى من هذا النوع متينة جدا . وعندنا على عمق توازين وبعض التواز حيث ينتهى المتكأ يسود هدوء عميق . سأقول لك ، ايها العزيز ، كيف نتدبر امورنا . فى الربيع بعد تقلبات الطقس الخريفية والشتائية نجتمع لكى نقرر مدى الاضرار .

ونصور الامور على الرسوم ونكتب للمرجع الاعلى : كذا من المداميك المهدمة نتيجة للعواصف . فيأتى الجواب : هلموا ، ابنوا ، رمموا ! ونرمم .

– ماذا ترممون ؟

– جيوبنا .

يطلقها كودرياشوف ضاحكا من نكتته ذاتها .

فيهتف فاسيلى بتروفتش الذى وثب عن كرسيه وراح يذرع الغرفة مضطربا :

– هذا مستحيل ، مستحيل ! ولكنك تبحث عن موتك ، يا كودرياشوف . . . واذا صمتنا عن الاخلاق . . . اريد ان اقول ببساطة انهم سيكتشفونكم جميعا ذات يوم ، وتهلك ، يسوقونك الى سيبيريا . رباه ، اين هى الآمال والامانى ؟ فتى موهوب شريف واذا . . .

ويهيج فاسيلى بتروفتش ويتكلم طويلا وبحرارة . ولكن كودرياشوف ينظر اليه هادئا وهو يدخن سيجارة .

– اجل يسوقونك الى سيبيريا ! – هكذا ينهى الخطيب كلمة الادانة .

– سيبيريا لا تخيف ، يا صديقى . انت مضحك حقا ، لا تفهم شيئا . أ انا وحدى الذى . . . كيف اقول ذلك بصورة الطف . . . هل انا وحدى الذى اكتسب ؟ كل من حولى يسرق ، الهواء ذاته يبدو موبوءا . جاءنا ذات يوم واحد جديد وشرع يؤلف



مقالات فى النزاهة ، وماذا ؟ واذا هو يلوذ بالصمت . . . وهذا ما سنفعله دائما . الكل لواحد ، واحد للكل . هل تظن ان احدا يتمنى المصيبة لنفسه ؟ من يجرؤ على مسى مخاطرا بالتدحرج هو نفسه ؟

– اذن ، كما قال المؤلف كريلوف ، كلكم منغمس فى الفضيحة ؟

– اجل . منغمسون جدا . نحن نغتنم صفو الحياة عوضا عن ان نحبها حبا افلاطونيا . . . عم كنا نتحدث ؟ اجل ، عن ضحاياى . هل تستطيع ان تقول لى من هم ؟ بسطاء الناس ؟ وباى طريقة ؟ ولماذا ؟ انا لا امتح من المعين الاول مباشرة بل آخذ اللقية بعد ان انبش عنها ، واذا لم تقع بين يدى تقع فى يدى من هو اشأم منى . انا على الاقل لا اعيش مثل الخنازير ، بل اتمتع باذواق ثقافية ، وانا مشترك بعدة جرائد ومجلات . والناس يمتدحون العلم والحضارة ولكن ماذا يكون من امرهما من دوننا ، نحن الاثرياء ؟ من يضمن تقدم العلم غير الاغنياء ؟ ولكن الثروة يجب ان نحصل عليها فى مكان ما . واما الوسائل المعروفة بالشريفة . . .

– آه ، لا تكمل ، لا تقل كلمة اخيرة ، اتوسل اليك ، يا نيكولاى كونستانتينوفتش !

– كلمة ؟ انت تفضل ، ايها المخاتل ، ان اكذب ، ان احاول تبرير نفسى ؟ نحن نسرق ، هل تسمعنى ؟ واذا شئت الصراحة ، انت ايضا تسرق .

– اسمع ، يا كودرياشوف . . .

فيرد كودرياشوف ضاحكا :

– لا اريد ان اسمع . انت ايضا ، ايها العزيز ، مختلس باسم الفضيلة . ما هى حرفة المعلمين هذه ؟ أ انت معوض بعملك الكوبيكات البائسة التى يدفعونها لك حاليا ؟ أتكوّن انت رجلا شريفا واحدا ؟ ثلاثة ارباع تلاميذك سيكونون مثلى والآخرون مثلك : خرقا حسنى النية . قل لى بصراحة ، هل تستحق اجرتك ؟ وهل تسوى اكثر منى ؟ ومع ذلك تتشجع وتبشر بالنزاهة !

– يا كودرياشوف ! هذا الحديث يرهقنى ، اؤكد لك .

– واما انا ، فلا .

– لم اكن اتوقع ان اجدك هكذا .

– معلوم ، ان الناس يتحولون وانا تحولت ايضا . ولكنك لا تستطيع ان تتنبأ بالاتجاه الذى يأخذه تطورى لانك لست نبيا .

– الانسان لا يحتاج الى النبوة حتى يأمل ان يكون شاب مستقيم مواطنا صالحا .

– لا ، كل شىء الاّ هذه الكلمة ، ارجوك ، مواطن صالح ! فى اى كتاب مدرسى نبشت لى عن هذه العتيقة ؟ لا تكن عاطفيا ، فلم تعد صبيا صغيرا . . . كف ، يا فاسيا . – ويأخذ كودرياشوف فاسيلى بتروفتش من يده – خل عنك هذه المسألة الملعونة



من اجلى . لنشرب صديقين ، هذا خير . ايفان بافلوفتش ! قنينة اخرى ، يا صديقى ؟

ويخرج الخادم ثم يعود حالا بقنينة . ويملأ كودرياشوف القدحين .

– لنشرب على ازدهار . . . ماذا ؟ اى ازدهارك وازدهارى .

فيقول فاسيلى بتروفتش بلهجة الواثق :

– اشرب على هدايتك . هذه امنيتى الكبرى .

– كن صديقا ، لا تتذكر . . . اذا اهتديت اسقط فى يدنا وعجزنا عن الشرب . سيكون البؤس حليفنا . انت ترى ان هذا لا يستقيم . لنشرب دون امنيات . كفانا نقاشا . فلن نتفاهم على اية حال ابدا : لن تسلكنى سواء السبيل ولن اقنعك . ولا حاجة بى اصلا لأقناعك لأنك بالغه بوسائلك الخاصة .

ويهتف فاسيلى بتروفتش فى حرارة وهو يدق المائدة بقدحه :

– أبدا .

– من يعش ير . ولكننى هنا اتكلم عن نفسى ، وانت لا تقول شيئا . ماذا كنت تفعل ، ماذا تنوى ان تفعل ؟

– قلت لك انى عينت مدرسا فى الثانوية .

– أهذا اول عمل تناله ؟

– نعم ، حتى الآن كنت اعطى دروسا خصوصية .

– وتنوى الاستمرار فى اعطاء هذه الدروس ؟

– اذا وجدت تلاميذ ، ولِمَ لا ؟

– سنزودك بهم ! – ويربت كودرياشوف على كتف ضيفه . – سيعهد اليك بتعليم فتيان المدينة كلها . كم كنت تقبض فى بطرسبورغ عن الساعة ؟

– قليلا . روبلا او روبلين ، لا اكثر . لم اكن اعرف اسرا غنية .

– وتمرمر نفسك لاجل مبلغ تافه كهذا . لا تفكر فى ان تطلب هنا اقل من خمسة روبلات . التعليم عمل صعب مجهد : انا ايضا اتذكر كيف اعطيت الدروس فى السنة الاولى والثانية . كان يسعدنى ان اظفر بخمسين كوبيكا فى الساعة . ان ذلك اصعب العمل واقبحه . ساقدمك لمجتمعنا : اسر راقية ، اوانس فاتنات . اذا كنت عاقلا ازوجك . هل يعجبك هذا ، يا فاسيلى بتروفتش ؟

– لا ، شكرا لك . لا احتاج .

– هل خطبت لك ؟ حقا ؟

فاسيلى بتروفتش يتخذ سمتا محرجا .

– ارى ذلك فى عينيك . تهانىَ ، يا صديقى . لم تنتظر طويلا ، يا فاسيا الملعون ! ايفان بافلوفتش ! – صاح كودرياشوف .

ويظهر الخادم الوسنان العابس عند الباب .

– شمبانيا !

فيجيب الخادم فى عبوس :



– لم يبق .

– خل عنك ، يا كودرياشوف ! لا حاجة بنا .

– اسكت . انا لا اسالك رايك . اذن فانت تريد ان تغضبنى ؟ لا تعد ، يا ايفان بافلوفتش ، بلا شمبانيا . هل تسمعنى ؟ اسرع !

– ولكن المحلات مغلقة ، يا نيكولاى كونستانتينوفتش .

– لا تقل لى شيئا . معك دراهم ، تدبر امرك .

وينسحب الخادم وهو يهر .

– الحيوان يحتج . وانت تحتج ايضا . اذا لم تحتف بهذا فلم خلقت الشمبانيا ؟ . ومن هى ؟

– عمن تتكلم ؟

– عنها ، الخطيبة . . . أهى فقيرة ، غنية ، جميلة ؟

– علام اسميها لك ما دمت لا تعرفها ؟ انها لا تملك ثروة . واما الجمال فهو امر نسبى . انها عندى جميلة .

– معك صورتها ؟ اراهن على انك تحملها على قلبك . ارنى .

ويمد كودرياشوف يده .

وفاسيلى بتروفتش الذى صبغته الخمرة بالحمرة يزداد حمرة . ويحل عرى سترته من غير ان يدرى لماذا ويخرج مذكرته ويتناول منها الصورة الثمينة . فياخذها كودرياشوف ويتأملها .

– لا بأس بها ، ايها الصديق . انت تعرف الاكلة الطيبة .

فيقول فاسيلى بتروفتش قاطعا :

– هذب الفاظك . اعد لى الصورة .

– دعنى اتمتع . هاك ، كن سعيدا . اعدها الى قلبك ، ايها الاحمق الكبير – هكذا يقول كودرياشوف ذلك ضاحكا .

– ماذا ترى فى ذلك مما يضحك ؟

– لا شىء ، يا صديقى . الامر مسلٍّ . اتصورك بعد عشر سنوات فى ثوب البيت مع امرأة قبحهـــا الحمل وسبعة اطفال وقليل جدا من المال لكى تشترى لهم احذية وبنطلونات وطاقيات وما اشبه . ويطفح الكيل . أتظل هذه الصـــورة دائما على قلبك ؟ ها – ها – ها .

– فقل انت لى لأية شاعريـــة تعد نفسك ؟ ان تقبض المال وتنفقه وتأكل وتشرب وتنام ؟

– لا ، ان احيا . . . احيا شاعرا بحريتـــى وببعض قدرتى .

– اى قدرة عندك ؟

– قدرة المال . لى مال . انا افعل ما يعجبنى . . . استطيع ان اشتريك انت اذا اعجبنى ذلك .

– كودرياشوف !

– حلمك ! الا يمكن المزاح بين الرفاق القدامى ؟ لن اشتريك ، اطمئن . تستطيع ان تحيا على هواك .



ومـــع ذلك لا يمنعنى شىء ان افعـــل ما يحلـــو لى .

ويهتف كودرياشوف بغتة وهو يضرب جبهته :

– آه ، ما اشد بلاهتى . قضينا كل هذا الوقت معا ولم ارك اجمل ما عندى . اكل وشرب ونوم تقول لى ؟ سأريك شيئا يجعلك تسحب اقوالك . خذ شمعة وتعال .

– اين ؟

– سترى . اتبعنى .

ويحس فاسيلى بتروفتش ، وهو ينهض عن مقعده ، انه لا يملك توازنه تماما وساقـــاه متخلعتان . فلا ينجح فى ان يمسك الشمعدان مستقيما حتى يتحاشى مسيل الشمع على السجاد . ولكنه يسيطر على نفسه ما وسعه ويسير خلف كودرياشوف . ويجتازان عدة غرف وممرا ضيقا ويبلغان موضعا مظلما رطبا . كانت الخطى ترن على البلاط رنينا رتيبا اصم ، وخيط من الماء غير منظور يصدر وشوشة متصلة ، ومن السقف تهبط نوازل كلسية وزجاج ازرق ، والصخور الاصطناعيـــة الضخمة ترتفع هنا وهناك تخفيها نباتات استوائية غزيرة . وفى بعض المواضع تلمع مرايا قاتمة .

ويسأل فاسيلى بتروفتش :

– ما هذا ؟

– اكواريوم . انفقت فى تشييده عامين وكلفنى مالا كثيرا . انتظر حتى اضيئه .

ويغيب فى الخضرة . ويدنو فاسيلى بتروفتش من واجهة زجاجية ويتفحص ما وراءها . ان ضوء الشمعة اضعف من ان يتغلغل فى الماء عميقا ولكن اسماكا من مختلف الحجوم تجتذبها النقطة المضيئة فتتجمع فى منطقة الضياء وتحدق فى الزائر باعينها البلهاء وافواهها مفتوحة وتحرك خياشيمها وزعانفها . وترتسم فى الصدر اشباح طحالب يتململ بينها كائن هولة لم يستطع فاسيلى بتروفتش ان يميز اشكاله .

ويقسر سيل من الضوء المفاجئ الباهر فاسيلى بتروفتش على ان يغمض عينيه . فلما فتحهما لم يعد يعرف المكان . كاشفان كهربائيان اشعلهما كودرياشوف يضيئان كتلة الماء الزرقاء الكثيفة حيث الاسماك والحيوانات البحرية الاخرى تسبح بين الطحالب الحمراء القانية والسمراء والخضراء الكدرة التى تظهر واضحة على القاع العكر العديم اللون . والصخور والنباتات الاستوائية التى تبدو بالتضاد اكثر قتاما تصنع اطارا بديعا للزجاج الذى يرى منه داخل الاكواريوم . كل ما فيه من احياء تغلى وتضطرب وقد اخافها البهر . وقطيع من السمك الصغير ، الكبير الرأس يروح ويجىء ويستدير الى الوراء كانه ينصاع لأمر . ويتلوى نوع آخر من السمك ضاغطا نفسه الى الزجاج صاعدا هابطا بلا توقف كأنه يريد ان يتخطى هذه العقبة الشفافة القاسية . ويهرب انكليس اسود لامع فى الرمل مثيرا سحابة عكرة . وينفصل ام الحبر القصير



القبيح عن صخرة ويجتاز الاكواريوم قفزا وقفاه الى امام ساحبا وراءه ملامسه . المنظر مدهش جديد على فاسيلى بتروفتش حتى انساه المواقع .

ويعود كودرياشوف الى قربه ويسأل :

– كيف ؟

– رائع ، يا صاحبى ! انت موهوب . يا للذوق والمهارة ! كيف فعلت كل هذا ؟

– وتستطيع ان تقول : المعرفة ايضا . ذهبت خصيصا الى برلين حتى ارى عجائبها . واستطيع ان اقول بلا فخر ان ما عندى يقل عما هناك حجما ولكنه لا يقل جمالا . . . هذا زهوى ، عزائى . عندما اسأم آتى الى هنا فاراقب ما يجرى طوال ساعات . احب هذه البهائم لانها اكثر صراحة منا ، نحن الناس . انها يفترس بعضها بعضا غير محرجة ولا متاثمة . وقف ، هاك مطاردة .

كانت سمكة تهرب ، سابحة الى الاعلى والاسفل ثم الى الاطراف ، امام سمكة مفترسة طويلة . وتقفز فى خوفها القاتل خارج الماء وتختبئ خلف صخرة ولكن الاسنان الحادة تنالها . وتذهب السمكة المفترسة لتأكلها واذا اخرى تنط فجأة من جنب وتختطفها . وتتوقف الاولى محيرة بينما تختفى الغاصبة فى الظلمة .

ويهتف كودرياشوف :

– راحت عليك ، خدعت البلهاء . ما اغناك عن الركض خلف الغنيمة ما دمت تسلمينها باردة فى آخر

لحظة . . . فظاعة ، كم تأكل من الاسماك الصغيرة : انا اطلق كل يوم كمية هائلة وفى اليوم التالى لا يبقى منها شيء . انها تأكل من غير ان تفكر فى اللاأخلاق . اما نحن ؟ انا اقلعت عن هذه الحماقات منذ امد يسير . الا توافقنى ، يا فاسيلى بتروفتش ، آخر الامر ان هذه حماقة ؟

فيسأل فاسيلى بتروفتش من غير ان ينزع عينيه عن الماء :

– ماذا ؟

– تبكيت الضمير . ماذا ينفع ؟ اذا كان ضميرك يبكتك او لا ، ما دام تحت اسنانك قطعة . . . الخلاصة ، انى حذفته ، واجتهد ان اشبه هذه الحيوانات .

ويشير باصبعه الى الاكواريوم .

ويتنهد فاسيلى بتروفتش :

– كما تشاء . قل لى ، يا كودرياشوف ، أليست هذه نباتات وحيوانات بحرية ؟

– بلى ، هذا ماء البحر وقد مددت اقنية خاصة .

– من البحر ؟ ولكن هذا يكلف غاليا .

– هذا صحيح . ان هذا الاكواريوم يسوى ثلاثين الف روبل تقريبا .

فصاح فاسيلى بتروفتش مذهولا :

– ثلاثين الفا ! واجرتك السنوية الف وستمئة روبل !



– متى تنتهى من اطلاق الصيحات العالية ؟ اذا شبعت من النظر ، نصعد . لا بد ان ايفان بافلوفتش قد احضر الشمبانيا . . . انتظر حتى اطفئ النور .

ويعود الاكواريوم الى الظلام . وتبدو الشمعة التى ما زالت مشتعلة لفاسيلى بتروفتش ضوءا بعيدا داخنا .

وعندما يدخلان غرفة الطعام يريان فى يد الخادم قنينة من الشمبانيا مهيأة .

١٨٧٩

## ١

## ديدوف

احس كان عبئا ثقيلا قد ازيح عن كاهلى اليوم . يا للحظ المفاجئ ! الى جهنم شارات المهندس ! الى جهنم الادوات والحسابات !

أليس من المخجل ان ابتهج لموت عمة مسكينة لمجرد كونها تركت لى ارثا يتيح لى ان اكون فى غنى عن العمل ؟ صحيح انها رجتنى ، وهى على سرير الموت ، ان انصرف الى شغلى المفضل ، وان تحقيق رغبتها النهائية من ضمن ما يبهجنى . وكان ذلك امس . . . ليتك رأيت الوجه العبوس الذى قابلنى به رئيسى لما اعلمته بعزمى على الاستقالة ! ولما علم السبب ظل مشدوها ، فاغر الفم .

– فى سبيل الفن ؟ . . ايه . . . قدم الطلب .



واستدار على كعبيه من غير ان يزيد شيئا ومضى . وكان هذا كل ما اريد . انا حر ، انا رسام . اليس هذا اوج السعادة ؟

ورغبت فى ان اهرب من ضجة بطرسبورغ وضوضائها . فقمت بجولة فى زورق . واذا البحر والسماء والمدينة البعيدة التى تشعشع تحت الشمس ، والغابات الزرقاء التى تسيج الخليج ، وذرى السوارى فى ميناء كرونشتادت والبواخر والشراعيات والزوارق الفنلندية التى تمر زرافات – كل هذا كنت انظر اليه بعينين جديدتين . وكانت عناصر هذا المنظر كلها من ضمن قدرتى ، وما علىّ الاّ ان انقله مباشرة على القماش واعرضها على الجمهور المعجب . صحيح انك لا تستطيع ان تبيع جلد الدب قبل قتله ، ذلك لانى فى الحقيقة لست فنانا مشهورا بعد . . .

كان زورقى يشق غطاء الماء مسرعا . والنوتى فتى ، طويل القامة معافى ، جميل ، يرتدى قميصا احمر ويجذف دونما توقف مائلا الى الامام ثم ينقذف الى الوراء . وفى كل حركة يندفع الزورق اندفاعة قوية . واضفى غروب الشمس على قميصه القانى ووجهه صنوفا من الالوان اغرتنى برسمه . وكان معى علبة فيها قطع من القماش صغيرة والوان وريش . . . قلت :

– كفّ عن الحركة ، سأرسمك .

فترك المجذافين .

– اصنع حركة التجذيف .

فرفع المجذافين مثل طائر يفتح جناحيه وجمد على هذا الوضع البديع . فخططت المجموعة بالقلم وانكببت على الرسم بالالوان . كنت اخلط الالوان فى فرح ناعم وديع لعلمى ان اية قوة لا تستطيع ان تفرق بيننا طول حياتى .

وسرعان ما تعب النوتى وحل فى وجهه محل التعبير الصلب ، سحنة سآمة . كان يتثاءب ومسح مرة على وجهه بكم قميصه مما اضطره على ان يميل برأسه نحو المجذاف . واختفت ثنيات القميص . مصيبة ! انا لا احب النماذج التى تتحرك .

– لا تتحرك ، يا صديقى .

فابتسم .

– ماذا يضحكك ؟

فاجاب على استحياء :

– شىء مضحك ، يا سيدى .

– ما هو المضحك ؟

– كانى شىء نادر ، شىء يجب تمثيله على اللوحات .

– والحقيقة انى اصنع لوحة ، يا عزيزى .

– ولماذا ؟

– حتى اتمرن . حينما اصنع كثيرا من اللوحات الصغيرة انصرف الى الكبيرة .

– كبيرة كيف ؟

– بالحجم الذى اريد .



بعد فترة من الصمت سألنى جادا :

– اذا فانت تستطيع ان ترسم ايقونات ايضا ؟

– نعم ، ولكنى لا اشتغل الا لوحات .

– هكذا !

ولبث مفكرا ثم استأنف :

– وماذا عساها ان تنفع ؟

– ما هى ؟

– هذه اللوحات . . .

وبدلا من ان اضيع وقتى فى اعطائه درسا عن دور الفن ، قلت له فى بساطة اننا نستطيع ان نبيعها بالف روبل او الفين واكثر . فابدى النوتى الرضا التام ولم يعد يطرح علىّ الاسئلة . ونجحت فى التخطيط (الوان القميص الحارة تضيؤها الشمس الغاربة كانت بديعة) وعدت الى بيتى عميم السعادة .

## ٢

## ريابينين

تاراس العجوز نموذجنا يتجمد امامى فى وضع عسير : فقد امره الاستاذ بان يضع «يده على رأسه» لان هذا «وضع كلاسيكى جدا» . وانا بين حشد من الرفاق قد اتخذوا اماكنهم مثلى امام مناصب الرسم وخشبة الالوان والريش فى ايدينا . ديدوف فى الصف الاول يرسم الشيخ فى حمية على الرغم من كونه رسام

مناظر . ويهيمن صمت المقابر على القاعة التى تفوح منها رائحة الدهان والزيت والتربنتين . ويمنح تاراس فترة استراحة كل نصف ساعة فيجلس على حافة الصندوق الخشبى الذى يتخذ قاعدة لرسمه ويتحول من «نموذج» الى شيخ بسيط عار يحرك ذراعيه وساقيه الخدرة بعد جموده المديد ويفرغ انفه من غير ان يحتاج الى منديل الخ . ويتحلق الطلاب حول المناصب لكى ينظر بعضهم فى عمل بعض . وعملى هو الذى يجتذب دائما اكبر عدد من المتحلقين : فانا موهوب جدا ، على ما يظهر ، وابشر بان اكون واحدا من «زعمائنا» ، على حد التعبير اللطيف الذى اطلقه السيد ف . س . الناقد الفنى المشهور الذى يتنبأ منذ امد بعيد بأن «ريابينين سيكون ذا مستقبل» . لذلك يولى ما اعمله اهتماما دائما .

بعد انقضاء خمس دقائق يعود الجميع الى اماكنهم . ويتسلق تاراس قاعدته ويضع يده على رأسه وننكب نحن على الرسم . . .

ويتكرر هذا الحال كل يوم .

يا لها من رتابة ، أليس كذلك ؟ وعلاوة على ذلك فانا اعلم جيدا منذ امد بعيد ان هذا ممل . ولكنى اشبه بقاطرة انبوب البخار فوها مفتوح ويجب عليها اما ان تسلك الخط حتى نفاد البخار تماما او ان تخرج عن الخط فتتحول الى كومة من الحطام . . . فالخط يقود عجلاتى على نحو ثابت مكين ، ماذا يحدث اذا خرجت عنه ؟ مهما يكن الثمن يجب بلوغ المحطة على الرغم من



انها تبدو لى حفرة سوداء لا تستطيع ان تتبين فيها شيئا . الاخرون يزعمون ان هذا سيكون النشاط الفنى . وسيكون ثمة ما هو فنى ، لا جدال فى ذلك ، ولكن هل يكون نشاط ؟ . .

عندما ازور معرض لوحات ماذا ارى ؟ قطعا من القماش ، الالوان فيها مرتبة على نحو ينتج معه انطباعات تماثل ما تستشعره امام شتى الاشياء . ويتصايح الجمهور تعجبا من هذا التنسيق الحاذق ، ويستقيم الامر . وقد كتبت عن هذا الموضوع كتب ، تلال من الكتب قرات كثيرا منها . ولكن تين وكاريير وكوغلير وكل اولئك الذين يقصدون لبحث الفن وبمن فيهم برودون لم يبرهنوا على شىء . انهم جميعا يشيدون بدور الفن ولكنى ، اذ اقرأهم اشك فى اهميته . ولم ار قط لوحة جعلت من انسان خيرا منه قبلها . اذن فعلام اؤمن بهم ؟

علام ؟ يجب ان اؤمن والايمان ضرورى لى ولكن كيف السبيل اليه ؟ كيف اتأكد من انى لا اخدم حياتى كلها فضول الجمهور الاحمق (الفضول البسيط يمكن التساهل معه لان ثمة ما هو انكى : الغرائز الرديئة مثلا) او غرور غنى محدث اكرش يدنو غير عجلان من اثرى الحبيب الذى رأى النور بعد مخاض طويل طافح بالانفعالات والعذابات ؛ اثر رسم بأعصابى ودمى ويخور : «هو . . . هو . . . لا بأس» ويغرز يده فى جيبه ويقذفنى ببضع مئات من الروبلات ويحمله .

وتنصرف مع اللوحة لوعتى وليالى الساهرة وعذاباتى وافراحى ، آمالى وخيبتى . . . واذا انا وحيد بين الناس . ارسم انموذجى آليا اذا كان المساء ، وارسمه آليا اذا كان الصباح ، مدهشا الاساتذة والرفاق بسرعة نجاحاتى . لماذا افعل ذلك ، لاية غاية ؟

تصرمت اربعة اشهر منذ ان بعت آخر لوحة . ولم افكر فى رسم غيرها . لو ان فكرة طيبة اتتنى وحسب . . . بعض الوقت من النسيان الكلى : انسحب الى لوحتى كانى فى دير ولا افكر الا بها . واما الاسئلة : لماذا ؟ لاية غاية ؟ علام ؟ فانها تنمحى اثناء العمل ولا يبقى فى رأسى الاّ فكرة واحدة ، الاّ مشروع يعود علىّ تحقيقه باللذاذة كلها . اللوحة هى الكون الذى فيه احيا وعنه أسأل . وهنا تختفى الاخلاق المعتادة : ابدع مكانها اخرى يحتاجها كونى الجديد واحس فيه حقى الصراح ، قيمتى او تفاهتى وكذبى بصرف النظر عن الحياة الدائرة .

ولكنك لا تستطيع ان ترسم دائما . فى المساء حينما تقطع الظلمة العمل اعود الى الواقع واسمع من جديد «اللماذا ؟» الابدية التى تذود عنى النوم : اتقلب على سريرى فى حمى ، مفتح العينين محدقا فى الظلمات كانى انبش فيها عن جواب . وانام مع الصباح نوما من رصاص حتى اغوص مرة اخرى حين افتح عينى فى حلم آخر محتشد بالصور التى صدرت عنى ، صور تتكون وتتحدد على القماش .



وسألنى جارى بصوت قوى :

– ما بك ، يا ريابينين ؟ لماذا لا تعمل ؟

كنت غارقا فى افكارى فجفلت حين سمعت هذا الصوت . كانت يدى التى تحمل خشبة الالوان قد انخفضت ولوثت الالوان حاشية بدلتى والريش متناثرة على الارض . ونظرت الى تخطيطى . كان منجزا ، منجزا على خير وجه : تاراس يبدو حيا .

وأجبت جارى :

– انتهيت .

والجلسة ايضا قد انتهت والانموذج الذى نزل عن الصندوق كان يلبس ثيابه ؛ والجميع يلملمون عدتهم فى جلبة ويثرثرون ويأتون للثناء علىّ .

– الميدالية مضمونة . . . هذا احسن تخطيط – هكذا يقول بعضهم بينما يلوذ الآخرون بالصمت : الرسامون لا يحبون تقارض المديح فيما بينهم ابدا .

## ٣

## ديدوف

اخالنى اتمتع باعتبار رفاقى الطلاب . لا ريب فى ان سنى تلعب دورا فى الامر . ففى الاكاديمية كلها فولسكى وحده اكبر منى . ايقنت ان جاذبية الفن خارقة . هذا الفولسكى ، ضابط متقاعد ، سيد فى الخامسة

والاربعين ، شعره ابيض كله . أليس فتحا مبينا ان يلتحق بالاكاديمية من هو فى سنه وان ينكب على الدراسة ؟ انه مجتهد جدا : فى الصيف يرسم فى الهواء الطلق من الصباح حتى المساء مهما يكن الطقس فى نوع من نكران الذات . وفى الشتاء يرسم ما دام فى الدنيا ، خيط من نور ، ومساء يرسم بالقلم . وخلال عامين حقق تقدما محمودا على الرغم من ان القدر لم يمنحه موهبة كبرى .

واما ريابينين فنقيضه : انه موهوب جدا ، كسول ابدا . يخالجنى الشك فى ان يكون له مستقبل ، على الرغم من ان الشبان يعبدونه . وما يخدشنى على الاخص هو ميله الى المواضيع المسماة واقعية : فهو يسر برسم اسمال فلاح كاننا لا نرى فيها كفايتنا فى الواقع . ولكن اخطر ما فى الامر انه يكاد لا يشتغل ابدا . احيانا تستيقظ همته فينصب على لوحة ينجزها فى شهر . واذا الناس يهيمون بها ، مع الاشارة مع ذلك الى ان فى طريقة رسمه نواقص (انا اجدها كبيرة) ، ثم يهمل حتى الدراسات ويغوص فى افكاره ولا يوجه الخطاب الى احد حتى الىّ انا الذى يبدو انما يؤثرنى على الآخرين . يا له من فتى غريب ! انا لا استطيع ان افهم هؤلاء الناس الذين لا يرضيهم الفن كل الرضى . انهم لا يفهمون ان ليس ثمة شىء يرقى الانسان مثل الابداع .

امس انجزت لوحة وعرضتها . واليوم سئلت عن



السعر . لن اتنازل عنها باقل من ثلاثمئة روبل . انهم يدفعون مئتين وخمسين . ولكنى ارى الا نخفض السعر ابدا لان ذلك يفرض الاحترام ، ولا سيما انى على يقين من البيع هذه المرة لان الموضوع شعبى وجذاب : مغيب الشمس فى الشتاء ، الجذوع السوداء فى المقدمة ترتفع بقوة نحو السماء الوردية . وهى لوحة من طراز ك . الرسام الشائع فى الموضة . يقولون انه باع هذا الشتاء وحده لوحات بمبلغ عشرين الف روبل . المبلغ حقا لا بأس به . واسألنى ما عسى ان يصنع بعض الفنانين حتى يعيشوا ابدا فى الفاقة . واما ك . فهو يربح من اقل لوحاته . يكفى ان يكون لدى الانسان قليل من الحس العملى . وما دمت ترسم اللوحة فانت فنان خلاق ، فاذا انتهيت صرت بياعا : وكلما حذقت تصريف الاعمال حسن حالك . الشارون ايضا يحاولون فى اغلب الاحيان اللعب علينا .

٤

## ريابينين

اقطن الجادة الخامسة عشرة من الشارع الاوسط واقطع اربع مرات فى اليوم الرصيف الذى ترسى عنده البواخر الاجنبية . احب التنوع والحركة والزحام والضوضاء فى هذا المكان الذى مدنى بمواد فنية غزيرة . وبرؤيتى العمال المياومين يحملون الحقائب

ويحركون البكرات الرافعة ويسحبون العربات المحملة بكل انواع المتاع تعلمت رسم الشغيلة .

كنت عائدا الى البيت فى رفقة ديدوف رسام المناظر . . رجل طيب مسالم مثل مناظره يشغفه الفن حبا . ها هو ذا واحد لا تخالجه الشكوك ابدا . انه يرسم ما يرى : فاذا كان جدولا يرسم جدولا واذا كان غديرا يغزوه سعد صنع الغدير والسعد من غير ان يسأل نفسه لماذا ؟ ويظهر انه مثقف . على كل حال هو مهندس مجاز . وهو لا يزاول الهندسة لانه اصاب ارثا يضمن له حياة دون كدح . الآن يرسم بلا انقطاع : فى الصيف يظل من الصباح حتى المساء فى الحقول او الغابات يشتغل دراسات ولا يملّ شتاء من تاليف لوحات عن غروب الشمس ، عن الفجر ، عن الظهيرة ، عن الامطار المبتدئة او المنتهية ، عن الشتاء ، عن الربيع الخ . وقد هجر مهنته دون اى اسف . بيد انه حينما نمر بالرصيف يوضح لى دور الحجوم الهائلة من الحديد الصب والفولاذ وقطع الآلات والمراجل والمعدات الاخرى التى تنزل من السفن .

كان يقول لى امس وهو يضرب بعصاه جدار مرجل رنان :

— انظر الى هذا المرجل المارد .

فسألته :

— ألا تصنع مثله عندنا ؟

— بلى ، ولكن ليس عندنا الكفاية . اترى الى هذه



الكومة من المراجل وهى سيئة الصنع . هاك ، يجب اصلاح هذه الصفيحة ، وهذه البرشامات منخلعة . هل تعرف كيف يكون التثبيت ؟ انه عمل جهنمى . عامل يقعد فى المرجل يسند البرشامة من الداخل بواسطة كماشة وهو يضغط جهده بصدره بينما يضرب عامل آخر فى الخارج بمطرقة هائلة لكى يمهد هذه الرؤوس المستديرة .

وارانى على طول الصفيحة صفا من الحلقات المعدنية النافرة .

— ولكن على رسلك ، يا ديدوف ! هذا يشبه ان يضربوك على الصدر مباشرة .

— وهو كذلك . ذات يوم اندسست الى الداخل وظللت منبطحا حتى البرشامة الرابعة واذا جذعى كانه الهريسة . اما العمال فيعتادون ، لا اعرف كيف . اذا شئت الحقيقة فليسوا يطيقون هذا العمل طويلا : بعد سنة او سنتين اذا لم يموتوا امسوا لا يسوون شيئا مذكورا . جرّب قليلا ان تتلقى طوال النهار ضربات مطرقة فظيعة وانت مطوى اربع طيات فى مرجل خال من الهواء . فى الشتاء يجلسون او يضطجعون على المعدن المتجمد . ذاك المرجل هناك ، المدهون بالاحمر ، من الضيق بحيث يضطر العامل الى الشغل فيه على جنبه . انه كدح قاس ، عمل «الطرش» هذا .

— الطرش ؟

— اجل ، هكذا يطلق عليهم العمال . وفى اغلب

الاحيان يصيرون الى الطرش بسبب الضجة . وهل تظن انهم يدفعون اجرة طيبة عن العمل الشـــاق هذا ؟ اللهم ، كلا ! ذلك لانه لا يتطلب مهارة او تجربة بل اللحم . . . لو عرفت ، يا ريابينين ، كم رأت عيناى فى هذه الورشات ! كم انا مسرور بمغادرتى كل ذلـــك للابد ! يا للضيق ! كان منظر هذه الآلام يسمم حياتى اول الامر . . . الطبيعة شىء آخر : انها لا تؤذى ، ونحن الفنانين نفيد منها من غير ان نؤذيها . . .

وهتف بغتة مشيرا الى قطعة من السماء :

– اذن فانظر الى هذا اللون الضارب الى الرمادى . لا ، تحت ، تحت هاتيك الغيمة . . . ما اروع ! رمادى مشرب بالخضرة . لو اننا نقلناه كما هو لقالوا انـــه اختراع . لا بأس به ، كيف ؟

ووافقته مع ان هذه القطعة من السمـــاء الخضراء العكرة لم تخلق لاغرائى . وقاطعت ديدوف الذى كان يهلل للون آخر اكتشفه قرب غيمة اخرى .

– قل لى اين استطيـــع ان ارى احـــد هؤلاء «الطرش» ؟

– تعال معى الى المصنع ؛ اريك كومة من الاشياء . غدا اذا شئت . لعلك تود ان تصنع لاطرش لوحة ؟ خل عنك ولا تتعب نفسك . هناك مواضيع اجلب للبهجة . ولكنى استطيع ان امضى بك الى المصنع غدا اذا حلا لك ذلك .

وقد زرنا المصنع اليوم وتفقدنا كل شىء . راينا



اطرش . كان متكوما فى احدى زوايا المرجل وصدره معرض للضربات . نظرت اليه طوال نصف ساعة ، ارتفعت خلالها المطرقة وانخفضت مئات المرات . كان الرجـــل المطرق متشنجا . سأصنع من المنظر لوحة .

## ٥

## ديدوف

لست ادرى ما اقوله فى ريابينين لما فى فكرتـه الاخيرة من غرابة وشذوذ . اول امس صحبته الى مصنع تعدين قضينا النهار فى زيارته . تفقدنا كل شىء وكنت اشرح له الطرائق (من العجيب انى لم انس شيئا تقريبا من مهنتى) ، واخيرا قدته الى مشغل المراجـل . كان العمال بسبيل صنع مرجل ضخم دخله ريابينين ولبث نصف ساعة يراقب العامل وخرج شديد الشحـــوب مضعضعا ؛ وفى طريق العودة لم ينبس بكلمة . وهـا هو ذا يكشف لى عن مشروع لرسم . يا لها من لوثة شاعرية الوسخ ! استطيع ان اقول هنا غير محرج ما لا انادى به بين الناس : هذا التيار السوقى فى الفن يبدو لى قبحـــا تامـــا . ماذا يفيـــد «النوخـــذة» المشهورون لريبين ؟ لقد انجزتهم يد الصناع ، يـد معلم ، هذا لا مراء فيه : ولكن هذه الصفة كل مزاياهم . اين الحسن والاتساق والاناقة ؟ ولكن أليست مهمـــة الفن تصوير ما فى الطبيعة من جمال ؟

خذوا آثارى ، انا مثلا . خلال بضعة ايام سأنجز لوحتى الهادئة «صباح فى ايار» . ماء الغدير لا يكاد يتموج تحت اغصان الصفصاف الباكى المنحنية ،الفجر يصبغ بالازهر ، الغمامات الصغيرة الضبابية . امرأة تهبط الشاطىء الحاد وفى يدها دلو تخيف سربا من البط . هذا كل ما هنـــالك . شىء بسيط ، أليس كذلك ؟ ولكنى على يقين من ان لوحتى لا حد لشاعريتها . هذا هو الفن ! انه يسلمك الى الحلم العذب ويبث فى قلبك الطراوة والتفكير الهادىء الناعم ، بينا «اطرش» ريابينين لن يؤثر فى احد . وقد يكون هذا هو سبب هروب المتفرجين منه وقد اثارت اشمئزازهم تلـــك الاسمال وذلك الوجه الملطخ بالسخام . غريب ! فى الموسيقى لا يقبل النشوز الذى يخدش الاذن ، فـى حين ان الصور المستهجنة مسموح برسمها . سأتكلم مع ل . عن هذا الموضوع حتى يكتب مقالا ويهاجم ، فى هذه المناسبة ذاتها ، لوحة ريابينين .

## ٦

## ريابينين

لم اذهب الى الاكاديمية منذ اسبوعين وارسم فى بيتى . لقد قصم العمل ظهرى على الرغم من انه يسير حسنا . يجب علىّ ان استبدل بـ«على الرغم من» «ولا



سيما» انه يسير حسنا . وكلما تقدمت هذه اللوحة زادتنى رعبا . ويدور فى خلدى انها ستكون آخـر لوحاتى .

ها هو ذا امامى فى زاوية مظلمة من المـرجل ، ذلك الرجل المطوى اربعا ، فى اسماله يلهث مـن النصب . انت لا تستطيع رؤيته لولا الضوء الـذى يتسرب من الثقوب التى اعدت للبرشامات . وتتناثر الحلقات المضيئة على ثيابه ووجهه وتشعشع نقطـا ذهبية فى اسماله ولحيته وشعره الاشعث الاغبر الدخن وسحنته الارجوانية التى تختلط فيها خيوط من العرق بالوسخ وذراعيـة المعروقتين الموهونتين وصـدره العريض وقد غوره الكدح الكاسر . وتنهال ضربـة المطرقة ، عودا على بدء ابدا ، على المرجل فى عنف لا يتصور ، ويقسر البائس المسكين على ان يحشد كـل قواه لكى يحافظ على وضعه المستحيل . وقد ابرزت بما اسعفتى وسائلى هذا الجهد الشاسع .

احيانا اريح خشبة الالوان والريش واجلس على بعد ، امام اللوحة مباشرة . وترضينى : لم اصنـع قط خيرا من هذا الشىء المخيف . ومن المؤسف ان هذا الرضى ابعد من ان يبهجنى ، انه يعذبنى . هذه ليست لوحة ولكنها مرض فى معمعانه . انا اجهل النهاية ولكنى احس انى بعدها لن اجد ما ارسمه . صيادو الطيـور والسمك ، الصيادون القناصون ذوو الملامح والقسمات النموذجية ، كل «هذا المجال الغنى من الرسم» هـو

ما لا احتاجه بعد اليوم . لا يمكن لاى من آثارى ان يحدث ما يحدثه «الاطرش» من تأثير لو احدثه . . .

دعوت ديدوف لأريه اللوحة على سبيل التجربة . لم يقل الا : «ما هذا ، يا عزيزى» ولبث فاغر الفم . ثم جلس وادام النظر نصف ساعة صموتا وانصرف بعد تحية خرساء . اخاله قد تأثر . . . ولكنه على اية حال رسام .

وتؤثر لوحتى فىّ ، انا ايضا . فلا استطيع ان احول عينى عنها . اقاسم هذا الجسد الذى يعانى الم الشهادة ، اوجاعه واسقامه . فى بعض اللحظات احس وقع ضربات المطرقة . . . اكاد اجن . يجب ان احجبها .

قطعة من القماش تستر المنصب واللوحة ، ولكنى هنا فى مكانى امامها لا اريم ، تتناوشنى مخاوف غامضة . الشمس الغاربة ترمى المنصب المقنع من خلال الزجاج الاغبر بحزمة من الضوء صفراء مائلة . كأنه شكل انسانى ، روح الارض فى «فاوست» ، تمثيل الممثلين الالمان .

• Wer ruft mich? . .

من ناداك ؟ انا ، انا بعثتك هنا ، لا من «مجال» ما ولكن من المرجل الخانق المظلم لكى تبث الرعب فى قلب هذا الحشد المقيت ، النظيف ، الحسن السمت .

---

• من ينادينى ؟ (بالالمانية) .



تعال انت ، يا من سمرتك على القماش ؛ تعال ، تأمل هذه البدلات الفخمة وهذه الاثواب الهفهافة واصرخ بهم : انا قرحة قارضة ! اضربهم فى قلوبهم ، امنعهم لذيذ الرقاد ، اسكنهم مثل شبح ! حطم هدوءهم كما حطمت هدوئى . . .

يا ضيعة العمر ! . . غدا تنتهى اللوحة وتحاط باطار ذهبى ، ويأتى حارسان يحملانها على رأسيهما الى معرض الاكاديمية . واذا هى بين من «الظهر» و«المغيب» قرب «بنية وقطة» ، غير بعيد من لوحة جبارة تمثل «ايفان الرهيب يغرس عصاه الحديدية فى قدم فاسكا شيبانوف» . • وقد اخطىء اذا قلت ان اثرى لن يظفر باى نجاح ، سينظرون اليه بل قد يثنون عليه . وسيحلل الرسامون الرسم فيصغى اليهم النقاد وهم يخربشون فى دفاترهم ، الا السيد ف . س . فانه يعلو اقتباس الافكار : هو ينظر ، يستحسن ، يثنى ويشد على يدى . واما الناقد الفنى ل . فيمرغ الاطراش المسكين فى الوحل وهو يجأر : «اين الجمال ، قولوا لى اين الجمال ؟» ويسبنى . والجمهور . . . الجمهور يمر غير مبال او مكشرا تكشيرة غير مستحبة ؛ ولا تصنع السيدات الا ان يهمسن بالفرنسية :

---

• مثال عن موضوع تاريخى كبير الاثر . شيبانوف يوفد الى القيصر ايفان الرهيب حاملا رسالة من الامير كوربسكى اللاجئ فى ليتوانيا فيساق الى التعذيب القاسى . **الناشر** .

«الاطرش «ah, comme il est laid, ce»* وينزلقن نحو اللوحة اللاحقة «بنية وقطة» فيقلن عنها : «لطيفة ، لطيفة جدا» او شيئا من هذا النوع . ويثبت السادة الوقورون الى اللوحة اعينا بقرية ثم يخفضونها الى النشرة ويصدر عنهم خوار مصم ويتابعون جولتهم فى خلو بال . من بين هؤلاء جميعا يتوقف فتى او فتاة منتبهين ويتلوان فى عينى الشهيد ، الجلبة التى بها ملأتهما . . .

وبعد ؟ اذا عرضت اللوحة وبيعت وحملت ، فماذا سيحدث لى ؟ هل تنمحى انفعالات الايام الاخيرة هى ايضا من غير ان تخلف اثرا ؟ هل ينتهى الامر بالانفعالات وحدها ويحين وقت الراحة والبحث عن مواضيع بريئة ؟ . . آه من هذه المواضيع البريئة ! انها تذكرنى بمدير ذلك المعرض الذى يملى النشرة على سكرتيره :

– اكتب مارتينوف ! رقم ١١٢ . الفصل الاول من الحب : الفتاة تقطف وردة .

– بعده ، مارتينوف ! رقم ١١٣ . الفصل الثانى من الحب : الفتاة تشم اريج الوردة .

أاستمر فى شم اريج الوردة او اخرج عن الخط ؟

---

* آه ، ما اقبح هذا الاطرش .



## ٧

## ديدوف

اوشك ريابينين ان ينجز «اطرشه» وارانى اياه اليوم . اعترف ان ما توقعته ، وانا فى طريقى اليه ، قد كذبه رأى العين . التأثير قوى جدا . الرسم كامل . البروز مدهش . واجمل ما فى اللوحة الاضاءة المتخيلة الواقعية جدا فى آن . سيكون للوحة شأن لو لا هذا الموضوع الشاذ . ل . من رأيى وسيظهر مقاله فى الاسبوع القادم . وسنرى يومئذ ما يقول ريابينين . وبديهى ان ليس من شأن ل . ان يحلل الرسم من وجهة النظر التكنيكية ولكنه سيعرف كيف يبين قيمة اللوحة من وجهة نظر **الفن** الذى لا يتساهل فى ان ينحط لكى يخدم الافكار الواطئة الغامضة .

زارنى ل . اليوم واثنى علىّ . ان تقديره مسر ما خلا بعض ملاحظات تتعلق بالتفاصيل . لو ان الاساتذة يرون لوحتى بعينيه ! ألا اظفر بما يطمع اليه كل تلميذ فى الاكاديمية : الميدالية الذهبية ؟ الميدالية ، اربع سنوات فى الخارج على حساب الدولة ، فكرة تسميتى استاذا ذات يوم . . . لم اخطىء اذ تركت ذلك الكدح الحزين التافه الوسخ الذى تصطدم فيه كل خطوة باطرش على طريقة ريابينين .

## ٨

## ريابينين

بيعت اللوحة وارسلت الى موسكو . يجب علىّ ان ادعو بالدراهم التى قبضتها رفاقى الى «فيينا» . انه عرف ، لست ادرى منشأه ، يقضى بان تقام مآدب الرسامين الشباب كلها فى مقصف زاوية هذا الفندق . وهو قاعة واسعة تضيئها ثريا وشمعدانات برونزية ، ذات سجاد واثاث سوّده الزمن ودخان التبغ وبيانو رأت عيناه الاعاجيب تحت الاصابع العنيفة لموسيقيين مرتجلين ؛ الا المرآة الكبرى ، فقد كانت جديدة لانها تبدل مرتين او ثلاثا كل عام بعد كل سكرة يسكرها التجار .

كان المكان حاشدا ذلك المساء : رسامو مناظر ، رسامون عاديون ، نحاتون ، مراسلان فى جريدتين مغمورتين ، بضعة غرباء . وجلسنا نشرب ونتناقش . فلم يمض نصف ساعة حتى كان الجميع يتكلمون معا لانهم بدأوا يسكرون . وانا ايضا واذكر انهم حملونى على الاكف فالقيت الخطبة . ثم تبادلت الصحافيين قبلات . شربنا ، تكلمنا ، تعانقنا كثيرا حتى الساعة الرابعة صباحا . واظن ان اثنين من المدعوين قضيا الليل فى مكانهما .

واعود الى بيتى كيفما اتفق وارتمى على السرير



بثيابى كلها ورأسى يضج ويفتل : كان يخيل الىّ ان الغرفة تتأرجح وتدور . دام ذلك دقيقتين او ثلاثا ، ثم نمت .

نمت واستيقظت متأخرا ، كان رأسى يؤلمنى وكان جسمى مثقل بالرصاص ، كنت لا استطيع ان افتح عينى وقتا طويلا ، وحين افتحهما ارى ان المنصب فارغ . لا لوحة . فيذكرنى بالايام الاخيرة ويبدأ كل شىء من جديد . . . يا الهى ، ولكن يجب الخلاص !

رأسى يؤلمنى اكثر والضباب يغشانى . اغفو ، افيق واغفو من جديد من غير ان ادرى هل يطبق علىّ صمت الموت او ضجة مرعبة غريبة ، مخيفة للاذن . قد يكون الصمت ولكن ثمة شيئا يرن ، يدور ، يحلق ، ويصدر عنه ما يشبه ضجة مضخة ضخمة تمتص الماء من بئر ليس لها قرار . انها تروح وتجىء وتشخر وتسمع الرعد الاصم الصادر عن الماء الذى يسقط وصدمات الآلة . وتهيمن على هذا كله نبرة مستمرة ، ملتاعة ، دؤوب . اشتهى ان افتح عينىّ ، ان اروح فافتح النافذة لكى اسمع ضوضاء الحياة ، لكى اسمع صوتا انسانيا ، ضجة عربة ، نباح كلاب ، واتخلص من هذا الاجيج الذى لا ينتهى . ولكن قواى تخذلنى . لقد سكرت امس وعلىّ ان اظل فى مطرحى مستمعا .

وافيق ثم اعود الى الغفو . الصدمات ، الرعود تزداد . تقترب تتوضح . وتختلط الضربات بدفقات

دمى . أهى فىّ ، فى رأسى ، ام فى الخارج ؟ انها جلية حادة . . . واحد – اثنين ، واحد – اثنين . . . انهم يضربون على المعدن وعلى شىء آخر . اسمع الصلب ينطرق ، فيئن ويهتز . بادىء الامر خيل الىّ ان المطرقة تهوى على مادة رخوة ثم تزداد الاصوات وضوحا ، المرجل الهائل يرن مثل الناقوس . وقفة ، الضوضاء تعود شيئا فشيئا ثم مرة اخرى ذلك الطرق المصم للآذان . اللهم نعم . انهم يضربون اولا الحديد المتوهج الرخو الذى يبرد فيما بعد . ويدوى المرجل حينما يصلب رأس البرشامة . وجدتها . . . ولكن هذه الاصوات الاخرى . . . ما هى ؟ اجتهد لافهم ، ولكن دماغى يغيم . يظهر ان الشرح هنا ، قريب جدا ، على وشك ان يأتينا . ولكنه مع ذلك يتملص منى . . . سيان . انا اعلم ما هو ، بيد انى نسيت وحسب .

الضجة تتسع وتتضاءل ، تارة بعنف مهول واخرى اخفى من الهمس . ويخيل الىّ انى انا ذاتى اختفى ، اصبح اطرش ، اخرس ، اشل . ويساورنى الذهول ويأخذ الرعب بخناقى واستيقظ على نيران الحمى . وبدلا من ان استعيد رشدى اغوص فى حلم آخر . انا فى المصنع ولكنه مصنع غر ذلك الذى قادنى اليه ديدوف . هذا اوسع جدا واجلب للحزن ، يغص بافران ماردة ذات اشكال غريبة . السنة اللهيب التى تنطلق منها تدخن السطح والجدران التى كانت سوداء من



السخام الماكنات تتأرجح ، تضج وانا امر بصعوبة بين الدواليب التى تدور والسيور الناقلة التى تركض مرتعشة . المكان خلو من الناس . ضجة تدوى فى البعيد ، هناك يشتغلون . صيحات مجنونة ، ضربات مدوية ؛ انا خائف ولكن قوة لا تقهر تقود خطاى . والضربات المصمة والصيحات الوحشية تندغم فى زئير متصل واحد ؛ وارى . . . ارى كائنا عجيبا مختلطة اشكاله يتلوى على الارض ، وحشدا من الناس المحنقين ينهالون عليه ضربا وركلا . اناس اعرفهم يضربون كانما اصابهم السعار بالقبضات ، بالمطارق ، بالعصى الحديدية ، بالهراوات هذا الكائن الذى لا اعثر له على اسم . انا اعرف انه هو ايضا . . . فاندفع الى الامام واريد ان اصيح : «ماذا تصنعون ؟ كفوا !» وبغتة ارى وجها شاحبا مختلطا يملؤنى رعبا لأنه وجهى . وارى نفسى ، نفسى الاخرى ترفع المطرقة لكى تهوى بضربة ساحقة .

وتنهال المطرقة على جمجمتى فينمحى كل شىء . احس لحظة الظلمات ، الصمت ، الفراغ ، الجمود . ثم اغيب بدورى . . .

ظل ريابينين فاقد الرشد حتى المساء . اخيرا قر رأى ربة البيت الفنلندية ، وقد ادهشها انزواء نزيل بيتها الطويل ، على ان تدخل غرفته . لما رأت الفتى المسكين يهذى والحمى تحرقه ، اطلقت صيحة ذعر بلهجتها غير المفهومة ، وبعثت ابنتها تبحث عن طبيب .

وفحص الطبيب المريض وهمهم وجلس امام المنضدة يكتب وصفة ثم ذهب بينما بقى ريابينين يضطرب فى بحرانه .

## ٩

## ديدوف

ريابينين المسكين مرض بعد سهرة البارحة . وجدته فى بيته فاقد الرشد . صاحبة البيت تعنى به . واضطررت الى اعطائها الدراهم لان درجه فارغ ، قد تكون هذه المرأة قد اخذت كل شىء ، الا اذا كانت حفلة «فيينا» هى السبب . الحقيقة ، اننا سكرنا سكرة ملعونة . كان المرح غلابا . تآخيت وريابينين وقرعت كاسى بكاس ل . وهو قلب كبير وسجية فنية جدا ! فى مقاله الاخير كشف ، كما لا يستطيع احد غيره ان يفعل عن معنى لوحتى ، ولست ادرى كيف اعبر له عن شكرى . يجب رسم شىء على طريقة كليفر واهدائه اليه . على فكرة ، اسمه الكسندر . أليس عيده الاسمى غدا ؟

واما ريابينين المسكين فيسوء منقلبه . لوحته للمسابقة الكبرى ابعد من ان تكون منجزة والموعد قريب . اذا استمر مرضه شهرا فلن تكون الميدالية



له . اذن وداعا ، ايتها الرحلة الى الخارج ! ويروح عن نفسى ان صفتى رسام مناظر تنفى عنى فكرة منافسته ، ولكن رفاقه لا بد يفركون ايديهم بسرور . رباه ، محل شاغر زيادة .

ولكن يجب الا يترك ريابينين وحده ، يجب ادخاله المستشفى .

## ١٠

## ريابينين

اليوم ، حينما صحوت بعد عدة ايام من بحران لبثت اتملى الموقف طويلا . فى البداية لم اكن افهم ان هذه البكرة البيضاء تحت عينى انما هى جسدى ذاته قد التف فى غطاء . وادرت رأسى يمنة ويسرة باذلا جهدا جعل فى اذنى وقرا شديدا ، فرأيت فى النور الخافت قاعة طويلة وصفين من الاسرة اضطجع فيها اناس مرضى وشيئا يشبه الفارس فى دروع نحاسية بين النوافذ العريضة المسدلة سجفها . لم تكن الا مغسلة من النحاس ضخمة ، ايقونة المسيح فى احدى الزوايا تضيئها نواسة ، مدفأتين جبارتين من الخزف ، وسمعت انفاس جارى الواهنة المتوقفة والتنهدات تنبعث من آخر ، ونفخة انفية هادئة ، وشخيرا قويا

يصدر عن الحارس الذى يظهر انه يسهر على مريض فى حال خطرة ، وهو حى او ربما مات ويبقى بيننا ، نحن الاحياء .

نحن الاحياء . . . «انا حى» قلتها فى نفسى وهمست بها . واذا هناءة هادئة مفاجئة لم استشعرها منذ طفولتى تجتاحنى اذ افكر انى نجوت من الموت . وامامى حياة كاملة وانى استطيع ان اتصرف بغدى الذى اهيئه على هواى (من كل بد !) وانقلبت جاهدا على جنبى ووضعت راحتى تحت رأسى ونمت تماما كما كنت افعل فى طفولتى حينما كنت استيقظ فى الليل وابكى فى خفوت خائفا من الريح التى تلطم الزجاج وتصفر فى المدخنة ، ومن قرقعة المنزل الخشبى تحت وقع الجليد : حينئذ كانت امى المستلقية قربى تقبلنى وترسم علىّ اشارة الصليب فانام مطمئنا وقلبى الصغير يسبح فى الرغادة .

رباه ، كم ضعفت ! اليوم حاولت ان اذهب حتى سرير جارى وهو طالب ناقه فاوشكت ان اتكوم على الارض فى منتصف الطريق . لقد شفى رأسى اسرع من جسمى . حينما افقت كنت لا اذكر شيئا تقريبا ، واجد العسر كله فى العثور على اسماء معارفى . الآن عاد كل شىء الى ذاكرتى ، ولكن مثل الحلم لا مثل ماض حقيقى . لم اعد اتألم . انتهى الم الماضى دون رجعة .



حمل الىّ ديدوف كومة صحف تثنى على «اطرشى» و«صباحه» . ل . وحده يقرعنى . ماذا يهمنى ؟ الشقة بعيدة جدا ! انا فرح جدا لديدوف : ظفر بالميدالية الذهبية الكبرى وسيرحل الى الخارج . هو فى سعادة غامرة : وجهه يشع مثل فطيرة بالزبدة . سألنى هل اشترك فى مسابقة العام المقبل لان المرض منعنى من ذلك هذا العام . يا للعجب الذى اصابه حينما اجبته «لا» .

– جد ؟

– كل الجد !

– ما انت صانع اذن ؟

– سأرى .

وتركنى محيرا .

## ١١

## ديدوف

عشت اسبوعين فى الغموض ينهشنى القلق وفراغ الصبر . واستعدت هدوئى منذ حين يسير فى عربة السكة الحديدية الذاهبة الى فارصوفيا . لا اصدق نفسى : هأنذا موفد بمنحة من الاكاديمية ، لاربع سنوات الى الخارج حتى استكمل فنى . Vivat Academia!

ولكن ريابينين ، هذا الريابينين المسكين ! رايته في الشارع وانا آخذ عربة توصلنى الى المحطة . قال لى : «تهانىّ ، وايای ايضا تستطيع ان تهنىء» .

– لاية مناسبة ؟

– قبلت فى دار المعلمين .

فى دار المعلمين ! هو رسام موهوب ! ولكنه سيتعفن ، سيهلك فى قرية ضائعة . هذا هو الجنون الخالص والله !

هذا المرة كان ديدوف على حق : لم ينجح ريابينين بالفعل . ولكن لنا عودة اليه ذات يوم .

١٨٧٩

## ATTALEA PRINCEPS

كان فى مدينة كبرى حديقة نباتات وفى هذه الحديقة صوابة واسعة مصنوعة من المعدن والزجاج . وكانت الصوابة بديعة : اعمدة رشيقة حلزونية تدعم قناطر خفيفة تجمع بينها شبكة من الاطر الحديدية التى تحيط بالواح من الزجاج . وكانت الصوابة جميلة مع غروب الشمس على الاخص حين تضيئها الشمس بالنور الاحمر ؛ وكانت تبدو مشتعلة براقة مثل حلية من الف وجه وهى تعكس ارجوان الاشعة .

اذا انت نظرت من خلال الزجاج السميك رأيت النباتات سجينة . ومهما يكن الموضع واسعا فهى فى ضيق ، جذورها المشتبكة تتنازع الماء والغذاء . واغصان الاشجار تمتزج بسعفات النخيل الكبيرة فتثنيها وتحطمها ، وتلوى هى ايضا حينما تصطدم

بالعوارض المعدنية . وكان عمال الصوابة يقلمون الاغصان ويربطون الاوراق باسلاك من الحديد حتى يمنعوها من النمو على هواها ولكن ذلك لم يكن مجديا جدا . النباتات كانت فى حاجة الى المدى ، الى الحرية ، الى التربة الام . كانت مخلوقات رقيقة فاتنة قدمت من البلاد الحارة ، تتذكر وطنها وتتحسر عليه . ومهما تكن شفافية السقف الزجاجى فليس له ضياء السماء . فى الشتاء حينما تتجمد الالواح الزجاجية يصبح المكان مظلما تماما ، والريح تعوى مزلزلة الاطر والسطح يغمره الثلج . وتصغى النباتات الى زئير العاصفة وتحلم بالصبا العذبة الرطيبة التى منحتها الحياة والعافية . وتتشوق الى ان تستشعرها من جديد تلعب فى اغصانها والاوراق . ولكن هواء الصوابة جامد ، فى بعض الاحيان تخترق العاصفة احد الالواح فيندفع تيار جليدى محمل بالبرد الى تحت القبة ، واذا الاوراق التى يبلغها تشحب تتغضن وتذبل .

ولكن اهل الصوابة يسرعون الى تبديل اللوح المكسور بآخر سليم . كان يدير حديقة النباتات مدير عالم يسهر على النظام على الرغم من انه ينفق القسم الاكبر من وقته فى دراسات مجهرية فى سدة زجاجية اعدت له داخل الصوابة .

وكان بين النباتات نخلة تفوقها جميعا طولا وجمالا . وكان المدير يسميها باللاتينية Attalea ، ولكن هذا لم يكن اسمها الصحيح . لقد



اخترعه لها علماء النبات . كانوا يجهلون اسمها الحقيقى ولذلك لم يكن مسجلا على اللصيقة البيضاء المثبتة على جذعها . ذات يوم قدم مسافر من البلاد الحارة التى كانت موطنا للنخلة ، فلما وقع نظره عليها ابتسم لواحد من ابناء وطنه وقال :

– وى ، انا اعرف هذه الشجرة . – وسماها باسمها الاصلى .

فصاح به المدير الذى كان مشغولا بقطع سويق بموسى من سدته :

– عفوا . انت مخطئ . ليس ثمة شجرة بهذا الاسم . هذه هى Attalea princeps من البرازيل .

فاجاب البرازيلى :

– اجل ، انا اود ان اؤمن بان علماء النبات يسمونها Attalea ولكن لها اسما هو اسمها الصحيح .

– الاسم العلمى هو الصحيح .

قال هذا عالم النبات فى لهجة جافة وهو يغلق باب سدته بالمفتاح كيلا يزعجه اناس يجهلون حتى واجبهم فى الاصغاء الى رجال العلم صامتين .

اما البرازيلى فلبث وقتا طويلا يتأمل الشجرة وقد اجتاحه حزن لا ينفك متعاظما . طفق يستذكر سماء بلاده وشمسها ، غاباتها الساحرة المأهولة بحيوانات واطيار بديعة ، صحاراها ، لياليها الدافئة العذبة . واستذكر ايضا انه لم يكن قط سعيدا الا هناك على الرغم من انه ضرب فى ارجاء العالم . ومس النخلة

بيده مسا هينا ، كان منه بمثابة الوداع ، ثم غادر حديقة النباتات ولم يقبل اليوم الثانى حتى كان على ظهر سفينة راحلة الى بلاده .

وظلت النخلة فى سجنها . ازداد المها . الوحدة تؤودها . كانت تشرف من قمتها على النباتات الاخرى التى لا تحبها ، وتغـــار منها وتعتقد انهـا مغرورة . ولم تكن قامتها الباسقة لتسبب لها الا الحزن ، ناهيك بانها تجد نفسها منعزلة عن الجماعة ، واكثرها ذكرا لسماء بلادها بما دنت من القبة الزجاجية الملساء التى تعوض عن السماء لبقية النباتات . فى بعض الاحيان كانت تلمح قطعة من اللازورد : انها السماء شاحبـة غريبة ولكنها السماء مع ذلك . وعندما تثرثر النباتات فيما بينها كانت Attalea تلوذ بالصمت يمضها الحنين وتتمنى ان تعيش فى الهواء الطلق حتى ولو كان ذلك تحت هذه السماء البائسة التى لا لون لها .

وسأل النخل الهندى الذى يهيم حبا بالرطوبة :

– قولوا لى ، من فضلكم ، هل يسقوننا قريبا ؟ انا على يقين من انى سأجف اليوم .

فقال صبار اكرش :

– انتم تدهشوننى ايها الجار العزيز . الا تجدون كفايتكم فى المقدار الضخم من الماء الذى يصبونـه عليكم كل يوم ؟ انظروا كم انا طرى ومليء بالنسغ على الرغم من زهدى بالشرب .

فاجاب النخل الهندى :



– نحن لم نعتد التقتير ، وتربة الصبار الشحيحة الفقيرة لا تلائمنى . اننا نحتاج الى الوفرة . ثم الفت نظركم الى ان احدا لم يطلب اليكم رايكم .

قال النخل الهندى هذا وصمت منزعجا .

وتدخلت القرفة قائلة :

– واما انا فراضيـــة بعض الرضى عن حالى . لا ريب فى انى اعانى بعض السآمة هنا ولكنى على الاقل مطمئنة الى ان جلدى لا يسلخ .

وقال الخنشار :

– مهما يكن من امر فنحـــن لا نسلخ كلنا . ولا شك فى ان بيننا من يرى هذا الحبس فردوسا بعد الحياة البائسة التى كان يحياها فى بلاده .

حينئذ ردت القرفة ردا لاذعا ناسية آلامها الماضية. وانحازت عدة نباتات اليها واخرى ايدت الخنشار . وثارت مشاجرة عنيفة . ولو قدرت على الحركة لتعاركت.

وقالت Attalea:

– علام الشجار ؟ انـــه ليس علاجا . البغض والغضب لا يصنعان الا ان يزيداكم تعاسة . الاحسن ان تتركوا النقاش . يجب العمل . اسمعوا نصيحتى : انموا فى كل اتجاه ، انشروا اغصانكم ، تقنطروا على الاطر والواح الزجاج ؛ تتفتت صوابتنا وتتطاير شظايا ونصبح احرارا . اذا غام غصن واحـــد بالتقدم قطعوه يقينا . ولكن كيف السبيل الى الوقوف فى وجه مئات

الجذوع القوية الجسور ؟ فلنوحد جهودنا ، نعد باكاليل النصر .

استقبل الاقتراح بصمت مطبق ، كان مفاجأة الجمت الافواه . اخيرا عزم النخيل الهندى على الكلام فقال :

– هراء !

– هراء ! هراء ! – هكذا ردد الشجر جوقة واحدة وراح يظهر ل Attalea عقم فكرتها ويصيح : – حلم اجوف لا معنى له ! حماقة ! الاطر اصلب مما تظنين . وحتى لو فرضنا اننا كسرناها فماذا يفيدنا ذلك ؟ سيأتى رجال مسلحون بالمدى والفؤوس فيقطعون اغصاننا ويصلحون الاطارات ، وتسير الامور على ما كانت عليه . الا اننا سنفقد اجزاء كاملة منا .

واجابت Attalea:

– كما تشاؤون . انا الآن اعرف ما يجب علىّ فعله . لن اقلقكم بعد ابدا . عيشوا على هواكم ، هروا ، اختصموا على نصيبكم من الماء وابقوا الى الابد تحت الناقوس الزجاجى . سأعثر على طريقى وحدى . اريد ان ابصر السماء والشمس متحررتين من الشباك والاطر وسأظفرن .

ونظرت النخلة فخورا من ذروتها الخضراء غابة رفاقها الواطئة . ولم يجرؤ احد على اجابتها . النخل الهندى وحده همس على نحو لا يسمعه معه الا جاره السيكاس :



– انتظرى حتى يقطعوا لك رأسك الضخم ، فتتعلمى العناد !

ومع ان الاخرى لاذت بالصمت الا انها تميزت غيظا من اقوال النخلة المزهوة . عشبة صغيرة لم تطو على الموجدة جارحة . كانت هذه اشد اهل الصوابة بؤسا ، ذات سويق رخو ، شاحب ، متسلق تزينه وريقات صغيرة سميكة فسلة ، لا تنفع الا فى ستر تربة جرداء . وكانت ملتفة على جذع النخلة الكبرى تصغى اليها وتحبذ رأيها . وهى تجهل الاقليم الاستوائى ولكنها تحب هى ايضا الهواء النقى والحرية . وكانت الصوابة لها كذلك سجنا ، وتقول فى نفسها وهى تشد نفسها الى النخلة شدا كله اعجاب ودعاب : «اذا كنت انا ، العشبة الصغيرة المسكينة ، اتعذب لحرمانى من سمائى الرمادية ، من شمسى الشاحبة ومطرى البارد ، فما عسى ان يكون وقر الاسر على هذه الشجرة الباهرة جمالا وقوة ! ولو اننى شجرة كبيرة لأتبعت نصيحتها . لنمونا جنبا الى جنب وظفرنا بالحرية معا » وعرفت الاخرى اذ ذاك حكمة Attalea.

ولكنها لم تكن الا عشيبة تعيش على الارض فلم تستطع الا ان تزيد عناقها جذع النخلة حنانا وان تهمس بحبها وتتمنى لها حظا طيبا .

– لا ريب فى ان اقليمنا ليس حارا وان سماءنا اقل صفاء من سمائكم ، وامطارنا اقل غزارة ولكن عندنا على اية حال سماء وشمسا وهواء . ونباتنا ليس له

اوراق مثل اوراقكم العريضة وازهاركم البارعة انتم واشباهكم ؛ ولكن اشجارنا : الصنوبر والشوح والبتولا ليست قبيحة ابدا . وانا العشيبة المسكينة لن اذوق للحرية طعما ما حييت . واما انتم فدوحة عظيمة قوية لا تلبثون ان تبلغوا السطح الزجاجي فتخترقوه وتخرجوا الى طلب الطبيعة . اذا فعلتم ذات يوم فقولوا لى هل هى جميلة دائما ، يكون لى من ذلك عزاء عظيم .

– لماذا لا تريدين ان تصحبينى ايتها العشيبة ؟ ان جذعى صليب ، فاعتمدى عليه . تسلقى حتى الذروة ، احملك بلا جهد .

– اللهم لا ! انظروا كم انا ضعيفة ! انا لا استطيع حتى رفع واحد من غصيناتى . لا ، انا لست قادرة على اللحاق بكم . اذهبوا ! وليكن الحظ حليفكم . وكل ما اطلبه اليكم هو ان تفكروا احيانا بصديقتكم الصغيرة حينما تخرجون الى الحرية .

وطفقت النخلة تنمو . كان الزوار لا ينفكون عن الدهشة من قامتها ولكنها كانت تزداد علوا شهرا بعد شهر . وكان المدير يعزو هذه الظاهرة الى العناية الطيبة ويزهو بمعرفته واطلاعه ويقول :

– انظروا الى Attalea princeps حتى فى البرازيل انتم لا ترون نخيلا بمثل هذه القامة الا نادرا . لقد استخدمنا معرفتنا كلها لكى نضمن لنبات الصوابة نموا طبيعيا وتبدو لى النتائج باهرة .

ويضرب الشجرة الصلدة بعصاه راضيا مرضيا



فترجع الصوابة صدى ضرباته . وترتعش سعفات النخلة من هذه الضربات . آه ، لو كان لها صوت ، فاى هدير غاضب كانت تسمعه للمدير !

وتقول Attalea فى نفسها : «يتصور انى انمو كى ابهجه فلنتركه فى اوهامه !»

واستخدمت نسغها فى الاندفاع الى الاعلى على حساب الجذور والاوراق . كان يخيل اليها فى بعض الاحيان ان المدى الذى يفصلها عن القبة لا ينقص انملة فتضاعف الجهد . واذا الاطر تدنو يوما بعد يوم ، واخيرا بلغت ورقة صبية الزجاج والاطر الحديدية .

وتصايح النبتات متعجبا :

– انظروا الى اين وصلت ! هل تجرؤ على الخروج ؟

وقال الخنشار :

– فظاعة ، كم ارتفعت !

ولاحظ السيكاس الضخم الذى يشبه جذعه ان يكون برميلا :

– يا لها حكاية ! لو كانت قادرة على ان تتضخم مثلى . . لا ولِمَ تتمطى هكذا ؟ انه جهد ضائع : الاطر صلبة والالواح الزجاجية سميكة .

وتصرم شهر آخر . و Attalea لا تزال تصعد . وانتهت الى الاصطدام بالاطر . وعجز الجذع عن التصعيد فتقوس . ودعكت قضبان الاطر الحديدية ذروتها وعضت على الاوراق الطرية ونهشتها وشوهتها . ولكن الشجرة لم تنكص على عقبيها غير معنية

بخضرتها . وبدأت مقاومة الاطر تهن وتضعف على الرغم من انها مصنوعة من الحديد المتين .

وكانت العشبة الصغيرة تتبع المعركة قلقة .

وسألت النخلة :

– ألا تتألمون ؟ اذا كانت الاطر صلدة جدا أليس من الخير التراجع ؟

– اتألم ؟ ما قيمة الالم اذا كنت اريد الحرية ؟ ألست اول من شجعنى ؟

– بلى ، ولكنى كنت اجهل ان الامر على مثل هذه المشقة . انكم تتألمون كثيرا وانا اشفق عليكم .

– اسكتى ، ايتها النبتة الضعيفة ! لا غناء فى الاشفاق علىّ . سأنتصر او أموت .

فى هذه اللحظة ذاتها سمع صوت رنان . انكسرت عارضة من الحديد وتطايرت الواح الزجاج شظايا سقطت احداها على قبعة المدير الذى كان يترك الصوابة .

لما رأى هذا الشلال من الحطام صرخ منزعجا :

– ماذا حدث ؟ – وركض مبتعدا عن الصوابة وجعل يتفحص السقف . كانت ذروة النخلة الخضراء تشمخ فوق القبة مزهوة .

وقالت النخلة فى نفسها : «أهذا كل ما فى الامر ؟ ألهذا عانيت طويلا الحنين والالم ؟ هل هذه غايتى النهائية ؟»



لما امرت ذؤابتها من الخرق كان الخريف فى اواخره والسماء تمطر مطرا ناعما مختلطا بالثلج . والريح تسوق غيمات منخفضة ممزقة خيل للنخلة انها تغلفها . كانت الاشجار العارية تذكر بالهياكل العظمية المقيتة . اشجار الصنوبر والشوح وحدها احتفظت بابرها الاخضر القاتم . كانت الاشجار تنظر الى الدخيل باعين قاتمة وكأنها تقول : «ستتجمدين ! انت تجهلين شدائد الشتاء ولن تتحمليها . لماذا خرجت من الصوابة ؟»

ورأت Attalea نفسها مضيعة . البرد يغل فى جسدها . العودة الى الملاذ ؟ مستحيلة . كان عليها ان تتحمل هجمات الريح العاتية ولذعات الثلج وتتأمل السماء الوسخة والطبيعة العجفاء وفناء حديقة النبتات القذر ورتابة المدينة الشاسعة المتلفعة بالضباب فى انتظار ان يبت الناس فى امرها .

واصدر المدير امره بنشرها : «نحن نستطيع ان نبنى لها قبة خاصة ولكنها لا تقاوم لان النخلة ستمضى فى نموها وتحطم كل شىء . ثم ، ان هذا باهظ النفقة . انشروها» .

فقيدت النخلة بالحبال حتى لا تسحق بسقطتها جدران الصوابة ونشرت من اصلها . ولم تشأ العشبة الصغيرة التى تعانق ادنى الجذع فراق صديقتها فشاطرتها عذابها . ولما اخرجت النخلة كانت ارومتها مغطاة بالسويقات والاوراق الممزقة .

وقال المدير :

– انزعوا واقذفوا بهذه القذارة ! لقد اصفرت وافسدها المنشار . اغرسوا شيئا آخر مكانها .

وقطع بستانى العشبة بضربة من رفشه ووضعها فى سلة ويرماها فى الفناء على جثة النخلة التى كانت تثوى فى الوحل وقد غمرها الثلج .

١٨٧٩



## ١

فى الرابع من ايار ١٨٧٧ وصلت الى كيشينيف وعلمت ، بعد نصف ساعة ، ان فرقة المشاة السادسة والخمسين تمر من المدينة . ولما كنت قد جئت لدخول الجيش والرحيل الى الجبهة وجدتنى منذ السابع من ايار فى الساعة الرابعة صباحا بين الجنود المصطفين امام مسكن العقيد آمر اللواء ستاروبلسكى رقم ٢٢٢ . كنت البس معطفا رماديا ، كتفيتاه حمروان ، ونهايتا قبته زرقاوان ، واضع عمرة حافتها زرقاء ، واحمل حقيبة وكنانة وبندقية ثقيلة من طراز كرينكوف .

ودوى البوق : كانت الاعلام تخرج من عند العقيد . والقى امر فادى اللواء التحية فى صمت . ثم ارتفعت ضجة رهيبة : العقيد اصدر امره ، اعقبه امراء الافواج فالسرايا واخيرا الفصائل . واعقبت ذلك حركة المعاطف الرمادية لم افهمها ، استطال اللواء نتيجتها صفا واحدا

وسار على نغمات مارش فرح . كنت اجهد فى ان اوفق بين خطوتى وخطوة جارى . الحقيبة تشدنى الى الوراء ، والكنانة الثقيلة الى الامام ، البندقية تنزلق عن كتفى ، قبة المعطف تبرد عنقى ؛ ولكن على الرغم من هذه المنغصات الصغيرة كانت الموسيقى وسير الصف المنتظم الرزين ، وطراوة الصباح واسنة الحراب ، والوجوه البرونزية المتقشفة تنزل على قلبى الهدوء والمضاء .

وعلى الرغم من الساعة المبكرة كان خلق امام الابواب ، واناس لم يلبسوا كل ثيابهم ينحنون على النوافذ . وكنا نحن نسلك شارعا طويلا قرب السوق الذى بدا المولدافيون يفدون اليه على عربات تقطرها الثيران . وكان الشارع يمتد صعدا حتى يفضى الى المقبرة . وكان الصباح باردا مضبا ، وبدأت السماء تمطر ، واشجار المقبرة تتراءى من خلال الضباب ، وذرى الانصاب تعلو على السور المحيط والباب الرطب . ودرنا حول المقبرة يسارا . دار فى خلدى انها تنظر الينا مدهوشة : «فيما ذهابكم الوفا مؤلفة للموت على آلاف الفراسخ فى حقول غريبة بينما تستطيعون ان تموتوا هادئين هنا ، ان تتمددوا تحت صلبانى الخشبية وشواهدى الحجرية ؟ ابقوا !» .

ولكننا لم نبق . كانت قوة خفية لا تقاوم تمضى بنا . ولو انك اخذت كلا منا على حدة ، لرأيته يهيم بالعودة الى البيت . ولكن الكتلة كلها تسير ، لا



يحركها النظام او وجدان تأدية الواجب او الحقد على العدو المجهول او مخافة العقاب بل غريزة غامضة مجهولة ستدفع الانسانية ردحا طويلا من الزمن ايضا الى المذبحة الدموية — السبب الاساسى لشتى مصائب وآلام الناس .

على بعد يسير من الجبانة ظهر لنا واد عريض عميق كان يضيع فى الضباب . وانهمر المطر اقوى مما كان ، وبعيدا فى الامام كانت اشعة الشمس تخترق الغيوم وتفضض خيوط المطر المائلة . والضباب يزحف على سفوح الوادى المعشوشبة ونرى من خلاله صفوف الجنود الذين يسبقوننا . والحراب تبرق هنا وهناك . وقطعة مدفعية تلمع باهرة تحت الشمس ثم تدخل الظلمة . احيانا كانت الغيوم ترتص ، فيقتم ضوء النهار ، ويهطل المطر مدرارا . ولا تمضى ساعة على رحيلنا حتى احس خيطا من الماء البارد يسيل فى ظهرى .

وكانت المرحلة الاولى قصيرة لان قرية غاورينى لا تبعد عن كيشينيف اكثر من ثمانية عشر فرسخا . ولكنى لم اتعود ان اسير بحمل يتراوح بين خمس وعشرين وثلاثين ليبرة ، فوجدتنى شديد التعب حتى انى ، لما وصلنا الى المنزل الذى سيؤوينا ، عجزت عن ان اجلس وظللت عشر دقائق مستندا الى الجدار بكامل عدتى والبندقية فى يدى . واشفق علىّ جندى كان ذاهبا لاحضار نصيبه من المطبخ فاخذ قدرى

ولكنه ، لما عاد ، وجدنى اغط فى النوم . وايقظنى فى الساعة الرابعة صباحا بوق حاد يؤذن بالمسير ، وما هى الا خمس دقائق حتى كنت اسير على الطريق الموحل من جديد تحت مطر ناعم وكأنه منخول بالمنخل. امامى كان ينوس ظهر رمادى موسوق بحقيبة من جلد العجل البنى وقدر يقرقع وسلاح على المنكب ؛ وعن جانبى وورائى اشباح متشابهة رمادية . فى البداية لم اكن اميزها بعضها عن بعض . كان اللواء ٢٢٢ الذى ارسلت اليه مؤلفا فى اكثريته الساحقة من فلاحين من منطقتى فياتكا وكوستروما ، عريضى الوجوه ، وجناتهم البارزة صبغها البرد بالحمرة ، اعينهم صغيرة رمادية وشعورهم ولحاهم لا لون لها . وكنت اذكر جيدا بعض الاسماء ولكنى اجهل المسمين . وبعد اسبوعين كان يدهشنى ان اخلط بين اثنين من جيرانى احدهما يسير الى جانبى والآخر قرب الظهر الرمادى الذى يتبدى ابدا لعينى . كنت ادعوهما كيفما اتفق : فيدوروف وجيتكوف ولا انفك اخطىء على الرغم من كونهما لا يجتمعان فى شىء ابدا .

كان الرقيب فيدوروف انسانا فى حوالى الثانية والعشرين من عمره ، ربعة ، ممشوق القامة ، وكانت تقاطيع وجهه لطيفة ، دقيق الانف ، ذا فم ينبىء عن العزم ، وذقن جميلة تكسوها لحية شقراء جعداء ، وعينين زرقاوين ضاحكتين . حين يصيحون : «الى الامام ، ايها المغنون !» يبدأ الاغنية فى سريتنا . كان



ينشد بصوت رخيم يعلو فى بعض المقاطع الى صوت رنان :

. . . ليأت القيصر الى مجلس الشيوخ !

كان اصله من مقاطعة فلاديمير ولكنه وفد الى بطرسبورغ يافعا جدا . ومن الغريب ان «معارف» بطرسبورغ ارهفته من غير ان تفسده وعلمته بين اشياء اخرى ان يقرأ الصحف وينطق بالالفاظ العلمية . كان يقول لى :

– من كل بد ، يا فلاديمير ميخائيلوفتش ، انا اكثر تفهما من العم جيتكوف لان بطرسبورغ تركت فىّ اثرها . ففى بطرسبورغ حضارة بينما يسود القرية الجهل كل الجهل . ومع ذلك ونظرا لانه اكبر منى ، لانه رجل مجرب اذا استطعنا القول ، عانى صروف الزمان ، فانا عاجز عن تقريعه . انه فى الاربعين وانا فى الثانية والعشرين على الرغم من كونى رقيبا .

وكان العم جيتكوف رجلا عبلا ، هرقلى القوة ، ذا وجه ملوح ووجنتين بارزتين وعينين صغيرتين نظرتهما الى الارض اميل . ولم يكن يبتسم ابدا ولا يتكلم الا لماما . وكان فى الحياة المدنية نجارا ويتمتع بعطلة غير محدودة حينما اعلن النفير . كان يحتاج الى بضعة اشهر حتى يظفر بتقاعده فاجبرته الحرب على ان يترك امراته وخمسة اطفال . ومع ان وجهه عادى وجهومته ابدية فقد اثرت بنا طيبته وقوته فقرب من قلوبنا كافة . وانا الآن اسائل نفسى كيف استطعت ان اخلط

بينهما ، ولكنهما فى اليومين الاولين كانا يبدوان لى متشابهين : كلاهما رمادى وكلاهما موقر مثل البغل ، تعب مقشعر .

ولم ينقطع المطر طوال النصف الاول من ايار ولم تكن لدينا خيام . والطريق الغضارى ، الذى لا ينتهى ، يصعد وينحدر كل فرسخ تقريبا . وكنا نجد العسر كله فى المسير ، ورزم من الطين تتعلق بارجلنا ، والسماء رمادية دانية لا تمل من رشنا بطلها الناعم . كنا مبتلين حتى العظام وتقطعت منا الآمال فى ان نجف ونظفر ببعض الدفء ، لان الرومانيين يرفضون ايواءنا ، وهم ، حتى اذا ارتضوا ، لم يجدوا اماكن كافية لهذا العدد العديد كله . فكنا ، اذ نمر بالبلدة ، نتوقف فى تخومها .

– قف ! . . شابكوا السلاح !

وبعد ان نأكل الحساء الساخن نستلقى فى الطين . ويخيل ان الماء الذى يحيط بنا من الاسفل ومن الاعلى انما تتشربه اجسادنا من الرأس حتى اخمص القدمين . كنا نرتعش ملتفين فى معاطفنا ونغوص غوصا وئيدا فى دفء رطب ونغط فى سبات ثقيل حتى البوق الملعون . ومن جديد الصف الرمادى ، السماء الرمادية ، الطريق الموحل ، الهضاب والوديان العابسة المبتلة . ما اقسى كل هذا !

– فتحت السماء سدودها ، ولن نزال نبتل الى ما لا نهاية . . . – هكذا كان يقول كاربوف وكيل



الضابط المعاون عندنا ، وهو جندى قديم من جنود حملة خيوة .

– سننشف ، يا فاسيلى كاربوفتش ! المهم ان نعثر على قليل من الشمس . الطريق طويل : سنجد متسعا من الوقت لكى نجف ونبتل قبل ان نصل . – هكذا قال جارى وسألنى :

– قل لى ميخائيلوفتش ، هل الدانوب بعيد ؟

– مسيرة ثلاثة اسابيع .

– ثلاثة ! نحن نمشى منذ اسبوعين . . .

وهمر العم جيتكوف :

– لكى نقذف بانفسنا فى شدق الشيطان .

– ماذا بك حتى تهمر ايها الحطام العجوز ؟ ممنوع الاحتجاج . ما هو هذا الشيطان ؟ لماذا تقول هذا ؟

فرد جيتكوف :

– ربما كنا فى سبيلنا الى العيد ؟

– لا ، ولكن هناك الواجب . . . ماذا قلت لما اقسمت اليمين ؟ «من غير ان اضن بحياتى . . .» آ ، ايها الحطام العجوز ! جرب ان تعيدها !

– ولكنى لم اقل شيئا ، يا فاسيلى كاربوفتش . انا امشى واذا وجب الموت متنا . . .

– خير .

وصمت جيتكوف ولكنه زاد عبوسا وقتاما . والواقع ان هذا السير المضنى امات فينا شهوة الكلام .

الاقدام تنزلق وفى اغلب الاحيان يسقط الجنود فى الوحل اللزج . وشتائم قوية تركض من اقصى الفوج الى اقصاه . فيدورف وحده لا يبرح مستبشرا ، لا يكل من رواية القصص عن بطرسبورغ وقريته .

ولكن لكل شىء نهاية . ذات صباح افقت فى المعسكر حيث كان علينا ان نستريح نهارا واحدا ، فرايت سماء زرقاء ومنازل بيضاء ودوالى تستحم فى اشعة الشمس . وسمعت من يتكلم مرحا . وكان الجميع قد استيقظوا ونشفوا بعد عشرة ايام من سير تحت المطر وما من خيام . ولكن الخيام هى ايضا قد لحقتنا هنا ، وسرعان ما اخذ الجنود ينصبونها . فلما ضربت الاطناب وامتد القماش تمددوا فى الظل .

— اذا لم تحمنا من المطر وقتنا من سطوع الشمس .

فقال فيدورف مازحا وهو يغمزنى بعين ماكرة :

— نعم ! حتى لا يسود وجه السيد .

## ٢

لم يكن فى سريتنا الا ضابطان : آمر السرية الرئيس زايكين ومعاونه الملازم الثانى ستيبيلكوف . وكان الاول رجلا نصفا مكتنزا ، طيب القلب ؛ واما الثانى ففتى يافع حديث العهد فى الرتبة . وكانا



يعيشان فى وفاق اتم . فالرئيس يحيط رفيقه الصغير بعنايته ويطعمه على حسابه ويقيه ، اوقات المطر ، بمشمعه الوحيد . وحينما وزعت الخيام سكنا معا ، ولما كانت خيام الضباط واسعة فقد قر رأى الرئيس على ان يعرض علىّ ضيافته .

وكنت مضنى ليلة ساهدة (العشية سخرت سريتنا فى النقل فقضينا الليل فى سحب العربات من الحفر وحتى من مياه النهر الغزيرة بعد الفيضان الربيعى على نغمات اغنية «الهراوة» *) انام بعد الظهر مشدود القبضتين لما ايقظنى خادم الرئيس بلمسة خفيفة من يده .

— السيد ايفانوف ! السيد ايفانوف !

هكذا كان يهمس كأنه يخشى ان يعكر علىّ غفوى .

— ماذا تريد ؟

— آمر السرية يطلبك .

وهممت بان اشكل حربتى فقال :

— قال الرئيس ان احضرك كما انت .

كانت خيمة زايكين تغص بالناس . وما خلا صاحبى البيت كان ثمة ضابطان آخران : مرافق آمر اللواء وفينتسل الذى يقود سرية القناصة . فى ١٨٧٧ كان الفوج مؤلفا من خمس سرايا لا من اربع . واثناء المسير كان القناصة يجيئون فى المؤخرة بحيث تمس صفوفنا

---

* اغنية قديمة روسية (الناشر) .

الاخيرة طلائعهم . وقد وجدتنى مرات عديدة فى جيرتهم المباشرة وسمعت شرا كثيرا يقال فى حق الرئيس فينتسل . وكان الاربعة يشربون الشاى جالسين حول صندوق قد اتخذ منضدة واحتشد بالصحون والاوانى وسماور وقنينة . وصاح الرئيس زايكين :

– ايها السيد ايفانوف ! اهلا وسهلا ! نيكيتا ! فنجان ، زبدية ، قدح ، اى شىء ! افسح له مكانا صغيرا يا فينتسل .

ونهض فينتسل وحيا بادب . كان شابا جافا ، اميل الى القصر ، شاحبا عصبيا .

وفكرت قائلا لنفسى : «ها هما عينان قلقتان جدا وشفتان مفرطتا الدقة» .

ومد الىّ مرافق الآمر يده من غير ان ينهض وقدم نفسه :

– لوكين .

كنت استشعر الحرج . والضباط يلوذون بالصمت . فينتسل يترشف الشاى بالروم . المرافق يمص غليونه الصغير ؛ الملازم ستيبيلكوف اشار الىّ برأسه وغاص فى قراءة رواية اجنبية مدعوكة الصفحات تبعته فى حقيبته حتى الدانوب وعادت الى روسيا اسوأ حالا . وصب زايكين الشاى فى زبدية كبيرة واضاف مقدارا كبيرا من الروم .

– خذ ، ايها السيد الطالب ! يجب الا تغضب علىّ . انا انسان بسيط . ونحن هنا كلنا كذلك اصلا ،



بينا انتم ، انتم متعلمون . يجب عليكم اذن ان تعذرونا ، أليس كذلك ؟

وقبض بيده الضخمة على يدى مثل طير ينقض على فريسته وهزها فى الفضاء وعيناه المحملقتان طافحتان طيبة .

وسألنى فينتسل :

– هل انت طالب ؟

– كنت اياى ، يا سيدى الرئيس .

فابتسم وحدجنى بنظرة قلقة . خطرت ببالى اقوال الجنود ولكننى شككت بصحتها آنئذ .

– لماذا تقول لى : «سيدى الرئيس ؟» تحت الخيمة نحن اهل . – واضاف فى صوت خفيض : – انت مثقف بين مثقفين .

فهتف زايكين :

– مثقف ، هذه هى الكلمة ! طالب ! انا احب الطلاب ، على الرغم من كونهم مشاغبين . انا ايضا لو شاء القدر لدرست .

فتساءل المرافق :

– اى قدر يا ايفان بلاتونوفتش ؟

– لم استطع قط ان احضر امتحاناتى . الرياضيات ، قل لا بأس ، ولكن البقية لم تكن تريد الدخول . الادب . . . الاملاء . . . انا ، يعلم الله ، لم اتعلم حتى الكتابة كما يجب فى المدرسة العسكرية .

وقال المرافق بين نفثتين كبيرتين من الدخان :

– هل تدرى ايهـــا السيد الطالب ان ايفـــان بلاتونوفتش يرتكب اربع خطيئات وهو يكتب كلمـــة «كذلك» ؟

فاحتج زايكين :

– لا ، لا تكذب يا صاحب !

– لا ، صحيح . كازاليكا ، ما قولك فى هذا ؟

وانفجر المرافق ضاحكا .

– اضحك رح ! انت لست اكثر تبحرا . . . وانت مرافق مع ذلك ! انت تكتب منضدة بالتاء المفتوحة .

فازداد الآخر ضحكا ؛ واما الملازم ستيبيلكوف الذى اخذ جرعة من الشاى فقد اطلق ضحكة جعلته يرش كتابه ويطفئ احدى الشمعتين اللتين تنيران الخيمة ، وانتقلت الى عدوى الضحك ايضا . وقهقـــه زايكين قهقهة راعدة وقد ابهجته نكتته .

فينتسل وحده ظل على جده . وسأل فى لطف :

– تقول الادب ؟

– نعم ، نعم . . . والبقية ايضا . انا مثل من تعلم الجغرافيا حتى «الاستواء» والتاريخ حتى «العصر» . ولكن ذلك لا يهمنى ! كان معى عملة فكنت الحـــق المنكر . هذه هى الحقيقـــة . يجب ان اقول لك يا ايفانوف . . . اسمك كاملا ، ارجوك ؟ . .

– فلاديمير ميخائيلوفتش .

– حسن جدا . يجب ان اقول لك يا فلاديميـــر ميخائيلوفتش انى كنت طائشا . لم اترك امرا يعيب



على الا فعلته . «حينما كنت غنيا ، كنت الهو . ومضى المال فاخذ الحرية معه» : هكذا تقول الاغنيـــة . وانتسبت مرشحا الى هذا اللواء المجيـــد الريفى من راسه حتى قدميه . وقضيت مدرسة الضباط كيفمـــا اتفق ، وهأنذا منذ عشرة اعوام على حالى المسئم . الآن نحن ذاهبون نتشـــاجر والاتراك . فلنشرب الروم الصرف ايها السادة ! لماذا نمزجه ؟ لنشرب ايهـــا السادة «لحم المدافع» .

وترجم فينتسل الكلمة الى الفرنسية . واستأنف زايكين :

– اذا فضلتم . رئيسنا فينتســـل ضليـــع يا فلاديمير ميخائيلوفتش : يعرف اللغات الاجنبية ، يلقى عن ظهر قلب اشعارا المانية . اسمع ايها الفتى ! انا استقدمتك لكى اقترح عليك الانتقال الى خيمتى . لا ريب فى انك على اسوأ حال هناك بين الجنود . مع الخمسة يعانى الانسان ضيقا . ناهيك بالبق . ستكون هنا خير على اى حال . . .

– شكرا جزيلا ، ولكن اسمح لى ان ارفض .

– وى ، لماذا ؟ هراء ! نيكيتا ! احضر حقيبته ! ما هى خيمتك ؟

– الثانية عن يمين . ولكن اسمح لى ان اظل فيها . وما دام محلى بين الجنود فالخير الا اتركهم ابدا .

فنظر الى الرئيس كأنما يقرأ افكارى . وقال بعد هنيهة تفكير :

– هل تريد ان تكون لهم صديقا ؟
– اجل ، اذا امكن ذلك .
– انت على صواب . ابق بينهم . انا اقدرك .
وقبض على يدى وهزها .

بعد قليل استأذنت من الضباط وغادرت الخيمة . وكان المساء يخيم والرجال يلبسون معاطفهم للاجتماع . واصطفت السرايا على تخوم المخيمات بحيث يشكل كل فوج مربعا حول خيامه والاسلحة المتشابكة . وقد اتاح التوقف المديد لبقية الفرقة ان تلحق بنا . وكانت الطبول تقرع والاوامر تدوى فى البعيد :
– انزعوا العمرات استعدادا للصلاة !
ونزع اثنا عشر الف رجل عمراتهم وبدأت سريتنا : «ابانا الذى فى السماء» ، وفعل جيراننا مثلنا . كان ستون جوقة كل جوقة مؤلفة من مئتى رجل يغنون معا . وعلى الرغم من بعض النشوز فقد كان الغناء مؤثرا مهيبا . وصمتت الجوقات واحدة بعد اخرى . واخيرا رتل الفوج الاخير الواقع فى طرف المعسكر : «ولكن نجنا من الشر» . وارتفع قرع مختصر .
– غطوا رؤوسكم !
ومضى الجنود يتخذون اماكنهم لتمضية الليل . وفى خيمتنا كما فى الخيام الاخرى كنا ستة فى اربعة امتار مربعة تقريبا . وكنت انام على الطرف . وظللت وقتا



طويلا انظر الى النجوم والانوار البعيدة واصغى الى الضوضاء الغامضة المنبعثة من المعسكر الشاسع . فى الخيمة المجاورة كان احدهم يحكى حكاية ولا ينفك يردد كلمة : «حينئذ» .
– حينئذ ذهب الامير للقاء زوجته وقال لها ما فعله . حينئذ هى . . . هل تنام يا لوتيكوف ؟ . . طيب لتحفظك العذراء المقدسة . . . يا يسوع ، ايها الاله الاب . . . – هكذا راح الرجل يهمس وهو يتهيأ للنوم .
وينتهى الى كلام من خيمة الضباط . وظلال كبرى مختلطة تتحرك على القماش المضاء من الداخل . وضحكة صاخبة تنطلق من آن لآخر : انه المرافق . والديدبان يروح ويجىء وسلاحه على كتفه . قبالتنا ، فى مخيم المدفعية ، ديدبان آخر يلمع سيفه . كنت تسمع من هذه الناحية احيانا الخيول المشدودة الى الاوتاد تفحص الارض بحوافرها . كانت تنفخ وتعلك عليقها فى ضوضاء هينة آمنة تذكرنى بخانات بلادى فى الليالى الهادئة مثل هذه . وتلمع نجوم الدب الاكبر السبعة ادنى منها عندنا ، حتى تكاد تمس الافق . وارى نجمة القطب فافكر ان هذا اتجاه بطرسبورغ ، حيث تركت امى واصدقائى وكل ما هو غال علىّ . وتتلألأ نجوم فوق راسى ؛ والمجرة تبرق عصابة من النور النقى الجليل . نجمتان لا نراهما فى بلادنا تشتعلان فى الجنوب ، احداهما حمراء والاخرى خضراء . وافكر : «حينما نذهب

بعيدا ، الى ما بعد الدانوب والبلقان ، نحو القسطنطينية ، هل ارى نجوما جديدة ؟ وكيف تكون ؟»

كان النوم يفر منى ، فقمت وجعلت اتمشى فى العشب الرطب بين فوجنا والمدفعية . وبرز زول غير بعيد منى فحززت من قرقعة سيفه انه ضابط . فاتخذت وضعية التحية . ودنا ، واذا هو فينتسل .

سألنى بصوت عذب :

– ما بك رغبة فى النوم يا فلاديمير ميخائيلوفتش ؟

– لا ، يا سيدى الرئيس .

– اسمى بيوتر نيكولاييفتش . . . وانا ايضا لا اشتهى النوم . وسئمت من البقاء فى خيمة رئيسك : انهم يلعبون الورق ، ثم انهم سكارى جميعهم . . . ما اجمل الليل !

وتمشى معى صامتا . وبعد ان وصلنا نهاية خط الخيمات واستدرنا الى الوراء ، طرح علىّ هذا السؤال :

– قل ، هل انت متطوع ؟

– نعم .

– ماذا حدا بك ان تتخذ هذا القرار ؟

فاجبت غير راغب فى التصدى للتفاصيل :

– كيف اقول لك ؟ حب الاطلاع على الاخص .

– وكذلك حتما ، الرغبة فى دراسة الشعب فى شخص الجندى ؟



كانت الظلمة تحجب وجهه عنى ولكنى ميزت السخرية فى صوته .

– هل تخطر الدراسة ببال من اقتصرت امنياته على واحدة : الوصول الى الوقفة باسرع وقت والنوم !

– لا ، دع المزاح . . . لماذا رفضت الانتقال الى خيمة الرئيس ؟ اذن ، فانت حريص على اعتبار هؤلاء الفلاحين ؟

– اجل ، احرص عليه حرصى على اعتبار كل اولئك الذين لا املك الحق فى احتقارهم .

– انا لا أسال الا ان اصدق . هذا هو الزى اصلا . الادب ذاته يظهر الفلاح كأنه تحفة الخلق .

– تحفة ، هذه مبالغة يا بيوتر نيكولاييفتش ! وقد يكون ظفر عظيم اذا نحن اعتبرناهم بشرا .

– ارجوك ، لا تقل لى كلمات تراجيدية ! من يحرمهم هذه الصفة ؟ انهم لكذلك يقينا ، ولكن اى بشر ؟ القضية كلها هنا . . . لنتكلم عن امر آخر .

وانتعش الحديث . كان فينتسل متعلما ويعرف اللغات الاجنبية على حد تعبير زايكين . وظهر ان ملاحظة الرئيس عن تذكره الاشعار الالمانية على نصيب من الصحة : تناقشنا فى المؤلفين الفرنسيين وهاجم فينتسل الطبيعيين وصعد الى السنوات الاربعين والثلاثين من القرن ، وانشد «ليلة كانون الاول» لالفريد دى موسه . كان حسن الانشاد ، تفاصح فى القائه ، ولا تصنع ، رائع اللفظ . واوجز قائلا :

– اجل ، هذا جميل . ولكن كل الشعراء الفرنسيين لا يسوون عشرة اسطر من شيلر ، من غوته او من شكسبير .

كان قبل استلام قيادة السرية قيّم مكتبة اللواء . وكان يصرف همته الى تتبع الادب الروسى ايضا . ولما جاء الكلام عليه نقد نقدا خاليا من الشفقة «التيار الفلاحى» على حد قوله . وهذه الملاحظة اعادتنا الى الموضوع السابق . وجعل فينتسل يجادل فى حرارة :

– لما انتسبت الى اللواء فتى يافعا ، لم اكن من هذا الرأى . كنت احاول ان احل المشاكل بالاقوال الطيبة ، بان يكون لى فى الرجال تأثير اخلاقى . ولكنهم اوهنوا منى الجلد فى ظرف سنة . وبرهن الواقع على ان المعطيات التى يعلمنا اياها ما يلقب بالكتب الطيبة ، ما هى الا اوهام حمقاء . وارى الآن ان الوسيلة الوحيدة للافهام انما هى هذه !

واتى بحركة منعتنى الظلمة من فهم معناها .

– ما هى يا بيوتر نيكولاييفتش ؟

فقال قاطعا :

– القبضة ! الى اللقاء ! ان اوان النوم .

واديت التحية العسكرية وعدت الى خيمتى محزونا مشمئزا .

وكان رفاقى ينامون جميعهم . ولكن بعد ان استلقيت بضع دقائق سألنى فيدورف ، جارى ، فى صوت خفيض :



– هل انت نائم يا فلاديمير ميخائيلوفتش ؟

– لا ، بعد .

– كنت مع فينتسل ؟

– نعم .

– ولم يكن سيئا ؟

– بل لطيفا .

– حكاية ! ذلك لانك سيد . واما نحن فيرينا نجوم الظهر .

– أهو سيىء الى هذا الحد ؟

– واى سوء ! وكيف ! وكم ياكل كل اولاد سريته من لكمات ! انه وحش !

وسرعان ما نام فيدورف حتى ان سؤالى اللاحق لم يتلق الا انفاسا هادئة منتظمة . والتففت بمعطفى وشتت النعاس افكارى وغاص بى فى العدم .

## ٣

بعد الامطار جاء القيظ . وكنا قد تركنا الطريق الموحل وسلكنا طريق ياصى – بخارست . المرحلة الاولى – من تيكوتش الى بيرلاد – ستظل محفورة فى ذاكرة اولئك الذين قطعوها . خمس وثلاثون درجة فى الظل ، وثمانية واربعون فرسخا يجب قطعها . ما من هبة ريح ، وغبار دقيق اثارته الاقدام يرنق فوق الطريق . كان يدخل فى الانوف والافواه ويرش الشعور حتى يصبح

ونها لا اسم له . ويختلط بالعرق فيوسخ الوجـــوه
ويحولنا الى زنوج . وكنا نلبس ، لست ادرى لمـــاذا
سترة بدلا من القميص . والشمس تسخن القماش الاسود
وتقلى الرؤوس من خلال العمرات السوداء والارجل تحس
لحصى المحرق تحت النعال . ونختنق . وتكملت المصيبة
يكون الآبار نادرة وتحوى ، بعامة ، على مقدار زهيد من
الماء حتى ان رأس الصف (الفرقة كانت كاملة) يستنفده
كله ، ولا نجد مكانه ، بعد زحام رهيب ، الا بقيـــة
موحلة . ويرهق الظمأ الرجال . فى ذلك اليوم سقط
اكثر من تسعين من فوجنا وحده ومات ثلاثة بضربـــة
الشمس .

وكنت اتحمل هذا العذاب خيرا من رفاقـــى . لان
اللواء فى اكثريته يتالف من اناس قادمين من الشمال
خاصة ، بينما تعودت انا منذ طفولتى ، حر السهوب ؛
ولكن قد يكون لذلك سبب آخر . فقد لاحظت بعامة ان
الجنود المنحدرين من سواد الشعب اشد حساسية قبل
الآلام الجسمانية من الطبقة التى نسميها ممتازة (انا لا
اتكلم الا عن المجندين المتطوعين) . فالادواء الجسدية
عند بسطاء الناس كوارث تثير الحزن وتعذب النفس ،
فى حين ان اولئك الذين يذهبون الى الحرب بمـــلء
اختيارهم ، ولو كانوا اقل صلابة وتعودا للحرمـــان
بسبب تهذيبهم وضعفهم الجسدى النسبى ، يحافظون على
معنويات طيبة ، واذا ارجلهم الدامية والحرارة التى لا
تطاق والتعب المرهق لا يعكر صفوهم النفسى . انا لم اكن



قط هادئا مستسلما مثلى ، وانا ابلو هذه التجـــارب
وامضى تحت الرصاص لكى اقتل اشباهى . وقد يبدو
ذلك مجانبا للمنطق سفاهة ، ولكنه الحقيقة .

ومهما يكن من امر فقد كنت محتفظا بقوام بينما كان
الآخرون يسقطون على الدرب . فى تيكوتش اشتريت
قرعة تتسع لاربعة لترات على الاقل ، ملأتها بالماء عدة
مرات اثناء المرحلة . كنت اشرب النصف واوزع الباقى
على جيرتى . ومهما يتحل الجندى بالشجاعة والصبر ، فان
الحرارة تغلبه ، فتخلج ساقاه فيترنح كأنه سكران ،
ويحتقن وجهه تحت طبقة الوسخ والغبار التى تغمره
وتتشنج يده على البندقية . وتنعشه جرعة من الماء بعض
الشىء ولكنه يقع آخر الامر مغمى عليه فوق التربـــة
القاسية الغبراء . وتصيح اصوات جشاء : «المناوب !»
ويترتب على المناوب ان يسحب المسكين جانبا ويسعفه .
ولكنه يكاد يكون على مثل حاله . والحفر على جانبى الطريق
مزدحمة بالاجساد التى لا حراك بهـــا . . . وفيدورف
وجيتكوف يعانيان العذاب ولكنهما يقاومان . والحـرارة
قد اثرت فى كل منهما اثرا يلائم طبعه ولكـن بالاتجاه
المعاكس : ففيدورف اصبح صموتا ، يطلق تنهـــدات
طويلة ومعنى من الاسى يلوح فى عينيه الجميلتيـــن
اللتين احتقنتا من الغبار بالحمرة . واما العم جيتكوف
فجعل يسب ويهر . وهدر وهو يتحاشى حربة جنـــدى
ينهار على الارض وتكاد تصيب عينه :

— ها هو ذا يترنح . . . ستعورنى يا هو ! يا ربى

ومولاى ! ايتها العذراء المقدسة ! فيم هذا العقاب ؟ لو لا سلاخ الجلود ذاك لكنت سقطت انا ايضا .

فاسأله انا :

– اى سلاخ جلود ؟

– الرئيس فينتل . انه مناوب اليوم ، مكلف بحفظ نظام الصف . الاحسن ان نمشى والا انهال عليكم بضرب . الله مولاه . . .

كنت اعرف ان الجنود يقولون «فينتل» عوضا عن فينتسل . والكلمتان متشابهتان ولكن تلك ايسر على اللفظ .

وخرجت من الصف . على تخوم الطريق كان الغبار والزحام اخف . وكان كثيرون يفعلون فعلى ، لان احدا ، فى ذلك اليوم المشؤوم ، لم يكن يحرص على النظام . وخففت السير رويدا رويدا حتى وجدتنى فى آخر الصف .

ولحقنى فينتسل مهدودا لاهثا ، ولكنه شديد الانفعال .

وسألنى بصوت ابح :

– ما قولك ؟ لنترك الطريق . فانا متعب تماما .

– هل تريد الماء ؟

وشرب من قرعتى منهوما .

– شكرا . احسبنى فى خير . يا له من نهار !

وسرنا فترة صامتين .

– الواقع انك لم تنتقل الى خيمة الرئيس ؟



– لا .

– هذا حمق . اغفر لى صراحتى . الى اللقاء ! على ان اذهب الى آخر الصف . يوجد كثير من المتهافتين الذين يقعون .

وخطوت بضع خطوات ثم التفت فرأيته ينحنى فوق رجل متمدد على الارض . كان يقول ، وهو يهزه من كتفه :

– قم ، يا دون ! قم !

فانكرت محدثى المثقف . كان يقذف سيلا من الشتائم . والجندى شبه مغمى عليه قد فتح عينيه وشرع يحدق فى الضابط بعينين يائستين ، وشفتان تتحركان .

– قم ! قم على الفور ! آ ، لا تريد ؟ هاك خذ !

وقبض فينتسل على السيف بغمده الحديدى وانهال على كتفى المسكين اللتين اوهنتهما الحقيبة والبندقية . ولم اعد اطيق صبرا فدنوت .

– بيوتر نيكولاييفتش !

– قم ! . . – واشرع سيفه ليهوى بضربة اخرى ، فقبضت على ذراعه .

– محبة لله يا بيوتر نيكولاييفتش ! اتركه !

وادار فينتسل نحوى وجها مرعبا وعينين جاحظتين وفما بعثره الغضب . وتخلص بحركة عنيفة وملت الى الظن انه سيجعلنى ادفع غاليا ثمن هذه الصفاقة (كانت صفاقة ان تقبض على ذراع ضابط) ولكنه ضبط نفسه .

– نصيحة طيبة . لا تعدها يا ايفانوف ابدا ! لو فعلتها مع جلف مثل تشوروف او تيموفييف لشواك وقلاك . تذكر انك جندى بسيط وارتكاب افعال من هذا النوع يؤدى بك الى الاعدام بالرصاص !

– مع ذلك كنت عاجزا عن الا اتدخل .

– هذا يشرف لطافتك . ولكنه فى غير محله . هذه هى الوسيلة الوحيدة لمعاملة هؤلاء المخلوقات (كان وجهه يعبر عن شىء اكثر من الاحتقار ، عن الحقد) . وبين عشرات الرجال الذين وقعوا لا يوجد الا بضعة من اضناهم التعب حقا . انا لست قاسيا بطبيعتى ولكن يجب المحافظة على النظام والطاعة . لو كنت استطيع تكليمهم لفعلت . ولكن كلمة لا وزن لها عندهم . انهم لا يفهمون غير الضربات .

ومن غير ان اصغى الى النهاية ركضت نحو سريتى التى سبقتنى كثيرا . وادركت فيدورف وجيتكوف حينما كان الفوج يدخل احد المروج ليستريح فيه .

سألنى فيدورف لما هويت استلقى قربه بعد ان تشابكت الاسلحة :

– عم تحدثت والرئيس فينتسل ؟

فدمدم جيتكوف :

– تحدث ! أمع هذا يكون حديث ؟ انه قبض على ذراعه . ايها السيد ايفانوف ، احذر فينتل . اذا كان يحب الكلام معك فلا يمنعه ذلك فى انزال المصيبة بك .



## ٤

وصلنا فوكشانى فى وقت متأخر من المساء ، فعبرنا البلدة الصغيرة المظلمة الخرساء الغبراء وخرجنا الى البرية . ولم نكن نبصر شيئا فتناثرت الافواج كيفما اتفق وغاص الرجال المهدودون فى النوم واكثرهم احجم عن «الغداء» . ووجبة الجنود تسمى ابدا «الغداء» سواء كانت صباحا او فى صبارة النهار او مساء . وكان المتأخرون يفدون طوال الليل . ولم يكد الفجر يتنفس حتى استأنفنا السير وقد شد من عزائمنا ان امامنا يوم راحة بعد المرحلة المقبلة .

ومن جديد الصفوف السائرة والاكتاف المهترئة من وقر الحقائب والارجل الدامية المحتقنة . ولكننا لم نحس شيئا مذكورا طوال العشرة الفراسخ الاولى . لم تكن استراحة العشية القصيرة قد نفت عنا التعب فكنا نهوّم . وقد وقع لى ان نمت وانا ماش ، حتى لم اصدق عند الوقوف انا قطعنا عشرة فراسخ ولم اذكر موضعا من الطريق الذى قطعنا . لما ارتصت الصفوف وانتظمت قبل التوقف استيقظنا اخيرا وقد اسعدنا ان نظفر بمهلة ساعة كاملة نتحرر فيها من احمالنا ونغلى الماء فى القدور ونمدد على هوانا ونشرب الشاى الساخن . ولم تكد الاسلحة تتشابك والحقائب تهبط ، حتى ذهبنا نجمع الوقود . . . سويقات الذرة المتبقية من العام الماضى دائما . ونضع عصا بندقية بين حربتين مغروستين فى

الارض وتعلق عليها قدرين او ثلاثة . كانت سويقات الذرة الجافة التى نشعلها دائما فى اتجاه الريح تندلع منها نار فاتحة ويلمس اللهيب القدور الدخنة ، ولا تمضى عشر دقائق حتى يغلى الماء غليانا شديدا . فنقذف فيه الشاى وننتظره حتى يغلى . وينتج من ذلك كله شراب قوى يكاد يكون اسود نشربه اجمالا بلا سكر لان قسم المؤونة يغدق علينا الشاى (بل ندخنه اذا اعوزنا التبغ) اغداقا ولكنه يقتر علينا فى السكر فلا يكفى المقادير الكبيرة التى نتجرعها . قدر يسع سبعة اقداح هو قوام الرجل اليومى .

وقد يثير العجب توقفى عند هذه التفاصيل الصغيرة . ولكن حياة الجندى فى الميدان من الشدة والحرمان والآلام وضؤولة الآمال فى حيث يسبب له الشاى او نحوه من الكماليات الزهيدة بهجة شاسعة . ويجب عليك ان ترى السمات المتجهمة الراضية لهؤلاء الجنود الملوحين ، الصلاب ، المتقشفين ، شبانا وشيوخا — الحقيقة انك لا تعثر على من تجاوز الاربعين — الذين يلقون القش فى النار مثل الاطفال ، يؤرثونها ويتبادلون النصائح :

— لوتيكوف ، يجب ان تضع قشة هنا ، على الحافة ! ايوه ، هنا . . . اشتعلت . هذه المرة سيغلى .

الشاى ، نصيب من الفودكا فى النادر لتدفئنا حينما يكون الطقس سيئا ، غليون محشو — هذا كل بهجة



الجندى ، اضف اليه ، بلا شك ، النوم الشافى الذى ينسيه اوجاعه الجسمانية وخوفه من المستقبل المجهول . والتبغ يلعب دورا لا يقل اهمية بين خيرات الحياة هذه اذ انه يثير ويدعم الاعصاب المنهارة . والغليون المحشو جيدا يطوف على حوالى عشرة اشخاص ويعود الى مالكه الذى يسحب آخر سحبة ويفرغ الرماد ويزلقه برزانة فى ساق جزمته . واذكر حزنى يوم ضيع احد الرفاق غليونى . هو ذاته كان محزونا خجلا كأنه ضيع كنزا كاملا .

ودام وقوف الظهيرة الكبير زهاء ساعتين . بعد الشاى نمنا القيلولة . الصمت يهيمن على المعسكر ؛ الديدبان تحت الراية يروح ويجىء وحده ، وضابط يسهر . وتمددت على الارض متخذا من حقيبتى وسادة وهومت ، الشمس تحرق وجهى وعنقى . الذباب الملحاح يقرصنى ويمنعنى من ان انام نوما صحيحا . افكارى تختلط . الماضى الذى يختلف عن الحاضر ، كل الاختلاف ، لا يزال قريبا حتى انى فى بحرانى اخالنى بسبيل الاستيقاظ فى بيتى ، فى غرفتى ولا اعود الى رؤية هذا السهب ، هذه الارض العارية التى نبت فيها العليق عوضا من العشب ، هذه الشمس الرهيبة والريح الجافة ، وآلاف الناس الغرباء فى القمصان البيضاء الغبراء ، وهذه الحزم من الاسلحة . الواقع يبدو كابوسا غريبا . . .

ويدوى قويا صارما صوت آمر فوجنا ، المقـــدم تشيرنوغلازوف القصير الملتحى :

– قم !

فيتحرك حشد القمصان البيضـــــاء ، الرجـــال ينهضون وهم يئنون ويتمطون ويحملون الكنانـــــات والحقائب ، ويصطفون .

– حلوا الاسلحة !

ويأخذ كل بندقيته . اذكر بندقيتى دائما رقـــم ١٨٦٣٥ بعقبها الاكثر قتاما من غيرها وخدشها الممتد على دهانها البنى . امر آخر ، واذا الفوج صف واحـــد يتجه الى الطريق . ويحضرون الى الطليعة «البربـــرى» جواد المقدم ، وهو يقنطر عنقـــــه ويرقص ويضرب بحافره ؛ والمقدم الذى لا يركبه الا فى الاحوال النادرة يسير فى راس الفوج خلف جواده بخطوات موقعـة ، مثلما يفعل جندى المشاة الطيب ، مظهرا للجنـــود ان رئيسهم «يبذل الجهد» هو ايضا ، وهذا ما يجعلـــه شعبيا . كان رابط الجأش ، هادئا ، جامد الاسارير ، لا يبتسم ابدا وينهض صباحا اول من ينهض ويأوى الى السرير آخر من يأوى ؛ ويعامل الناس فى حزم هادئ بلا ضربات او صرخات غير معللة . يقولون ان حضـــوره يكبح جماح فينتسل بعض الشىء .

اليوم انخفضت الحرارة قليلا . ثم اننا الآن فـــى طريق ضيقة قروية تسير والخط الحديدى ، حتى ان اكثر الناس تمشى فى العشب . وما من غبار ، والسماء



غائمة ، وقطرات من المطر تسقط من حين الى آخر . ونحن نرمق السماء ونمد ايدينا حتى نعلم هل تمطر . وانتعش اشد الجنود وصبا ولم نكد نسير عشرة فراسخ حتـى كانت الراحة التى طالما تمنينا ، راحة تمتد طوال الليل والنهار اللاحق والليل اللاحق . ويشتهى الرجال الغناء ، ويرفع فيدورف وسطهم عقيرته بالاغنية المشهورة :

كانت المعركة حامية قرب بولتافا . . .

ثم انه ، بعد ان يغنى الكلمات : «واذا رصاصة شريرة تثقب قبعة القيصر» ، ينتقل الى اغنية اخرى حمقاء بذيئة ، ولكن الجنود يحبونها حبا جما وهى تروى قصة واحدة تسمى ليزا عثرت فى الغابة على فراشة ســـوداء ومصيرها . ثم اعقبت اغنية تاريخية عن بطرس الاول الذى طلبوه الى مجلس الشيوخ . وختم الاغانى ارتجال ارتجله لواؤنا :

ها هو ذا قيصرنا الكسندر قد وصل
هشوا له يا اولاد وانتظموا
قد ادينا التمارين واصبحنا مشكورين
آمر الفوج السيد تشيرنوغلازوف
لم ينم ، يروضنا كما ينبغى
ممتطيا جواده ولم يعترف باحد .

وتستمر الاغنية على هذا النحو خمسين بيتا اجمالا . وقلت ذات يوم لفيدورف :

– فيدورف لماذا تغنى حماقات مثل هذه الليزا ؟ – واستشهد بعدة اغنيات اخرى حمقاء ، من الوقاحة بحيث لم يعد لها معنى .

– مسألة عادة يا فلاديمير ميخائيلوفتش . أهذا غناء ؟ انه نوع من ترويض الرئتين . ثم يشجعك على المشى .

ويتعب المغنون فينطلق البوق بمارش صارخ فرح ينعش اشدنا تعبا . واذا الجميع يمشون على النغم فى نظام حسن ، ويصبح الفوج شيئا آخر تماما . واذكر اننا قطعنا ذات يوم على هذه الحال ستة فراسخ بساعة واحدة من غير ان نحس عناء ، ولكن لما تقطعت انفاس الموسيقيين وكفوا عن العزف اختفى الهياج ، ولو لم تأت الاستراحة فى وقتها المناسب لسقطت فى الطريق .

بعد الوقوف قطعنا خمسة فراسخ فاعترضتنا عقبة. كنا نسلك وادى نهر صغير بين سلسلة جبلية ومرتفع للسكة الحديدية ضيق ولكنه عال . وكانت الامطار القريبة قد غمرت الوادى وكونت على طريقنا مستنقعا لا يقل عرضه عن ستين مترا يشرف عليه الخط الحديدى كأنه الجسر وعلينا ان نصعد فيه . لما بلغ الفوج الاول ضفة المستنقع العالية فى يسر قال لنا حارس الخط ان ننتظر لان قطارا سيمر بعد خمس دقائق . وكنا قد شابكنا الاسلحة لما ظهرت عربة اللواء فى المنعطف .

كان رجلا متين البنيان له صوت من البمّ (باص) لا



تجده حتى فى الاوبرا او فى جوقات الكنائس ، يدوى كأنه البوق وحينما يلقى اوامره من صهوة جواده ، كانت قامته الباسقة العبلة ووجهه المكتنز الاحمر ، يؤطره سالفان ضخمان رماديان تلعب بهما الريح ، وتضيئه عينان صغيرتان كجمر تحت حاجبين كثين اسودين ، كل هذا كان عميق الاثر . ذات مرة خلال التدريب فى ميدان خودينكا بموسكو اثار عناده وسمته العملاق مدنيا شيخا كان بين الحشد فهتف :

– يا للآس ! هؤلاء هم الرجال الذين نحتاج .

ومنذ ذلك الحين لقبناه «الآس» .

وكان يحلم بالامجاد ويحمل معه الى كل مكان كتبا فى التاريخ العسكرى . وفى سياق احاديثه مع الضباط كان يحب ان ينتقد حملات نابوليون . وبديهى انى كنت اسمع هذا قالا عن قيل لانى لم اكن اراه الا نادرا ، وهو عادة يسبقنا فى منتصف المرحلة بعربته التى تجرها ثلاثة جياد حسنة ، ويصل الى المكان المعد لوقفة الليل ويظل فيه حتى ساعة متأخرة من الصباح ويدركنا من جديد بعد الظهر . وكان الجنود فى كل مرة يظهر لهم ، يسجلون تغيرا فى احمرار وجهه ودرجة الجهامة فى صوته الثاقب حينما يصيح بنا :

– مرحبا ايها الاولاد من اللواء ستاروبلسكى !

– مرحبا يا صاحب السعادة ! – هكذا كان يجيب الجنود ويضيفون عند ذلك فى صوت منخفض :

– الآس سيبل حلقه بعد الخمار .

ويتابع اللواء طريقه دونما حادث أو بعد ان ينهال على احد امراء السرايا بتقريع فظيع .

لما رأى الفوج متوقفا قفز الى الارض بالسرعة التى تتيحها له جسامته فهرع اليه مقدمنا مسرعا .

– ماذا هنالك ؟ لماذا هذا التوقف ؟ من سمح لكم به ؟

– يا صاحب السعادة ، الطريق مغمور بالميـــاه والقطار على وشك ان يمر .

– الطريق مغمور ؟ قطار ؟ هراء ! انتم تدللون الجنود ، انتم تجعلون منهم نسوانا ! ممنوع الوقوف بلا امر منى ! ساوقفكم يا سيدى العزيز . . .

– يا صاحب السعادة . . .

– لا تناقش !

وطوف اللواء فيما حوله عينين مخيفتين وانقض على ضحية اخرى .

– ايه ؟ علام آمر السرية الثانية ليس فى محله ؟ الرئيس فينتسل الىّ !

ودنا فينتسل فنزل عليه غضب اللواء . حاول ان يرد برفع صوته ولكن صوت اللواء طغى عليه وكل ما حزرته ان فينتسل لم يفه حقه من الاحترام . واذا صوت اللواء يرعد :

– انت تحاكم ؟ طائش ! اسكت ! انزعوا سيفه . موقوف ، ستكون عبرة . . . تخافون من رأمة ماء ! اتبعونى ايها الاولاد ! على طريق سوفورف !



ومر بالفوج متجها نحو الماء بخطى خرقاء ، خطى رجل ظل فى العربة طويلا . وردد وهو يغوص فى المستنقع بجزمته الملمعة.

– اتبعونى ايها الاولاد ! على طريقة سوفوروف !

والتفت الآمر حاقدا ولحق به وتحرك الفوج . فى البداية كان الماء حتى الركب ثم بلغ الزنار بل تجاوزه . وكان اللواء بقامته الباسقة يسير فى سهولة ويسر فى حين ان المقدم القصير يستعين بيديه . ويتزاحم الجنود مثل قطيع من الخراف اثناء عبور النهر ويغرزون فـــى القاع الموحل ويجاهدون لانتشال ارجلهم من الطيـــن ويرتمون الى هذا الجانب او ذاك . واما امراء السرايـــا والمرافق الذين يركبون الخيل ويقدرون على العبور بلا عناء فقد نزلوا عن جيادهم واخذوا مطاياهم من اعنتها وغاصوا على غرار اللواء فى الماء الذى عكرته مئـــات الارجل . وعبرت سريتنا المؤلفة خاصة من رجال طوال القامة من غير كبير جهد ولكن رجال السرية الثامنة وكلهم قصار فقد كانوا يترنحون ويغرزون ويغوصون حتى الذقون وبعضهم يتجرع جرعات ويتشبث بنا . وتعلق غجرى شاحب الوجه ، اسود العينين اوسعهما ، بعنق العم جيتكوف راميا بندقيته التى التقطها احدنا وهـــى طائرة وانقذ ملك الدولة من الغـــرق لحسن الحظ . وقطعنا حوالى عشرين مترا فنقص العمق واوفض الجميع الخطى وهم يشتمون ويتداحمون . وكان كثير من جماعتنا يمزحون واما جنود السرية الثامنة فكانوا زرقا من البرد

الهلع منصرفين عن الضحك . وكان القناصة يسوقون
جنود من الوراء صائحين :
– يا الله ، يا اولاد ! اركضـــوا ! هانتم اولاء
رقى !
ويجيب اولاد السرية الثامنة :
– من كل بد يمكن ان نغرق . يستطيع هـــو ان
عاند . انه لم يكد يبلل سالفيه . هو بطل ! وامـــا
حن فهذا ليس شأنه .
– ما كان عليك الا ان تقعد فى قدرى احملك
افا .
واجاب جندى قصير هادئ من غير ان تزعجـــه
لمزحة :
– طيب ، اى قلها من قبل .
واما خالط هذا الحابل بالنابل الذى انتزع قدميه
نذاك من القاع اللزج من المستنقع فقد لبث على الضفة
تأمل الاضراب فى المطينة بجلال . كان قد ابتل حتى
لعظام وغمس سالفيه حقا . كانت ثيابه تسيل وساقـا
جزمته منتفختين قد ملأهما الماء ولكنه لا يفتأ يصيح :
– الى الامام ايها الاولاد ! على طريقة سوفوروف !
وتحلق الضباط المبتلون حوله قاتمى السحنات .
كان فينتسل هناك مختلط الوجه لم يكن سيفه معه .
فى هذه الاثناء كان حوذى اللواء بعد ان ذرع الضفـــة
ذهابا وجيئة وسبر عمق الماء بسوطه تسلق مقعده ومضى
بعد منا لان الماء لم يكن يصل الا الى المحاور .



وقال المقدم فى هدوء :
– من هنا كان يجب العبور يا صاحب السعادة . هل
تسمحون بان يتنشف الرجال ؟
فاجاب اللواء مصالحا :
– من كل بد ، من كل بد يا سيرغى نيكولاييفتش .
كان الماء قد برد من حدته . وصعد عربته وجلس
ثم نهض وهدر بصوته القوى الرنان :
– شكرا ايها الاولاد ! انتم شجعان !
فاجابت جوقة الجنود المبعثرة :
– تحت امركم يا صاحب السعادة !
ومضى اللواء المبتل لطيته .
وكانت الشمس لا تزال عالية ، وليس امامنـــا الا
خمسة فراسخ نقطعها . وامر المقدم بوقفة طويلـــة ،
فتعرينا واشعلنا نارا نجفف عليها ملابسنا وجزمنـــا
وحقائبنا ؛ وبعد ساعتين كنا على الطريق من جديد نتذكر
الحمام ضاحكين .
– وقف الآس الرئيس فينتسل – قالها فيدورف
وهو يمر بالقناصة فاجابه قناص :
– وماذا يهمك انت ؟
– لست انا ، ولكنها السرية كلها هبط عليها البرد
والسلام . نستريح منه يومين . كم نذوق منه !
– من طلب العلى سهر الليالى .
– تسهر ، بالقوة ولكن اذا وصلنا الى العلى فلـــن

يكون ذلك الا فى الآخرة – هكذا هر جيتكوف بلهجة اسوانة – حينما يردينا الاتراك .

فيقول فيدورف :

– يجب الا تيأس يا عم . هاك لقد جففنا ونستشعر الدفء بينما لا يزال الآس منقوعا .

وشمل الضحك الجميع .

٥

وكنا نسير والخط الحديدى دائما وتسبقنا قطارات محملة بالجنود ، بالخيل ، بالمؤن دونما انقطاع . وكان الجنود يلاحقون بأعين الغيرة عربات البضائع التى تطل رؤوس الخيل من ابوابها المفتوحة .

– يا لحظ الخيل ، ونحن نخب .

ويرد فاسيلى كاربوفتش محاكما :

– الخيل بهائم . انها ستنحل واما انت فانسان وعليك الصمود .

ذات يوم اثناء وقفة ، اقل قوزاقى يحمل لذوى الرتب خبرا مهما . ونؤمر بالوقوف ونصطف بالقمصان البيضاء من دون حقائب او بنادق ولا احد يدرى لذلك سببا . واستعرضنا الضباط . كان فينتسل يعيط على عادته ويشد الزنانير السيئة الوضع ويأمر بلكمات ان تصلح القمصان . ثم ساقونا نحو الخط الحديدى حيث



اصطف اللواء ، بعد مناورات مديدة ، على طول الخط صفين انتشر خطاهما الابيضان على فرسخ .

فصاح المقدم :

– يا اولادى ، سيمر صاحب الجلالة القيصر !

وانتظرنا العاهل . وقد سبق لفرقتنا ان عسكرت فى الريف بعيدا من موسكو وبطرسبورغ فلم يتيسر الا لاقل من عشرها ان يرى القيصر . ولذلك كان الجميع ينتظرونه ذاهبى الصبر . وانقضى نصف ساعة وما من قطار . فسمح للرجال بالجلوس وانطلقت الالسن .

سأل احدنا :

– اتراه يتوقف ؟

– هى ! انت تريد ان يتوقف لاجل كل لواء ؟ سنكون سعداء اذا نظر الينا من النافذة .

– اذن ، يا اولاد ، لن نعرف اى الواقفين هو القيصر : هناك كومة جنرالات يرافقونه .

– واما انا فاتعرف اليه . رأيته من سنتين فى ميدان خودينكا كما اراك الآن . – ومد الجندى يده مشيرا الى المسافة التى رأى العاهل منها .

واخيرا وبعد ساعتى انتظار ظهر دخان فى الافق فنهض اللواء واقفا واصطف . كان قطار للخدم والمطبخ يقبل فى المقدمة والطهاة ومعاونوهم بالطاقيات البيضاء ينظرون الينا ضاحكين من نوافذ العربات . واما القطار الامبراطورى فكان يتبعه على بعد اربعمئة متر تقريبا . ولما رأى الوقاد الجنود صفوفا خفف من السرعة

ومرت العربات مقرقعة فى بطء امام الرجال الذيـــن كانوا ينهبونها باعينهم . ولكن النوافذ كلها كانت مبرقعة بالستائر ؛ فلم نر الا قوزاقيا وضابطا واقفين على ارضية العربة الاخيرة . ونظرنا الى القطار الذى يمعن فى السرعة ولم تمض هنيهة حتى كنا نسير الى المخيم . وخاب رجاء الجنود فاخذوا يعبرون عن اسفهم :

— لن نراه !

ولكننا رأيناه قريبا . على تخوم بلويشتى قيل لنا ان القيصر سيستعرضنا فى تلك المدينة .

ومررنا امامه فى ثياب الميدان : قمصان وبنطلونات قذرة ، جزمات صفراء غبراء ، حقائب منتفخة ، جعبة من الخبز الجاف وقنانى مربوطة بالخيوط . كان الجنود خالين من الاناقة والجلادة والبطولة ، يشبهون بسطاء الفلاحين : البندقية والكنانة وحدهما يشهدان بانهم فى سبيلهم الى الحرب . وقد صفونا اربعة اربعة لان ضيق الشارع لم يسمح بترتيب اوسع . وكنت اسير مجانبا مجتهـــدا فى المحافظة على الخطوة والصف وافكر ان القيصر اذا وجد فى هذه الناحية مررت قريبا منه . وكان يكفينى ان انظر الى وجه جيتكوف ، زاهدا ابدا ولكنه منفعل حتى احس الهيجان العـــام يستولى علىّ ويسرع خفق قلبى . وخيل الىّ ان كل شىء متعلق بالشكـــل الذى سينظر القيصر الينا فيه . فيما بعد ، لما ذهبت فى المعركة لاول مرة استشعرت احساسا مماثلا .

وتصبح خطوتنا اسرع ، اثبت ، اشد طلاقة . ولم



يكن علىّ ان اتلاءم مع الوتيرة العامة : لقد اختفى تعبى وغدوت كأنى محمول على اجنحة الى المكان الذى ترتفع منه موسيقى الابواق وتنطلق «هورا» ثاقبة . ولا اذكر الشوارع التى سلكنا ، ولا اذكر ايضا هل كان ثمة خلق ينظرون الينا . ولا يعود الى ذاكرتى الا الهياج ووجدانى القوة التى تضطرم فى الحشد الذى كنت انا جزءا منه والذى يجرفنى الى الامام . كنت تحس ان هذا السيل سيغلب ، يسحق ، يحطم كل ما يقف فى وجهه . وكـل كان يفكر ان من ينظر الى هذا السيل يستطيع بكلمة ، باشارة من يده ان يغير وجهته ، ان يجعله ، ينكص على عقبيه او ان يقذف به فى عقبات رهيبة ؛ كان كل يود ان يكشف فى كلمة السيد القادر ، فى حركته عن السلطة الخفية التى تقودنا الى الموت . وكل يفكر : «انت تقودنا ، حياتنا ملك لك . اطمئن ، نحن عـــلى استعداد للموت» .

وكان يعلم اننا على استعداد للموت ويرى صفوف رجال بلده البائس ، رهيبة وعازمة فى سعيها ، هـــم الجنود الصلاب بالاسمال . كان يعرف انهم يذهبـــون للموت وقلوبهم صافية ، خالية من المسؤولية . وكان جواده الرمادى يقف جامدا مشرعا اذنيه للموسيقـــى والهتاف ، وحاشية لامعة تحيط بالقيصر . ولكنى لـم اميز فى هذا الفصيل الفخم من الفرسان الا صاحب الجواد الرمادى فى بدلته البسيطة وعمرته البيضاء . واذكـر وجهه الشاحب يرهقه وجدان المسؤولية الثقيلـــة ،

وعبرات متلألئة تسقط على قماش البدلة القاتم ويده متقبضة على الزمام ، وشفتاه المرتعشتان تغمغم بكلمات لا ريب فى انها موجهة الى هذه الحيوات الفتية التى يرثى لنهايتها الوشيكة . كل هذا انجبس وغام مثل لمع البرق حينما مررت لاهثا لا من الركض بل من الحماسة التى لا حدود لها من امامه وبندقيتى مرفوعة الى الاعلى ، وطاقيتى تلوح ، و«هورا» تنقذف من اعماق صدرى ولكنها تغيب فى الهدير العريض الشامل .

كانت الرؤية آنية . شوارع غبراء حرقتها الشمس ، جنود نهشهم الظمأ واوهن من قواهم الهياج والعدو الطويل ، اصوات الضباط يأمرون بالنظام والخطو الموقع – هذا كل ما رأيت وسمعت بعد خمس دقائق . ولما قطعنا فرسخين آخرين فى المدينة الخانقة وبلغنا مرج المخيم تركتنى اسقط منهوك الجسد والروح .

## ٦

مراحل صعبة ، غبار ، حرارة ، تعب ، اقدام دامية ، وقفات قصيرة نهارا ، نوم كالرصاص ليلا ، صوت بوق مقيت مع الفجر . وحقول ، حقول على مدى النظر ، لا تشبه حقولنا ، تغطيها الذرة الخضراء اوراقها الطويلة تهف مثل الحرير او قمح خصب اصفر فى بعض الاماكن .

والوجوه ذاتها ابدا ، وحياة البرية ذاتها ، وتذكر المنزل واحاديث عن المعسكر ومدن الريف واقاويل عن الضباط .



ولم نعد نتحدث عن المستقبل الا نادرا ودون شغف . وكان سبب الحرب معروفا على نحو غامض على الرغم من اننا ظللنا ستة اشهر غير بعيد من كيشينيف على اهبة التحرك . طوال هذه الفترة كانوا يستطيعون ان يشرحوا للرجال فيم ذهابهم الى القتال ، ولكن يظهر ان هذا التدبير قد بدا زائدا .

وسألنى ذات يوم جندى قائلا :

– قل لى يا فلاديمير ميخائيلوفتش هل نصل عن قريب الى بخارى ؟

خيل الىّ بادىء الامر انى اسأت السماع ولكن ، لما كرر السؤال ، اجبت ان بخارى تقع وراء بحرين على بعد اربعة آلاف فرسخ ، وان الاحتمال ضئيل فى ان نذهب اليها عمرنا .

– لا ، انت على خطأ يا ميخائيلوفتش . السكرتير قال لى هكذا ، ان بعد الدانوب تأتى بلاد بخارى .

فصحت :

– بلغاريا ، يا هو !

– بورغاريا ، بوخارى شىء واحد على اى حال !

وصمت منزعجا .

كنا نعلم ان علينا قتال الترك لانهم اراقوا كثيرا من الدماء . ولعل حقدنا عليهم من اجل هذا الدم الذى نجهل مصدره اقل من الازعاج الذى سببوه لنا وهذا المسير المنهك («قطعنا آلاف الفراسخ حتى الآن بسبب هؤلاء الاوباش») واضطرار الاحتياط الى هجر منازلهم

كى يعرضوا انفسهم للرصاص والقنابل . كان الاتراك
ى نظرنا عصاة ، ومستفزين يجب تأديبهم .
وكانت شؤون اللواء والفوج والسرية تشغل بالنا
كثر من الحرب بما لا يقاس . ففى سريتنا نحن ، كان
كل شىء على ما يرام ، واما عند القناصة فمن سيئ الى
سوأ . كان عقاب فينتسل يزداد قسوة ، وغضب اصم
يتأجج فى الصدور لم يلبث ان تحول مع الايام الى حقد
وحشى بعد حادثة لا تزال ذكراها تزعزعنى حتى الآن .
كنا قد مررنا منذ قليل بمدينة وسلكنا ارضا
معشوشبة ، كان اللواء الاول قد حل فيها آنذاك . كان
الموضع جميلا : النهر من ناحية ، ومن ناحية اخرى
غابة قديمة ونظيفة من السنديان لا ريب انها متنزه
لسكان المدينة . والشمس تدنو من المغيب والطقس
فيه سجو وعذوبة . وتوقف لواؤنا وشابكنا الاسلحة .
وبدأنا ، جيتكوف وانا ، ننصب الخيمة . ضربنا العمد
وامسكت انا بحاشية من القماش بينما كان رفيقى يدق
وتدا بهراوة .
– شد اقوى يا ميخائيلوفتش (منذ بضعة ايام
وهو يناديني بصيغة المفرد) وهو كذلك .
هنا بلغتنا ضجة غريبة منتظمة فالتفت .
كان القناصة قد اصطفوا وفينتسل يضرب على وجه
احد الجنود ويطلق صيحات جشاء . وكان الرجل يرتعش
شاحبا ، البندقية عند قدميه ، من غير ان يجرؤ على
تحاشى الضربات . وكان فينتسل الذى قوس الجهد



قامته النحيلة القصيرة ، يضرب البائس على وجهه
بقبضة يده اليمنى تارة واليسرى تارة اخرى . والصمت
يخيم فيما حولهما فلا تسمع الا الضربات وهرير
الضابط المسعور . وثارت ثائرتى فقمت بحركة .
فحزر جيتكوف نيتى وسحب بكل قواه قماش الخيمة .
وصاح بى وهو يسب مثل حوذى :
– امسك جيدا ايها اللكع ! هل غدوت اصم ، او
ماذا ؟ اين عيناك ؟
كانت الضربات تتوالى والدم يسيل من شفة الجندى
العليا وذقنه . اخيرا سقط . والتفت فينتسل نحو
السرية هادرا :
– اذا جرؤ آخر على التدخين بين الصفوف اضربه
ضربا اشد ، الزبالة . ارفعوه ، اغسلوا له بوزه
وارقدوه تحت الخيمة . شابكوا الاسلحة !
كانت يداه ترتعشان متورمتين حمراوين داميتين .
فمسحهما بمنديله وابتعد عن رجاله الذين كانوا
يشابكون الاسلحة فى صمت صارم . وهرع عدة جنود
نحو الضحية وهم يتحادثون بصوت خفيض وحملوها .
وكان فينتسل ذا مشية منهوكة عصبية وعيناه تلمعان
فى وجهه الشاحب وبينما يحرك عضلاته يصر على
اسنانه . لما مر بنا التقت نظرته بنظرتى الثابتة
فطافت بشفتيه الرقيقتين ابتسامة ساخرة وهمهم بشىء
ما ومضى فى سبيله .
– الوحش !

قالها جيتكوف حقودا واضاف :

– وانت يا سيدى ، ألست مجنونا ؟ . . اذن فانت تريد ان ترمى بالرصاص . لا تقلق ، سنسوى حسابه ذات يوم .

فتساءلت :

– تشكوه ؟ ولكن لمن ؟

– ليست هذه هى المسألة . ولكن حينما نصير فى ساحة المعركة . . .

ودمدم بشىء . كنت اخشى ان افهم . وعاد الينا فيدورف الذى ذهب الى القناصة مستعلما . قال :

– انه يعذب الناس للاشىء . كان هذا الجندى ويسمى ماتيوشكين يدخن سيكارة اثناء السير . فلما كان الوقوف وضع السلاح عند قدميه وظل العقب بين اصابعه ، ويظهر انه نسيه ، المسكين ، فضبطه فينتسل .

وأضاف محزونا وهو يتمدد تحت الخيمة :

– المتوحش ! ولا سيما ان العقب كان منطفئا . الدليل على انه نسيه تماما .

بعد بضعة ايام بلغنا الكسندريا حيث كان هناك تمركز كبير للجيوش . رأينا فى المدى البعيد ، ونحن نهبط اكمة عالية ، واديا واسعا تملوءه الخيام البيضاء والقامات الانسانية السوداء والمرابط الطويلة للجياد ،



وهنا وهناك صفوفا من المدافع النحاسية والصناديق المدهونة بالاخضر . وكان الجنود والضباط يتدفقون فى الشوارع .

ومن النوافذ المفتوحة فى الفنادق الضيقة الوسخة تنطلق سيول من الموسيقى المجرية الشاكية او السريعة وقرقعة صحون واصوات صاخبة . وكانت الدكاكين تغص بالزبائن الروس ، وجنودنا يناقشون بصوت عال جدا الرومان والالمان واليهود الذين لا يفهمون لغتهم فتنشب مشاحنات بسبب سعر الروبل – الورق فى كل خطوة تخطوها .

– ماذا تريد ان اصنع «دوا غولوغان» * ايها الغبى ؟ اريد كوبيكاتى العشرة ! قل يا «دومنول» **

– «اوندى اشتى بوشتا ؟» ***

هكذا يسأل ضابط وفى يده «دليل ترجمان عسكرى» احد المتأنقين الرومان فى تهذيب مشدد ويده على حافة عمرته .

فيجيب الرومانى . فيقلب الضابط كتابه ويبحث عن الكلمات المجهولة ويشكر مهذبا من غير ان يفهم شيئا .

– اخ يا اخوان ! اى شعب هذا ! الرهبان والكنائس مثلما هى عندنا ولكنهم لا يفهمون كلمة من

* قطعتا عملة .

** ايها السيد .

*** اين مكتب البريد ؟

كلمة ! روبل فضى هل يناسبك ؟ – هكذا يصيح جندى يمسك بيديه قميصا بياع رومانى فى دكان مكشوف .
– اربعة فرنكات ؟ باترو فرانكو ؟
ويعرض عليه العملة وتتم الصفقة .
– تنحوا ايها الاولاد ! الجنرال يمضى !
ويمر الجنرال طوالا ، فتى ، صارخ الاناقة وفى قدميه جزمة عالية ، وسوط متدل من كتفه ، مسرعا ؛ ووصيفه يتبعه على بضع خطوات وهو آسيوى قصير بثوب محبر وعمامة يحمل سيفا كبيرا ومسدسا فى زناره . ويتأمل الجنرال مرفوع الرأس ، متهلل الوجه الجنود الذين افسحوا له الطريق محيين ثم يدخل الفندق . ولذت انا بزاوية من زوايا القاعة مع الرئيس زايكين وستيبيلكوف ورحت اتذوق لونا وطنيا من الطعام مؤلفا من اللحم والفليفلة . وكان المكان غاصا تزحمه الموائد والناس الذين يتغدون . وكانت قرقعة الصحون وفرقعة السدادات والاصوات السكرى والصاخية تطغى عليها الاوركسترا القابعة فى نوع من السدة ذات سجف حمراء . وثمة خمسة موسيقيين . وكمنجتان مجنونتان يدعمهما فيولنسل وكونترو باس ذو خوار لا تصنع الا ان ترافق الخامسة وهى آلة غريبة يعزف عليها مجرى ذو شعر فاحم ، يكاد يكون غلاما . انها مزمار يشبه تماما مزامير اله الرعاة وآلهة الحقول ، وهو عبارة عن صف انابيب خشبية ملصوقة نهاياتها المفتوحة على مستوى الفم والطرف الآخر يغوص



فى قبة السترة المخملية الواسعة . وكان المجرى ينوس برأسه وتصدر عن الآلة نغمات حية شجية لا تشبه المزمار المعروف او البوق . كان الموسيقى يهز رأسه ويديره ويصدر اصعب الانغام واعقدها ويتطاير شعره الكث المدهّن ويسقط على جبينه ، ووجهه ندى محتقن اوردة عنقه منتفخة . ولم يكن ما يقوم به عملا هينا . . . وبين اصوات الآلات الوترية كان وقع هذه النغمات ذات الجمال الوحشى .
واتخذ الجنرال مكانه احدى موائد الضباط . وحيا الحاضرين الذين نهضوا لمقدمه وقال بصوت قوى : «اجلسوا ايها السادة» . وفرغنا من غدائنا صامتين . وطلب زايكين خمرا احمر وبعد القنينة الثانية سألنى وقد انفتح وجهه واندفع الدم الى خديه وانفه :
– قل لى ايها الفتى . . . هل تذكر المرحلة الطويلة ؟
– نعم يا ايفان بلاتونوفتش .
– وهل تكلمت آنئذ مع فينتسل ؟
– نعم .
وتابع الرئيس متجهما :
– وقبضت على ذراعه ؟
فلما اجبت ايجابا صعد زفرة عميقة صاخبة وهو يرف برموشه :
– هذا خطأ . . . حماقة ! انا لا اريد تقريعك .

د احسنت التصرف . . . يعنى انك خرقت النظام . . .
لكنى اهرف . . . سامحنى . . .
وصمت لاهثا وعيناه الى الارض . ولزمت الصمت
نا ايضا . وافرغ الرئيس قدحه حتى نصفه وربت
لى ركبتى .
– عدنى الا تكررها . رح ، انا افهم . . . هذا
ظيع على الجدد . ولكنك لا تستطيع ان تصنع شيئا .
هذا الفينتسل مسعور ! شف . . .
وقطع حديثه ولاذ بصمت مديد ثم اخذ قدحه .
– هل تعرف ؟ انه ليس سيئا فى الصميم . هو
صاب بنوع من الجنون . لقد رأيت بعينيك ، ذات
وم ، رقعت جنديا انا ايضا . ليس ثمة وسيلة اخرى
تفهم بها هؤلاء البهائم . . . ولكنى انا يا فلاديمير
ميخائيلوفتش ، ابوى . والله ، انا لا اضرب بقسوة
ابدا ، حتى فى حال غضبى . واما عنده فالضرب
شريعة . اسمع يا بنى ! (الصيحة موجهة لنادل رومانى)
«اوشتى فين نيغرو !» ، قنينة اخرى من الخمر !
سينتهى الامر به الى المحكمة او ، اسوأ من هذا :
رجاله يقتصون لانفسهم عند اول معركة . . ويكون فى
ذلك خسارة لانه انسان طيب مع ذلك ، أؤكد لك .
عنده قلب .
فاحتج ستيبيلكوف :
– اى ، رح ! لو كان عنده قلب لما ضرب بمثل
هذه الصورة .



– لو انك رأيته منذ قليل ، رجل القلب الذى
تتكلم عنه .
ورويت لزايكين حادثة السيكارة .
– نعم هكذا . . . هذا دائما هكذا .
واحمر الرئيس وتلعثم وتقطع كلامه :
– ليس مع ذلك متوحشا . رجاله احسن تغذية
من الآخرين ويعرفون امورهم جيدا . وهو لا يسوق
الى المحكمة الا الاوباش الميؤوس منهم . الحقيقة ،
ان رجاله لو لا هذا الداء يعبدونه .
– وهل كلمته فى ذلك يا ايفان بلاتونوفتش ؟
– نعم ، وغالبا ما تشاجرت معه . ما فى اليد
حيلة ! انه يندفع عليك بجمل حمقاء : «انهم قطعات
نظامية وليسوا متطوعة» . ويقول : «الحرب مجرمة
وقسوتى مع الجنود ليست الا نقطة فى اقيانوس . . .
انهم متأخرون . . .» والخلاصة ، يقول اشياء
مستحيلة . هذا لا يمنع من كونه رجلا ممتازا .
لا يشرب ، لا يحب الورق ، صاحب وجدان ، يرسل
الدراهم الى ابيه العجوز واخته ، وعنده حس
الرفاقة . . . وفضلا عن ذلك متعلم تماما . ليس فى
اللواء مثله ! ولكنى اراهن على انه سينتهى فى المحكمة
الا اذا اخذوا هم (واشار الى ناحية الشارع) بثأرهم .
شىء محزن . اجل ايها الجندى العزيز .
وربت على كتفى بلطف . ثم اخرج علبة تبغه ولف
سيكارة ضخمة وادخلها فى ممسك طويل من العنبر

والفضة حفر عليه «قفقاز» وغرسه فى فمه وبسط الى يده بالعلبة من غير ان يقول شيئا . ولما انشأنا ندخن ، نحن الثلاثة ، استأنف الرئيس :

– احيانا نضطر الى الضرب قليلا ، هذا صحيح . لانهم آخر الامر مثل الاولاد . هل تعرف بالونوف ؟

وانفجر ستيبيلكوف ضاحكا .

وهر زايكين :

– كفى يا ستيبيلكوف ! انه ملعون ، جندى قديم ، قضى عمره فى العقاب ، ووراءه حوالى عشرين سنة خدمة ويضيفون عليها دائما بسبب الحماقات التى يرتكبها . انت لا تعرف ماذا فعل هذا الوقاح . . . كان هذا قبل مجيئك . اثناء خروجنا من قرية فى ضواحى كيشينيوف تلقينا امرا بفحص جزمات التبديل . فصففت جماعتى وجعلت اتفقدهم من الخلف لأتأكد من ان سوق الجزمات تخرج رؤوسها من الحقائب . بالونوف لا يملك جزمة . «اين جزمتك ؟» – «وضعتها فى الداخل حتى تحفظ جيدا ، يا صاحب النبالة !» – «انت كذاب» ! – «لا ، ايها النبالة ! انها فى الحقيبة فى حمى من المطر» كان الشيطان يجيبنى من غير ان تختلج فى وجهه شعرة . «انزع حقيبتك وفكها !» وعوضا عن ان يلبى الامر سحب جزءا من ساق الجزمة من تحت الغطاء . «فك !» – «انا استطيع ان اخرجها هكذا فى سهولة يا صاحب النبالة !» واجبرته مع ذلك على فتح الحقيبة . ماذا تظن ؟ شد خنوصا حيا من اذنيه واخرجه من



الحقيبة . لقد ربط له خيشومه حتى لا يصيح . كان يقف امامى ويده اليمنى الى حافة عمرته وفمه منطبق فى احترام وحيوانه الصغير فى يده اليسرى . كان قد سرقه من مولدافية . حينئذ ضربته قليلا .

وكان ستيبيلكوف يضحك دائما وقال فى عسر شديد :

– وضربه بالخنوص يا ايفانوف . ها – ها – ها . . . اخذ خنوصا وضربه به .

– اليس من سبيل آخر يا ايفان بلاتونوفتش ؟

– ماذا تقول ؟ وانت لا تريدنى على ان اسوقه الى المحكمة ؟

## ٧

فى ليلة الرابع عشر الخامس عشر من حزيران ايقظنى فيدورف قائلا :

– ميخائلوفتش ، هل تسمع ؟

– ماذا ؟

– قصف المدفعية . نحن نجتاز الدانوب .

واصخت السمع . كانت الريح الشديدة تطارد سحبا واطئة سوداء تحجب القمر ، وهبات عنيفة تهاجم الخيمة وتصفق القماش وتزأر فى الاطنات وتصفر فى البعيد بين الاسلحة المتشابكة . كنت تسمع من خلال هذه الضوضاء دويا اصم .

وهمس فيدورف متنهدا :

– كم يسقط من الاولاد فى هذه الساعة . . . هل يرسلوننا نحن ؟ ما قولك ؟ يا للرعد ! كانهـــا الصاعقة !

– قد تكون عاصفة ؟

– لا ، الدوى منتظم جدا . هل تسمع ؟ بوم ، بوم ، بوم . . .

الواقع ان الدوى كانت تقطعه فترات منتظمـــة . وخرجت من الخيمة ونظرت فى اتجاه الرمى . لم اكن ارى بريقا . ويخيل الى عينى الثابتتين احيانا انهمـا تلمحان ضوءا ولكن ذلك كان وهما .

وقلت فى نفسى : «هذه المرة ابتدأوا» .

واجتهدت فى تصور ما يجرى هناك ، فى الظلمة : على نهر عريض اسود قائم الضفاف يختلف كل الاختلاف عن الدانوب الحقيقى الذى رأيته فيما بعد . مئـــات المراكب تتخذ الدريئات لهذا الرمى الكثيف . كم يبقى منهم ؟ واخذتنى رعشة وسألتنى على الرغم منى : «هل تريد ان تكون بينهم ؟» .

ونظرت الى المعسكر النائم . كان كل شىء هادئا . وبين رعد المدفعية القصى وضوضاء الريح كنت تسمع غطيط الرجال الهادىء . واذا رغبة مفاجئة حادة تعصف بى ان يكون كل **هذا** غير موجود ، ان يمتد المسير ايضا الا يصير هؤلاء الناس الذين ينامون هنـــا فى الجهة الاخرى حيث تهدر المدافع .



فى بعض الاحيان كان القصف يزداد كثافة وفى احيان اخرى تجيئنى فرقعة صماء . واقول فى نفسى : «اطلاق بنادق» من غير ان اعلم ان الدانوب على بعد عشرين فرسخا وان مرد هذه الاصوات الغامضة الى ضـــلال حواسى الهائجة . ولكن هذه الاصوات الغامضة ترغـم حواسى على تصوير مشاهد مرعبة ، صرخات ، انين صادر عن آلاف الرجال الذين حصدهم منجل الموت ، «هورا» مجنونة ، الهجوم بالحراب ، التلاحم . وماذا لو فشـل الهجوم وظهر ان هذه التضحيات لا جدوى منها ؟

وضربت فى الشرق المظلم خيوط رمادية . ووهنت الريح ، وتبددت الغيوم فبدت النجوم الاخيرة تحتضر فى السماء الشاحبة المخضرة . كان الفجر يتنفس ورجال فى المعسكر قد افاقوا وسمعوا اصداء المعركة فاخذوا يهزون رفاقهم . كانوا يقلون من الكلام ولا يرجونه الا همسا . لقد دنا المجهول منا : لا احد يعلم ماذا يكون غدا او يود الكلام او التفكير فيه .

وعاودت النوم مع الفجر وافقت متاخرا . المدافع تهدر دائما بصوت اصم ، ومع كوننا بلا اخبار من الدانوب فقد كانت تركض الاقاويل الغريبة بين الجنود . بعضهم يزعم ان جماعتنا اجتازوا النهر ويطاردون الاتراك وبعض يشهد بان العملية قد فشلت وابيدت الوية عن بكرة ابيها .

وقال احدهم :

– غرقا او ذبحا .

فقال فاسيليى كاربوفتش قاطعا :

– هراء !
– لا ، انها الحقيقة .
– الحقيقة ؟ من اخبرك بها ؟
– ماذا ؟
– ولك الحقيقة ؟ من اين حصلت عليها ؟ نحن لا نعلم الا شيئا واحدا : ان هنالك رميا .
– كل الخلق يتكلمون عن ذلك . قوزاقى وفد على الجنرال . . .
– قوزاقى ؟ هل رأيته ؟ كيف هو ؟ . .
– يعنى . . . مثل كل القوزاق .
– اخرس ! لك لسان عجوز ثرثارة . وخير ما تصنعه ان تسكر فمك . لم يات احد ، اذن فنحن لا نعلم شيئا .

وذهبت ارى الرئيس زايكين كان الضابطان فى عدتهما الكاملة والمسدسان فى الزنانير . والرئيس احمر كالعادة ينفخ ، ويلهث ، ويجفف عنقه بمنديل قذر . وستيبيلكوف منفعل ، مشرق قد دهن شاربيه المتهدلين وكانا آنئذ منتصبين ، صليبين ، مسننين . ويقول الرئيس وهو يغمز بعينه :

– انظروا الى ملازمنا ! اخذ زينته قبيل المعركة . آه ، يا عزيزى ! يا مسكين ! ارثى لك . لن نرى مثل هذين الشاربين ابدا – ويئن على نحو كوميدى – سيؤذونك يا جميلى المسكين . وبعد ، ألست خائفا ؟

فاجاب ستيبيلكوف مزهوا :



– ساحاول الا اكونه .
– وانت ايها المقاتل ألست بخائف ؟
– انا لا اعرف يا ايفان بلاتونوفتش . . . أما من اخبار من هنالك ؟
– ابدا . الله وحده العليم ماذا يرى . – وصعد الرئيس زفرة عميقة واضاف بعد هنيهة صمت – فى الساعة الواحدة سنرحل .

وانحسر باب الخيمة واطل وجه لوكين المرافق متجهما شاحبا هذه المرة :

– انت هنا يا ايفانوف ؟ معنا امر ان نحلفك اليمين . . . ليس حالا ، ولكن وقت الرحيل . ايفان بلاتونوفتش ! علبة خامسة من الخرطوش للرجال .

ورفض الدخول بحجة شغل كثير ينتظره . وخرجت من الخيمة .

وكان الغداء جاهزا مع الظهر . واكل الجنود بلا شهية . بعد الوجبة امرنا ان ننزع قرب البنادق الجلدية ووزعت علينا خراطيش اضافية . وبينا الرجال يستعدون للمعركة كانوا يتفقدون محتويات حقائبهم ويتخلصون من الاشياء الزائدة : قمصان وبنطلونات ممزقة ، خرق ، جزمات عتيقة ، فرشاة ، كتب قذرة . وكان بعضنا قد حمل معه حتى الدانوب مقادير من الاشياء التى لا غناء فيها . كنت ارى على الارض وضما يستخدم اثناء الاستعداد للاعراض والمراسم ، لكى السيور الجلدية ،

حقق مرهم من الحجر ، علبا ، الواحا خشبية ، وحتى عدة اسكافى .

– القوا عنكم اكثر ما يمكنكم ايها الاولاد ! يجب ان تكونوا خفافا فى المعركة . لن نحتاج كل هـذا غدا .

ويحاكم لوتيكوف وهو يتأمل خرقة :

–جررت هذه خمسمئة فرسخ . . . وما نفعها لى ؟ ليست مما يحمل الى العالم الآخر . . .

كان تنظيف الحقائب زى ذلك اليوم . ولمـا تركنا المخيم ظل فى السهب مستطيل ارقط من الثياب القديمة وغيرها من المتروكات .

قبيل الرحيل ، بينما كان لواؤنا على الاهبة ينتظر الاوامر اجتمع عدة ضباط وكاهن اللواء الشاب امـام الصفوف . ونوديت انا واربعة متطوعين من الافـواج الاخرى كانوا قد لحقوا باللواء اثناء المسير ، واودعنا بنادقنا عند الرفاق وتقدمنا نحو العلم . كان رفاقـى المجهولون مضطربين وانا قلبى يخفق خفقا لم اعهـده عادة . وقال آمر الفوج :

– خذوا الراية ، – فامال الضابط العلم ونـزع مساعداه غلافه فخفق الحرير الاخضر البائخ فى الريح . وحففنا بالعلم وامسكنا عصاه بيد ورفعنا الاخرى ورددنا اقوال الكاهن الذى كان يقرأ القسم العسكرى الذى يرجع عهده الى بطرس الاكبر . وتذكرت اقـوال فاسيلى كاربوفيتش فى المرحلة الاولى وسألتنى : «اين ؟» . وبعد تعداد طويل لاشكال واماكن خدمة جلالتـه



الامبراطورية : حملات ، هجوم ، طلائع ، مؤخرة ، حصون الخ . سمعت : «من غير ان اضن بحياتى» ورددناه ، نحن الخمسة ، معا ولما بدرت منى نظرة الى كتل الرجال القاتمين الحازمين فهمت ان ما نقوله ليس كلمات جوفاء .

وعدنا الى الصفوف . واختلج اللواء ، وتحرك ، وامتد صفا طويلا ، ورحل نحو الدانوب يسير سيرا لم نعتده . وكف اطلاق النار .

اتذكر هذه المرحلة ذكراى حلمـا : الرهج تثيره كتائب القوزاق التى تسبقنا ، الوادى الواسع المنحدر نحو الدانوب نرى على بعد خمسة عشر فرسخا ضفتـه الاخرى فى الضباب الازرق ، التعب ، الحرارة ، التزاحم قرب بئر صادفناه عند زيمنيتسا وهى مدينة قذرة تعج بالجنود ، الجنرالات يحيوننا من اعلى شرفة ملوحيـن بعمراتهم وصائحين «هورا» نعيدها نحن جوقة واحدة .

وتصيح اصوات حولنا :

– تم العبور !

– مائتا قتيل ، خمسمئة جريح !

## ٨

كان الليل قد اسود حينما عبرنا احد فروع الدانوب على جسر صغير وسلكنا جزيرة رملية لا تزال رطبة من الماء الذى انحسر منذ امد يسير . واتذكر صليـل الحراب يصدم بعضها بعضا فى الزحام . قرقعة المدافع

الجشاء التى تسبقنا ، امواه النهر العريض السوداء ، انوار الضفة الاخرى التى يجب علينا ان نبلغها غـــدا ونخوض فيها المعمعة .

وفكرت فى نفسى وانا اتمدد على الرمل النـــــدى : «الاحسن ان ننام» .

لما فتحت عينى كانت الشمس عالية . والجنـــــود والعربات والعدد تحتشد على الشط الرملى . وكانوا قد حفروا على حافة الماء حفرا للبطاريات وحفرا انفرادية للرماة ؛ وما وراء الدانوب على المرتفع المشرف كنـــت تبصر كروما وبساتين يروح فيها جنودنا ويجيئون ، والهضاب مرتفعة اعلى فاعلى تحدد الافق فى وضوح . عن يمين وعلى مسافة ثلاثة فراسخ منازل سيستوفو ومنائرها ترتفع على الآكام . ومركب نقل تجره سفينة قاطرة ينقل الافواج واحدا بعد واحد . وبارجة صغيرة من قاذفات الطوربيد تبصق بخارها قرب شطنا .

ويقول لى فيدورف مرحا :

– عبور موفق يا فلاديمير ميخائيلوفتش .

– اجل ، ولكننا لما نعبر ؟

– ستصل السفينة الآن فتأخذنـــا . ويظهر ان فى الجيرة مدرعة تركية ، هذا «السماور» الصغير (واشار الى البارجة) لاجله . – واضاف وقد تغير صوته – ذبح خلق كثير ، ونقل عدد كبير من الضفة الاخرى . . .

وروى لى تفاصيل معركة سيستوفو .

– وجاء دورنا . وما ان نصبح على الضفة الاخرى



حتى ينقض علينا الترك . . . وعلى اى حال فهذا تأجيل : نحن احياء واما هم . . . – واشار الى الجنود والضباط المجتمعين حول شىء ما .

– ما هذا ؟

– قتيلان . اذهب لرؤيتهما يا ميخائيلوفتش ، شىء مرعب .

واقتربت من الجماعة . كان الرجال صامتين ، حاسرى الرؤوس ، ينظرون الى الجسدين المتمددين جنبا الى جنب على الرمل . كان هناك ايضا زايكين وستيبيلكـــــوف وفينتسل . كان رئيسنا ينفخ ويتشكى مقطب الحاجبين ، وستيبيلكوف وراءه يمط عنقه الرقيق فى رعب ساذج ، وفينتسل غارق فى تأمل عميق .

كان احد القتيلين جنديا رائعـــــا من لواء الحرس الفنلندى من فصيل النخبة ، ذلك الذى خسر فى الهجوم نصف رجاله . كان جرحه فى بطنه ولا ريب فى انـــه عانى احتضارا طويلا . وقد رقق الالم من قسماتـــه الدقيقة التى لا يزال فيها معنى عذب شاك . وكانـــت عيناه مغمضتين ويداه مضمومتين الى صدره . أهو الذى اتخذ هذا الوضع ام رفاقه هم الذين ارقدوه على هـذا النحو ؟ لم يثر فىّ منظره رعبا ولا اشمئزازا ولكـــن شفقة لا تعرف الحدود .

وانحنى زايكين على الجثـــة والتقط العمرة التى كانت قرب الرأس وقرأ على الحافة : «ايفان جورينكو ، السرية الثالثة» .

وهمس :

– كان اوكرانيا . المسكين !

وتمثلت بلادى ، ريح السهب اللافحة ، الضيعة فى الوادى ، الصفصاف ، المنازل البيضاء الصغيرة ذات الصفاقات الحمراء . . . من ينتظرك هنالك ؟

وكان الآخر جنديا من لواء فولين . اخذه الموت بغتة بينما كان يندفع مهاجما صارخا بصوت مسعور . ثقبت رصاصة رأسه عند منشأ الانف تاركة وراءها جرحا اسود . وكان متمددا ، العينان مفتوحتان جامدتان والفم مفغور ، والوجه المزرق بعثره السعر .

– انتهيا . لم يعودا بحاجة الى شىء .

واستدار زايكين فافسح الرجال له ممرا . وتبعناه ، ستيبيلكوف وانا ، ولحق بنا فينتسل . قال :

– هاك يا ايفانوف . هل رأيت ؟

– نعم يا بيوتر نيكولاييفيتش .

فسألنى قاتم الاسارير :

– وبم فكرت وانت تنظر اليهما ؟

فاجتاحنى غضب مفاجئ على هذا الانسان السيىء ورغبة فى ردعه .

– كنت افكر فى اشياء كثيرة . انهما لم يعودا لحما للمدافع . النظام والطاعة لم يعودا من اجلهما . لا احد بعد اليوم يعذبهما . ليسا منذ الآن جنديين تابعين ، انهما انسانان .

قلت هذا كله بصوت مرتعش مزلزل .



فومض فى عينى فينتسل ما يشبه البرق . وخرج من خنجرته صوت لم يقيده لفظ . كان يريد ان يرد ، ولا ريب ، ولكنه كبح نفسه هذه المرة ايضا وراح يمشى الى جانبى منكس الرأس وقال بعد هنيهة من غير ان ينظر الىّ :

– انت على صواب يا ايفانوف . انهما انسانان . انسانان ميتان .

## ٩

نقلنا الى ضفة الدانوب الاخرى ، فلبثنا بضعة ايام قرب سيستوفو ننتظر الاتراك ، ثم تغلغلت الجيوش فى داخل البلاد فحذونا حذوها . وارسلنا من هنا وهناك ، نحو تيرنوف ، نحو بليفنا وتقضت ثلاثة اسابيع ونحن لم نقاتل . اخيرا التحقنا بفصيلة خاصة مهمتها كبح هجوم جيش تركى كبير . كان اربعون الف روسى قد امتدوا على سبعين فرسخا يواجهون نحو مئة الف تركى . ولو لا حذر قائدنا الذى كان لا يخاطر برجاله ويظل محافظا على الوضع الدفاعى وكذلك جمود الباشا التركى لما استطعنا ان نقوم بمهمتنا وهى منع العدو من قطع الشطر الاعظم من جيشنا عن الدانوب .

كان قليلا عديدنا ، وخطوطنا قد استطالت جدا .

م نذق طعم الراحة الا نادرا جدا . وكنا نطوف كثرة
ى القرى ، كنا حينما هنا وحينما هناك لكى نصد
بجمات المبيتة ؛ ونغوص فى قلب بلغاريا حتى ان
رافل المؤن لا تتوصل الى اللحاق بنا فيترتب علينا ان
يم اودنا خمسة ايام او اكثر بانصبتنا من
بقسماط المعد لاجل يومين . وكان الرجال الجائعون
سرسون بالعصى القمح الاخضر على اقمشة الخيام
يطبخون منه ، بعد اضافة تفاح برى ، شوربة شنيعة
لا ملح (ما كان ملح ايضا) اصابتهم بالمرض . وقد
قدت الافواج كثيرين من غير ان تدخل عملية حربية .

فى منتصف تموز بلغت فصائلنا بعد دعمها ببضع
تائب من الخيالة وبطاريتى مدفعية قرية تركية
هجورة ، قد نهبت واحرقت . وخيمنا على المرتفع
لعسير . كانت القرية فى الاسفل فى قاع واد يتأفعى
يه نهر ضيق. فى الطرف الآخر تنتصب الصخور عالية .
رافترضنا ان الاتراك هناك ولكنا لم نعثر لهم على اثر .
ولبثنا بضعة ايام فى قمة الجبل نكاد نكون بلا خبز ،
ونضطر الى متح الماء بعيدا من ينبوع يتدفق عند قدمى
صخرة . كنا منعزلين عن الجيش ، من غير اخبار ،
والقوزاق يقومون بالدوريات على بعد نحو من خمسة عشر
فرسخا . كان ثمة مئتا او ثلاثمئة قوزاقى موزعين على
خط طوله عشرون فرسخا . وخلا هذا القطاع من الاتراك
ايضا .

وعلى الرغم من ان العدو لم يظهر فقد اتخذت



فصيلتنا الصغيرة كل احتياطاتها . كان خط كثيف من
طلائعنا يحف بالمعسكر ليل نهار ، واجبرتنا الظروف
الطبيعية على ان نتناثر فى خط طويل جدا . وهذه
الخدمة الخاملة ، المنهكة مع ذلك كانت تشغل عدة
سرايا يوميا . وكان الجمود والجوع الدائم والغموض
يهلك الجنود .

وكانت عربات الاسعاف مكتظة ويرحل كل يوم الى
مستشفى الفرقة رجال انهكتهم الحمى والزحار . وفقدت
بعض السرايا ثلثها او نصفها . وكان الجميع قاتمين
ويحترقون شوقا الى القتال : لانه على اى حال مخرج .

اخيرا سنحت الفرصة . جاء قوزاقى من قائد احدى
الكتائب يعلن ان الترك قد بدأوا هجومهم وكان عليه
ان يجمع رجاله ويرتد خمسة فراسخ . ولكن سرعان
ما علمنا ان العدو قد عاد الى مواقعه وان من المحتمل
بقاءنا فى اماكننا ولا سيما اننا لا نملك امرا بالهجوم .
ولكن الجنرال الذى يقودنا آنئذ — وصل وشيكا من
بطرسبورغ — كان يشاطرنا ذهاب صبرنا : كفانا ان
نسترخى فى اماكننا او نقوم بالحراسة ساعات طويلة
امام عدو لا نراه ويظنه الجميع غير موجود ، وان نأكل
طعاما سيئا فى انتظار المرض . كلنا نريد القتال ، وامر
الجنرال بالهجوم .

تركنا فى المخيم نصف الفصيلة . كان الموقف
من الغموض بحيث كان يترتب علينا ان نتوقع
المفاجآت . وتحركت اربع عشرة سرية وفرسان واربعة

دافع بعد الظهر . لم نسر قط سيرا احب الى القلب
ن هذا ما عدا يوم استعرضنا القيصر .
وسلكنا الوادى واجتزنا القرى التركية والبلغارية
لمهجورة واحدة بعد اخرى . فى الشوارع الضيقة
لمحفوفة باسيجة عالية لم نكن نصادف لا انسانا ولا
حيوانا . الدجاج وحده يتطاير ويقوقئ على الاسيجة
والسطوح ، والاوز المذعور يقلع فى الفضاء ثقيلا .
وكانت اشجار الخوج من مختلف الانواع تبسط اغصانها
لمثقلة بالثمر الناضج . عند الضيعة الاخيرة على بعد
خمسة فراسخ من الموضع الذى كنا نتوقع ان نبلغ
لنترك فيه ظفرنا بتوقف مدته نصف ساعة . فأكل الجنود
من الخوخ حتى بشموا وحشوا جعباتهم . وخطر
لبعضنا الحقيقة لم يكونوا كثرة ، ان نذبح الدجاج
ونحمله معنا . وتذكرت كيف شرع هؤلاء الرجال يفرغون
حقائبهم فى انتظار القتال قبل العبور قرب سيستوفو
فنوهت بذلك لجيتكوف الذى كان ينتف اوزة
ضخمة .

— ماذا تريد يا ميخائيلوفتش ، نحن لم نكن فى
المعركة بعد ولكن نعلم ما معنى الانتظار . يخيل الىّ
اننا سنعود بخفى حنين . وحتى لو بدأ الضرب فالمؤونة
لن تكون ابدا زيادة . فاذا صادف ان نجونا فسنأكل
لقمتين .

وسألت على الرغم منى :

— ألست خائفا ؟



فاجاب بعد هنيهة ، منخفض الاجفان وهو ينزع
آخر الزغب فى عناية :

— قد لا يقع شىء .

— واذا وقع ؟

— اذن عليك ان تمشى سواء أخفت ام لم تخف .
لا احد يسألنا رأينا . امش ، فهذا كل شىء . هل معك
سكين طيبة ، اعطنى اياها .

واعرته سكين صيدى فشطر الاوزة شطرين واعطانى
واحدا :

— خذ ، خذ هذا على اى حال . واما الخوف فخيرا
تصنع اذا لم تفكر فيه . نحن بين يدى الله .

فأكد فيدورف المضطجع قربنا :

— الرصاصة او القنبلة شىء لا يمكن تجنبه ، وارى
يا فلاديمير ميخائيلوفتش ان الهرب اخطر لان المسافة
التى تقطعها الرصاصة هكذا (ورسم منحنيا باصبعه) ،
اذن فالحديدة حامية فى المؤخرة اكثر .

قلت :

— هذا صحيح ، ولا سيما ان الاتراك يسددون
عاليا على ما يظهر .

وقال جيتكوف لفيدورف :

— اما عالم ! سترى هناك المسافات ! — واضاف
بعد تفكير — من كل بد ، من كل بد ، الاحسن ان يكون
الانسان فى المقدمة.

وقال فيدورف :

– قرب الرئيس . رئيسنا ليس رعديدا . سيسير فى المقدمة .

– هذا صحيح . وفينتل ايضا .

فسأل فيدورف :

– هل يسلم بريشه ؟ ما قولك ايها العم جيتكوف ؟

فخفض هذا عينيه وهمهم :

– ماذا تقول ؟

– يا الله ، هل رأيته ؟ انه مقلوب رأسا على عقب .

فاظلم جيتكوف ايضا وهمس بصوت اصم :

– حماقات !

– وماذا كنا نقول قبل الدانوب ؟

– قبل الدانوب ! . . الاولاد لم يعودوا يستشعرون الغضب . وكان كيلهم قد طفح . انت تظن انهم قاطعو طرق او ماذا ؟

قالها جيتكوف وهو يحدق فى عينى فيدورف وتابع :

– هذا عمل اوباش لا خير فيهم ، او مجانين ! معقول ان يفكروا فى اشياء من هذا النوع فى يوم ربما لاقوا وجه الله ؟ قبل الدانوب انا ايضا قلتها مرة للسيد (واشار الىّ برأسه) نعم قلتها لان ذلك كان مثيرا للاشمئزاز . قبل الدانوب ! ما تتذكر !

وسحب كيس تبغه من ساق جزمته ومضى يتابع هريره وهو يحشو غليونه ويشعله . ثم اعاد الكيس



الى مكانه وجلس جلسة مريحة وذراعاه حول ركبتيه وغاص فى تفكير ثقيل .

بعد نصف ساعة خرجنا من القرية وشرعنا نصعد فى مرتفع كان الترك وراءه . لما بلغنا القمة ابصرنا ارضا واسعة تتخللها التلال وتنحدر تدريجيا وتغطيها حقول القمح او الذرة وادغال الدردار والزعرور . وفى موضعين ترتفع المنائر البيضاء من قرى مخبأة بين التلال الخضراء . كان علينا ان نستولى على الموضع الايمن . وكان يرتسم فى الافق خط ابيض باهت هو الطريق الذى كان قوزاقنا يحرسونه . ولم يلبث كل هذا ان اختفى لاننا تغلغلنا فى الادغال الكثيفة التى تفرقها المنفسحات غير الكبيرة .

ولا اذكر بداية المعركة الا على نحو غامض . لما بلغنا قمة احدى الهضاب المكشوفة حيث كان فى وسع الاتراك ان يرونا ننطلق من الادغال ونتخذ وضعية المعركة انطلق طلق وحيد من المدفع . لقد قذفونا بقنبلة . فاختلج الرجال واعينهم مسمرة على السحابة الصغيرة المدورة التى كانت تتبدد آنذاك فى هبوطها المنحدر . الا ان ازيز القذيفة الرنان – وقد بدت وكأنها تمس الرؤوس – سرعان ما قسر الجميع على الانحناء . وطارت القنبلة من فوقنا وسقطت قرب السرية اللاحقة وانطلق دوى اصم وصرخة شاكية . كانت شظية قد اقتلعت ساق رقيب . لم يأتنى علم ذلك الا فيما بعد لانى فى تلك اللحظة سمعت الصرخة من غير ان افهم .

كان يجتاحنى أنئذ احساس لا يسمى يستشعره المرء عادة فى عماد النار . ويقال ان احدا لا يجهل الخوف فى المعركة ، وكل رجل متواضع صريح يعترف به . ولكنه لم يكن الخوف الجسمانى الذى يستولى عليك ليلا ، او فى الشارع القفر وانت وجها لوجـــه مع لص ؛ ان وجدانك الخطر المميت هنا واضح . ومهما يكن ذلـــك عسيرا وغريبا على التصديق فان هذا الوجدان عوضا عن ان يقعد بالرجال ويسلمهم الى الفرار يدفعهم الى الامام . كانت تدفعنا قوة لا رادع لها ، قوة ليست من الغريزة الدموية فى شىء تجعلنا اميل الى الموت منا الى القتل .

وبينما كنا نجتاز منفسحا اطلق الترك عدة طلقات . لم يكن يفصلنا عنهم الا الغابة الاخيرة التى تزحف حتى القرية . فلما دخلناها عاد الصمت .

كان السير مرهقا ؛ يجب ان ندور حول العواسج الكثيفة الشائكة فى الاغلب او ان نشق دربنا خلالها . وكان القناصة قد انتشروا على خط فضفاض واخذوا يتنادون باصوات منخفضة حتى لا يضيع بعضهـــم بعضا . وظلت سريتنا متجمهرة وصمت مطلق يطبق على الغابة .

وانطلقت اول بندقية على استحياء حتى لتحسبهـــا ضربة فأس بعيدة . كان الاتراك يطلقون علينا النار كيفما اتفق فتصفر على مختلف الانغام عاليا فى الفضاء ، وتثقب الادغال فى ضوضاء ، وتنتزع غصينات من غير



ان تمسنا . ولم يلبث الضرب المتفرق ان صار الى ازيز رتيب لا تسمع فيه طلقات منعزلة ابـــدا : كان الفضاء كله يهتز ويصفر . وكنا نتقدم مسرعين ورفاقى القريبون كلهم فى صحة وسلامة وانا ايضا . ما اعجب هذا !

وخرجنا من الادغال بغتة واذا اخدود عميق تجرى فيه ساقية يقطع علينـــا الطريق . فاستراح الرجال هنيهة وبلوا الظمأ .

ههنا فصلت السرايا بعضهـــا عن بعض لكـــى يؤخذ الترك من الجانبين : وخلفت سريتنا احتياطا فى الاخدود . كان على القناصة ان يندفعوا الى الامام عبر الادغال وينقضوا على القرية . وكان الترك يطلقون النار بلا انقطاع كما فى الماضى ولكن اصوات الاطلاق دنت منا .

على ضفة الاخدود الاخرى اعاد فينتسل تنظيـــم رجاله ووجه اليهم كلمة لم اسمعها ، اجاب عنها القناصة قائلين :

— سنبذل جهدنا ، سنبذل جهدنا !

كنت اراه من الاسفل : كان شاحبا وبدا لى حزينا ولكنه هادىء . ورأى الرئيس زايكين وستيبيلكوف فلوح لهما بمنديله ثم بحث بعينيه عن واحد بيننا . وحزرت انه يريدنى فنهضت ، فابتسم لى وهز رأسه عدة مرات وامر سريته ان تقف صفا واحدا . فمضى القناصة يمنة ويسرة فئات من اربعة اشخاص الفـــوا

سلسلة طويلة وغابوا فى الادغال على عجل الا واحدا ؛ قد هوى وذراعاه فى الفضاء وسقط على الارض ثقيلا . واندفع اثنان منا خارج الاخدود وعادا بالجثمان .

وتقضى نصف ساعة فى الهلع .

احتدمت المعركة واستحال الازيز الى زمجرة رهيبة . كانت المدافع ترعد عن يمين ويعود الينا الرجال مدمين بعضهم واقف وبعض زاحف . فى البداية لم يكونوا كثرة ولكن عددهم كان يزداد كل لحظة . وكنا نعينهم على هبوط سفح الاخدود ونسقيهم الماء ونرقدهم فى انتظار النقالات . وكان احد القناصة قد كسرت يده فجعل يئن وعيناه غائرتان ووجهه شاحب ، قد اتى وجلس على ضفة الساقية وحيدا . واسعف ومدد على معطفه مرتعش الشفتين . كان يشهق وينتحب فى عصبية :

— اواه ، يا اصدقائى ! . . يا رفاقى ! . .

— كثير من القتلى ؟

— مسلخ .

— وآمر السرية ؟

— لا يزال سالما . لولاه لارتددنا على اعقابنا .

وتابع الجريح بصوت واهن :

— ولكننا سنظفر ما دام معنا . بعد ثلاث هجمات فاشلة استأنف للمرة الرابعة . الاتراك كامنون فى اخدود ومعهم من الخراطيش ما تريد ، وهاك !

وازبد فجأة وهو ينهض ملوحا بيده المهشمة :



— اى ، لا ، لا ، لن تغلبنا يا ابن الكلب !

وغزل بعينين رهيبتين واطلق شتيمة شنيعة وارتمى فاقد الرشد .

وظهر لوكين على حافة الاخدود . وصرخ متهدجا :

— ايفان بلاتونوفيتش ! تقدم !

. . . . . .

الدخان ، الازيز ، الـ«هورا» المجنونة ، رائحة الدم والبارود . رجال اندرجوا فى الدخان عجيبون شاحبون ؛ ان ترهم تنكرهم . التحام وحشى . من حسن الحظ ان هذه اللحظات لا تعود الى ذاكرتك الا ملفوفة بنوع من الضباب .

. . . . . .

لما وصلنا كان فينتسل يهاجم للمرة الخامسة بمن بقى حيا من سريته والاتراك يرشونه بالرصاص . واخيرا اقتحم رجاله القرية وابيد المدافعون عن المقطع كلهم تقريبا . وخسرت سرية القناصة الثانية فى ساعتين اثنين وخمسين رجلا من مئة ونيف . وكانت خسائرنا نحن زهيدة لاننا لم نسهم فى العملية تقريبا .

وعلى الرغم من ان العدو قد طرد من كل مكان فلم نظل نحن فى مواقعنا . وحينما رأى الجنرال الافواج تخرج الى الطريق واحدا اثر واحد ، وكتائب الخيالة ، وخطوطا طويلة من المدافع زلزل زلزاله . يظهر ان الاتراك كانوا يجهلون قوانا المخبأة بين الادغال . لو

علموا ان اربع عشرة سرية وحسب هى التى طردتهم من الطرق والاخاديد العميقة ومن البساتين المسورة التى تحف بالقرية لعادوا الينا وسحقونا سحقا بكونهم اكثر منا بثلاث مرات .

لما جاء المساء عدنا الى المعسكر . ودعانى ايفان بلاتونوفتش الى الشاى .

وتساءل :

– هل رأيت فينتسل ؟

– لا ، بعد .

– اذهب وابحث عنه فى خيمته . المسكين فريسة افكار سوداء . وانت لا تسمع منه الا قوله : «اثنان وخمسون ، اثنان وخمسون» . احضره .

كانت شمعة واهنة تشعشع فى خيمة فينتسل . وهو منطو فى احدى الزوايا ورأسه على صندوق ينتحب .

١٨٨٢

# الزهرة الحمراء

## (على ذكرى ايفان سيرغييفيتش تورغينيف)

### ١

– باسم صاحب الجلالة الامبراطورية ، القيصر بطرس الاول ، آمر بتفتيش مستشفى المجانين هذا !

هذه الكلمات قيلت بصوت عال واضح رنان . فلم يستطع مستخدم مكتب الدخول الذى كان يكتب فى سجل ضخم منشور على المنضدة التى تحمل بقع الحبر ان يمنع نفسه من الابتسام . ولكن الشابين اللذين يرافقان المريض لم يضحكا . كانا لا يكادان يستقران على اقدامهما بعد يومين بلا نوم قضياهما وجها لوجه مع هذا المسلوب الذى احضراه بالقطار . وكان قد دهمته فى المحطة قبل الاخيرة ازمة رهيبة ، فحصلا على قميص قسر وألبساه فيه يساعدهما مراقبو القطار ودركى . وقد انزل من القطار وحمل الى المستشفى على هذه الحال .

كان مروعا . والقميص من الخام السميك محفور عند العنق حفرا عريضا يكبل جذعه فوق سترة رمادية ممزقة ، والكمان الطويلان المعقودان فـــى الظهـــر يجبران ذراعيه على ان تظلا متصالبتين . وكانت عيناه محتقنتين بالحمرة ، محملقتين (لم ينم منذ عشرة ايام) ينبعث منهما بريق ثابت حار وخلجة عصبية تحـــرك شفته السفلى ، وشعره الاجعد يسقط على جبينه لبدة شعثاء ؛ كان يذرع المكتب بخطوات ثقال ، متفحصـــا خزانات الاوراق العتيقة والكراسى المكسوة بقمـــاش مشمع ، ويلقى احيانا نظرة الى رفيقى رحلته .

– خذوه ! الى قسم اليمين .

وقال المريض :

– اعرف ، اعرف . لقد فتشنا المستشفى معا فى العام الماضى . اعرف كل شىء ، ولن يكون خداعـــى ميسورا .

واستدار نحو الباب الذى فتحه الحارس وخـــرج يرفع عاليا راسه المجنون ، يخب بنفس الخطو الحازم ؛ ثم هرع فيما يشبه العدو الى قسم المجانين وخفره يجد كل العسر فى اللحاق به .

– رن الجرس . انا لا استطيع . يداي مكبلتان .

وفتح البواب الباب ودخل المسافرون المستشفى .

كان البناء واسعا ، مشيدا بالحجر النحيت ، قديم الطراز . وكان فى الطابق الارضى قاعتان كبيرتان : المطعم وردهة المرضى الهادئين وممر عريض ذو باب



زجاجى ، يفضى الى حديقة فيها احواض الازهار ، ونحو عشرين غرفة . وكان فيه ايضا حجرتان مظلمتـــان احداهما ملبسة بالفرش والاخرى مكسوة بالالـــواح الخشبية للمصابين بالجنـــون المطبق ، وحمام مقبب مشؤوم المنظر . وكان يأتى من الطابق الاول المخصص للنساء ضجيج غامض تقطعه الصرخات الحادة . وكان المستشفى معدا لثمانين شخصا ولكنه مضطر لفتـــح ابوابه لمرضى عدة محافظات ما فيها غيره ، فارتفع عدد سكانه المرضى الى الثلاثمئة . وتضم الغرف الصغيرة اربعة اسرة او خمسة . وفى الشتاء ، حينما يتعـــذر الخروج الى الحديقة وتغلق النوافذ المسيجة بالقضبان الحديدية كافة ، يغدو الهواء غير صالح للتنفس .

واخذ القادم الجديد الى الحمام الذى كان يثيـــر القلق فى قلب الرجل الصحيح ولا يستطيع الا ان يبعث الرعب فى نفس المسلوب . كان يضىء هذه الغرفـــة المقببة ذات البلاط اللزج شباك واحد يقع فى احدى الزوايا . وكانت الحيطان والقباب بلون دم الثور . وحوضان من الحجر غائصان فى الارض التى سودها القذر يشبهان ثقبين بيضاوين طافحين بالماء . وتشغل الزاوية المواجهة للنافذة مدفأة ضخمة من النحاس ذات مرجل اسطـــوانى ومجموعة معقدة مـــن الانابيب والصنابير . ويخلف الكل فى رأس المخبل اثرا مواسيا خياليا تزيده قتاما سحنة الحارس المنفرة وهو اوكرانى دائم الصمت .

حينما جيء بالمريض الى مكان الرعب ذاك لتغسيله
ى" قذاله كما تقضى طريقة رئيس الاطباء ، غضب
با شديدا وسعر سعرا مجنونا . وجعلت افكار
ناء هولة تعصف فى رأسه . ما هذا ؟ محكمة
نيق ؟ كهف ساقه اليه اعداؤه لكى يذبحوه خفية ؟
هذه جهنم ؟ وافترض آخر الامر ان المسألة
ربة . وعرى على الرغم من مقاومته الضارية وكان
ص يديه من حراسه الكثر باذلا قوى خارقة ضاعفها
رض وطرحهم ارضا . واخيرا استطاعوا ان يبطحوه
بضوا على ذراعيه وساقيه ويغمسوه فى الماء
تر . وبدا له الماء غاليا وشبه لخياله السقيم انه
ذيب بالنار والماء المغلى . كان يغص بالماء ويناضل
رافه الاربعة التى يمسكها الحراس بالشدة ويصرخ
ثا باقوال متفككة لا يمكن تصورها ، فيها الرجاء
ها اللعنات . وصرخ حتى خانه الصوت ثم همس
و يبكى بدموع سخينة بجملة لا صلة لها بهذيانه
سابق ابدا :

– ايها القديس الشهيد جرجس ! انا اسلمك
سدى واما روحى فلا . . .

وكان الحراس لا يزالون يتشبثون به على الرغم
جنوحه الى الهدوء . كان للحمام الفاتر والثلج
ى وضع على راسه اثرهما . ولكن لما اخرج مغمى
ه تقريبا واجلس على كرسى استعدادا للكى" اخذته
ة اخرى وجعل يصرخ :



– لماذا ؟ لماذا ؟ انا لم ارتكب اثما . لماذا تقتلوننى ؟ اواه ، يا الهى ! ايها الشهداء اسلافى ! خلصونى ، اتوسل اليكم . . .

وجاء الحرق فى قذاله فاوصل ثورته الى اوجها . وحار الموظفون المنهوكون ولم يدروا ماذا يصنعون . وقال الجندى الذى قام بعملية الكى" :

– لا بأس ، يجب مسحه .

هذه الكلمات البسيطة ارعبت المريض رعبا فظيعا . «مسحه ، مسح ماذا ؟ مسح من ؟ انا !» – هكذا خاطب نفسه واغمض عينيه على هلعه المميت . وتناول الجندى منشفة من نهايتيها وامرها بشدة على قذال المريض فى سرعة . وترك الكى الذى انتزع مع الجلد قشرا داميا ، وبدا الالم الرهيب حتى على الانسان السليم نهاية النهايات للمريض . فقام بحركة مفاجئة تحرر بها من الحراس وتدحرج جسده العارى على البلاط . خيل اليه انهم قطعوا رأسه وحاول عبثا ان يطلق صيحة . ونقل الى سريره حيث استحال اغماؤه الى نوم ثقيل طويل .

## ٢

لم يستيقظ الا ليلا . كان الصمت يخيم فيما حوله الا غطيط النائمين فى الغرفة المجاورة . فى البعيد البعيد كان مريض مسجون فى حجرة مظلمة يتكلم

نفسه بصوت رتيب غريب ، وفى الطابق الاول ، فى
عبة النساء ، يرتفع صوت رفيع ابح باغنية نافرة .
صاخ المجنون السمع الى هذه الالوان من الاصوات .
ن يحس انه محطم ، بلا قوة ، وعنقه يؤلمه .
وتساءل «اين انا ؟ ماذا وقع لى ؟» واستذكر آخر
هر من حياته على نحو واضح جلى وفهم انه مريض .
ندفع الى ذهنه حشد من الاقوال والافكار والافعال
عابثة جعله يختلج من اعماق روحه وهمس وهو يعود
ى النوم :
– انقضى كل ذلك ، الحمد لله !
كان الشباك المفتوح ذو القضبان الحديدية يطل
ى موضع يقع بين ابنية شاهقة وجدار الفناء
حجرى ، موضع لا يرتاده احد ولذلك فقد غزته
حشائش وازهار الليلك التى كانت تزدهر بانضر
زدهار فى ذلك الفصل . . . وراء الشجيرات مقابل
شباك تماما ينتصب سور الحديقة عاليا قاتما الذى
طل من فوقه من حديقة كبيرة ذؤابات الاشجار التى
ضمها القمر . الى اليمين بناء المستشفى الابيض ،
وافذه مضاءة مسيجة بالقضبان الحديدية . الى اليسار
دار ابيض للمشرحة يلمع فى ضوء القمر . وكان ضوء
قمر داخل الغرفة ويسقط على الارض الخشبية وينتزع من
ظلام جزءا من السرير والوجه الشاحب المنهوك ذى
عينين المغمضتين الذى لا يمت الى الجنون بسبب ،
يس امامك الا انسان اسلمه الوصب الى نوم عميق



خلو من الاحلام ، خلو من الحركة بل يكاد يكون خلوا
من التنفس . كان الرجل قد افاق لحظة واضح الذهن
كانه قد شفى لكى يغوص اذا كان الغد فى الجنون من
جديد .

## ٣

وسأله الطبيب فى اليوم التالى :
– كيف تحس نفسك ؟
كان المريض قد افاق منذ هنيهة ولما يغادر
السرير . اجاب وهو ينهض وينتعل نعليه ويأخذ ثوب
الغرفة على عجل .
– جيد ! عظيم ! ولكن هاك !
وارى قذاله .
– اتالم حينما احرك عنقى . ولكنى لا اهتم لذلك .
كل شىء على ما يرام ، شرط ان نفهم ولقد فهمت انا .
– هل تعرف اين انت ؟
– من كل بد يا حكيم ! انا فى مستشفى
المجانين . ولكن ليس لذلك اية اهمية عند من يفهم ،
اية اهمية .
كان الطبيب يحدق فى عينيه ، ووجهه الجميل
الممتلىء تؤطره لحية شقراء معتنى بها وتضيؤه عينان
زرقاوان هادئتان تنظران من خلال نظارتين ذهبيتين .
هذا الوجه لا تستطيع النفوذ اليه وصاحبه جالس
يمعن النظر . واستأنف المريض :

– ماذا بك حتى تتفحصنى هكذا ؟ لن تحل لغز روحى . واما انا فاقرأ روحك ! لماذا تؤثرون الشر ؟ لماذا تسجنون هذا الحشد البائس ؟ الامر عندى انا سيان لانى افهم كل شىء وانا هادئ ، ولكنهم هم ؟ علام تعذبونهم ؟ ان من تهيمن عليه فكرة عظمى ، فكرة عامة لا يهتم للظروف المادية والعواطف . وحياته او موته ليس لهما وزن كبير لديه . . . أليس كذلك ؟

– ربما .

هكذا اجاب الطبيب الذى انتبذ مكانا فى زاوية يستطيع ان يرى منها المريض وهو يذرع ويجر نعليه الثقيلين من جلد الحصان ويحرك حاشية ثوبه من القطن المحبر خطوطا حمراء عريضة وازهارا كبيرة . وكان الممرض والناظر واقفين بالوصيد وقفة الاحترام والتهيب . وهتف المريض :

– انا ايضا عندى فكرة ، فكرة حين وجدته اعادت خلقى . لقد رهفت احاسيسى ، ودماغى يعمل كما لم يعمل من قبل قط . واكتشف بالحدس ما كان يظهر فى الماضى بطريقة الاستقراء والفرضيات البطيئة . وقد توصلت بالواقع الى ما وضعته الفلسفة . والافكار الكبرى عن الجوهر الوهمى للزمان والمكان قد وجدت فىّ ما يؤكدها . انا احيا فى كل العصور ، ما وراء المكان ، فى كل مكان وفى لامكان ، كما تشاؤون . ولذلك فما اقل ما يهمنى سجنكم ايای او اطلاقكم سراحى ، ان اكون حرا او مكبلا . لقد لاحظت هنا عددا



من اشباهى . ولكن الآخرين يرون وضعهم رهيبا . فلماذا لا تعيدون اليهم حريتهم ؟ من يستفيد . . .

وقاطعه الطبيب :

– قلت انك تحيا فيما وراء المكان والزمان ومع ذلك فنحن لا نستطيع ان ننكر فى اننا فى هذه الغرفة ، السادس من ايار عام . . . ١٨ – واخرج الطبيب ساعته – والساعة العاشرة والنصف صباحا . ما قولك ؟

– لا شىء . المكان والعصر اللذان اعيش فيهما لا قيمة لهما عندى . أليس هذا برهانا على انى كائن دائما وفى كل مكان ؟

وابتسم الطبيب وقال وهو ينهض :

– منطق اصيل . انت والله على صواب . هل تريد سيغارا ؟

– شكرا – وتوقف المجنون واخذ السيغار وانتزع طرفه باسنانه فى عصبية – هذا يعيننى على التفكير . انه عالم ، عالم صغير جدا . فى احد طرفيه القلويات وفى الآخر الحمضويات . . . هكذا كان توازن العالم حيث العناصر المتضادة تتحايد فيما بينها . وداعا يا حكيم .

وتابع الطبيب جولته . كان اكثر المرضى ينتظرونه فى وضعية تهيؤ قرب اسرتهم . ليس فى الدنيا رئيس يتمتع باحترام يشبه الاحترام الذى يظفر به الطبيب النفسانى بين مسلوبيه .

وظل المجنون الاول وحده يتابع سيره رواحا ومجيئا وحمل اليه فطوره فابتلع على عجل من غير ان يجلس ملء طاسة كبيرة من الشاى وافترس قطعة ضخمة من الخبز الابيض . ثم خرج من غرفته وراح يجوس البناء من اقصاه الى اقصاه ساعات طوالا بخطوات ثقيلة سريعة دون ان يتوقف . وقد منع المرضى من الخروج الى الحديقة لان السماء كانت تمطر . وحينما ذهب الممرض للبحث عنه اشاروا اليه فى نهاية الممر ، مسمرا امام الباب المزجج يلتهم مساكب الازهار بعينيه وقد جذب انتباهه نوع من الخشخاش حمرته قانية .

وقال له الممرض وهو يمس كتفه :

– تفضل لوزن نفسك .

ولكن ، حينما التفت المريض ، اوشك الممرض ان يرتد مذعورا امام الحقد الوحشى الذى كان يبرق فى حدقتيه المجنونتين . غير ان المصاب سرعان ما غير من تعبير وجهه وتبعه مطيعا صامتا كأنه غريق فى احلام عميقة . ودخلا حجرة الطبيب فصعد المريض وحده الى صفيحة الميزان الصغير . وسجل الممرض ١٠٩ ليبرات فى السجل الى جانب اسمه . فى اليوم التالى كان الوزن ١٠٧ وفى اليوم اللاحق ١٠٦ .

وقال الطبيب :

– على هذا المنوال لن يلبث ان يموت .

واوصى بالحرص على اطعامه جيدا .



ولكن على الرغم من هذا التدبير وشهية خارقة كان المريض يضمحل مع ارتداد الطرف . وكان الممرض يسجل فى السجل ارقاما تقل من يوم الى آخر . لم يكن المريض يغمض عينيه ليلا ويقضى ايامه بكاملها فى حركة مستمرة .

## ٤

كان يعلم انه فى مستشفى المجانين ويعى مرضه . فى بعض الاحيان مثلما جرى له الليلة الاولى كان يستيقظ فى الصمت بعد نهار مضطرب مملوء بحركة مسعورة ، مضعضع الاطراف ، ثقيل الرأس ولكن ذهنه صاف تماما . وكان فقدان المؤثرات فى هدوء الليل والضوء الخافت او عمل الدماغ المتئد وقت اليقظة يجعلانه يفهم الواقع ويكاد يمسى سليما . ولكن ضوء النهار وانتعاش الحياة فى المستشفى يعيدان الى الاعصاب حماها ويعود الجنون فيحتل ما انسحب منه فى الليل . وكانت حالته مزيجا عجيبا من محاكمات صحيحة وحماقات . كان يفهم ان رفاقه كلهم مرضى ولكنه يحدس فى كل منهم شخصية متنكرة عرفها من ذى قبل او سمع وقرأ عنها . كان المستشفى يغص باناس من جميع البلاد وجميع العصور ، احياء واموانا . ففيه مشاهير واقوياء العالم وفيه ايضا جنود قتلوا فى الحرب الاخيرة وبعثوا . كان جنون العظمة يضعه فى

مركز عصر مسحور انطوى على قوة العالم كلها . وما اجتمع رفاقه فى المستشفى الا لكى يقوموا بعمل يبدو فى ذهنه الغامض جبارا ، هو ازالة الشر الكونى . كان يجهل قوام هذه المهمة ولكنه يحس انه قوى بدرجة يستطيع القيام بها . كان يستطيع ان يقرأ افكار الآخرين ويرى تاريخ الاشياء كله ؛ واشجار الدردار الباسقة فى الحديقة تروى له اساطير الاولين . ويؤرخ البناء – وهو قديم فى الواقع – ويرجعه الى عصر بطرس الاكبر ، وكان يثق بان القيصر قد اقام فيه ايام معركة بولتافا . يقرأ ذلك على الجدران ، على الكلس المهشم ، على الانقاض الباقية فى الحديقة ، كان تاريخ البناء والحديقة مكتوبا فى كل مكان . ويعمر بناء المشرحة الصغير بعشرات ، بمئات الاشباح ويحدق فى كوة القبو المنفتحة على الحديقة مكتشفا فى الانعكاسات اللعوب للزجاج الموشورى القديم القذر وجوها اليفة رآها فى الماضى حية او فى صورة .

وكان الطقس الجميل قد اقبل والمرضى يقضون سحابة نهارهم فى الهواء الطلق . وكان القطاع المخصص لهم من الحديقة غير واسع ولكنه مشجر وطافح بالازهار . والناظر يشغل فيه الرجال الاصحاء نوعا ما اياما بكاملها ، فيكنسون ويرشون الرمال فى المذاهب ويقتلعون الاعشاب الضارة ، ويسقون الاحواض ومساكب الخيار والبطيخ الاحمر والاصفر التى حرثوها هم انفسهم . وفى احدى الزوايا كان حوض كث من



الكرز ومذاهب من اشجار الدردار على طول الحديقة ؛ وفى الوسط ، على تلعة اصطناعية صغيرة ، يشعشع حوض بديع حواشيه من ازهار حادة الالوان تتوجه داليا كبيرة صفراء بنقاط حمراء . كان هذا مركز الحديقة وواسطة عقدها ، وكثير من المرضى ينظرون اليها بخشوع خفى . وهو فى عينى المريض الجديد موضع غير عادى ، بل شىء يشبه الملاذ . وكان المرضى قد زينوا حواشى الطرق ايضا . وهناك تجد ازهار اوكرانيا كلها : انواع الورد العالية ، والنباتات التبغية ساطعة ، ذات ازهار صغيرة وردية اللون ، النمام ، القرنفل الهندى ، الخشخاش . غير بعيد من درج المدخل كانت تترعرع ثلاث خصل من الخشخاش غير العادى الذى كان اصغر من العادى ولكن حمرتها قانية بنوع خارق . هذه الخصل هى التى لفتت انتباه المريض حينما كان ينظر من خلال الباب المزجج غداة دخوله المستشفى .

لم يكد يخرج الى الحديقة حتى رمق هذه الازهار القانية من اعلى درج المدخل . لم يكن ثمة الا اثنتان متفتحتان ، تنموان صدفة على حدة فى موضع لم ينزع منه العشب ، فاحاطت بهما الحشائش البرية من كل جانب .

وكان المرضى يخرجون واحدا واحدا من الباب فيوزع عليهم احد الحراس طاقيات قطنية بيضاء بصلبان حمر . هذه الطاقيات عرفت الحرب واشتريت باسعار زهيدة . بيد ان هذا الصليب الاحمر يترك فى

ريض اثره الخفى ، فينزع طاقيته ويقارن بين لون شارة ولون الخشخاش . كانت الازهار اشد احمرارا قال :

– انه ينتصر ، ولكننا سنرى ما يكون .

وهبط الدرج . وبعد ان طوف فيما حوله نظرة ئرية من غير ان يلاحظ الحارس وراءه اجتاز حافة حوض ومد يده نحو الزهرة ولكنه لم يجرؤ عـــلى نتزاعها . احس حرقا ولذعات فى ذراعه الممدودة ثم ى جسده كله كان تيارا سحريا من القوة التى يجهلها شره وريقات الزهر يثقبه علوا وسفلا . ودنا ايضا مد يده اكثر ولكن خيل اليه ان الزهرة تنفث الســم قاعا عنها . وجن جنونه وبذل جهدا يائسا فقبض على سويق الزهرة واذا يد ثقيلة تستريح على كتفه . كانت ذه يد الحارس .

– ممنوع قطف الازهار ودعس الاحواض .

قالها الاوكرانى الشيخ ومضى يوضح بلهجة مقنعة ن غير ان يفلت المذنب .

– فلو اتخذ كل المجانين ديدنهم لتلفت الحديقة كافة .

وادام المريض اليه النظر وتخلص فى صمت وسلك حد الطرق مزعزع النفس يقول فى نفسه :

«يا للبؤساء ! بلغ بكم العمى ان تحموه . ولكنى سأظفر به مهما يكلفنى الامر . سنقف وجها لوجه ذات يوم . وسيان عندى آنذاك الموت والحياة . . .»



وتنزه فى الحديقة حتى الغسق . كان يصل اسبابه بالمرضى يتعرف اليهم ويزجى احاديث غريبة لا يرى فيها هؤلاء الا اجوبة عن افكارهم المجنونة صيغت بكلمات خفية لا تعرف لها رأسا من ذنب . لقد تحدث المريض مع هذا وذاك وقر فى نفسه اليقين من ان «كل شىء جاهز» على حد قوله هو لنفسه . لن تلبث هذه القضبان الحديدية ان تتساقط وينتشر الاسرى فى اربعة اطراف الارض ويزلزل زلزال العالم ، فينهض غلافه القديم ويمثل فى كل بهائه وجدته . واوشك ان ينسى الزهرة . ولكنه ، حينما صعد الدرج رأى ما يشبه الجمرتيـــن الحمراوين فى العشب الملتف القاتم حيث كان نـــدى المساء يتلألأ . اذ ذاك ترك الحشد يمر واختبأ وراء الحارس يتحين فرصة سانحة . ولم ير احد كيف انه قفز الى الحوض وانتزع الزهرة واخفاها تحت قميصه . فلما مست الوريقات الطرية الرطبة جسده شحب واتسعت حدقتـــاه من الرعب وكلـــل العرق الجليـــدى جبينه .

فى المستشفى كانت الاضواء مشعشعة واضطجـــع اكثر المرضى فى اسرتهم انتظارا للعشاء ، الا بعض الذين كانوا يذرعون الممر والغرف ومنهـــم المريض صاحب الزهرة . كان يمشى ويداه متصالبتان على صدره كأنه يريد ان يسحق الزهرة المخبأة فيه ، فاذا التقى بالآخرين دار حولهم حذرا خائفا من ان يمسهم بطرف ثيابه . كان يصيح : «لا تقتربوا ، لا تقتربوا !» ولكن

احدا فى المستشفى لم يكن يلقى بالا الى صيحاته . وهو ما ينفك يحث الخطى ويوسعها جامعا لا يكل ويهر بصوت اجش محتد .

– سأضنيك . سأخنقك !

احيانا كان يصر على اسنانه .

وآن اوان العشاء . على موائد واسعة لا اغطية لها كانوا يقدمون حساء قاتما من الدخن فى قصاع من الخشب مدهونة ومذهبة . وجلس المرضى على المقاعد الطويلة واصاب كل منهم شطيرة من الخبز الاسود . كانوا يأكلون بملاعق من الخشب ، كل ثمانية فى قصعة . واما الذين يتبعون نظاما خاصا فيأكلون على انفراد . وبعد ان التهم مريضنا نصيبه الذى حمله الحارس الى غرفته مسرعا ذهب الى القاعة المشتركة وقال للناظر :

– اسمحوا لى بالجلوس .

فاستعلم هذا وهو يصب الانصبة الاضافية فى القصاع :

– اذن فانت لم تتعش ؟

– انا جائع جدا وعلىّ ان ارمم قواى . الغذاء سندى الوحيد . انت تعلم انى لا انام ابدا .

– كل يا صديقى ما شئت . تاراس ، اعط السيد ملعقة وخبزا .

وجلس امام قصعة والتهم مقدارا كبيرا من الحساء . وقال الناظر لما فرغ الجميع من اكلهم بينما كان



المريض لا يزال يمتح الحساء بيد ويغل الاخرى الى صدره بقوة .

– كفاية ، كفاية ، ستصاب بعسر هضم .

– اواه ، لو علمت مدى حاجتى الى القوة .

وقال وهو ينهض عن المنضدة ويشد على يد الناظر بقوة :

– وداعا يا نيكولاى نيكولاييفتش ، ، وداعا !

فتساءل هذا مبتسما :

– الى اين ؟

– انا ؟ الى لا مكان . انا ابقى . ولكن قد لا يرى احدنا الآخر غدا . اشكر لك طيبتك .

وشد على يده مرة اخرى وصوته مرتعش والدموع فى عينيه .

فاجاب الناظر :

– اهدأ يا صديقى اهدأ . علام هذه الافكار القاتمة ؟ اذهب ونم نوما طيبا . يجب ان تنام اكثر . اذا نمت جيدا فسرعان ما تشفى .

كان المريض ينتحب . واستدار الناظر يأمر الحراس ان يرفعوا بقايا العشاء سريعا . ولم ينقض نصف ساعة حتى كان الجميع يغطون فى النوم ما خلا رجلا مضطجعا بكامل لباسه فى حجرة الزاوية . كان يرتعش كأنه محموم ويضغط ضغطا مسعورا على صدره الذى بدا له غريق سم زعاف .

## ٥

لم يغمض له طوال الليل جفن . لما قطف هـذه لزهرة كان على يقين من انه يقوم بواجب مقدس . لقد جذبت الوريقات الحمراء انتباهه من النظرة الاولى خلال لباب المزجج . ومنذ تلك اللحظة فهم كل الفهم ما هى رسالته على هذه الارض . هذه الزهرة القانية تضم سرور الكون . كان يعلم انهم يستخلصون الافيون من هذا النوع من الخشخاش . وقد تكون هذه الفكـرة وسعة ، متخذة اشكالا مشوهة هى التى ولدت هـذا لشبح المقيت . كانت الزهرة فى وهمه تجسيدا لشر لارض كله قد شربت دم الابرياء (ومن هنا كان لونها لقانى) ودموع الانسانية ومرارتها . وهى كائن غامض خيف معاد للاله ، اهريمان تحت قناع متواضع مسالم . ويجب ان ينتزع ويعدم . ولكن لم يكن هذا كل شىء : ينبغى ان يمنع من نشر الشر حينما ينفق . ولذلك كان يخبئ الزهرة على صدره آملا فى ان تفقد سلطتها فى لصباح . وسيتغلغل الشر الى قلبه ، الى روحه حتى ينخذل او ينتصر ؛ فى هذه الحال يقضى الانسان لان حدا حتى الآن لم تسعفه الجرأة على تحدى شر الكون كله .

— انهم لم يروه ، واما انا فقد رأيته . هل اطيق ان ادعه حيا ؟ الاحرى ان اموت انا .

كان مضطجعا يهدر قواه فى المعركة الوهمية . فى



الصباح وجده الممرض شبه مغشى عليه . ومع ذلـك فلم يلبث الهياج ان عاد الى ذروته فقفز من سريـره وراح يذرع البناء ويلقى فى المرضى خطبا اشد مـا تكون تفككا . ومنع من النزول الى الحديقة ، ذلك لان الطبيب وجد ان وزنه ينقص يوما بعد يوم وان هياجه يزداد عوضا عن ان ينام فأمر له بحقنة قوية مـن المورفين . ولم يبد اية مقاومة ومن حسن الحظ ان افكاره المجنونة كانت تلائم هذه العملية كل الملاءمة . وسرعان ما نام وانقطعت الحركة الدؤوب وكف النغم الضاج الذى ولد من خطواته الموقعة عن ازعاجه . ونسى فـى سباته كل شىء ، حتى الزهرة الثانية التى يجب عليه قطفها .

قطفها بعد ثلاثة ايام تحت بصر الحارس الشيخ الذى لم يسعفه الوقت للتدخل . فاندفع يطارده . والمريض قد لاذ بالبناء واخذ يطلق صيحات النصر ثم ركض الى غرفته وخبأ الزهرة على صدره .

وسأل الحارس الشيخ بعد ان ادركه :

— لماذا تقطف الازهار ؟

ولكن المريض الذى كان قد استلقى فى سريـره ويداه متصالبتان كالعادة تدفق عليه بسيل من الحماقات الجأت الشيخ الى الانسحاب فى صمت بعد ان استعـاد الطاقية ذات الصليب الاحمر .

حينئذ عادت المعركة الوهمية . كان المريض يحس الشر يخرج من الزهرة امواجا طويلة تشبه الافاعـى

تطوقه وتشل اطرافه وتغرق جسده بسمها الفظيع . وكان المسكين يبكى ويصلى ويلعن العدو . وذبلت الزهرة مع المساء وضرب لونها الى السواد . فوطأها بقدميه وجمع بقاياها وحملها الى الحمام وقذف كرة الخضرة الذابلة المدعوكة فى المدفأة المتوهجة ورمق العدو طويلا وهو يتلوى ويحترق ويستحيل الى رشة من الرماد الابيض الناعم . ونفخ فوقها فاختفى كل شىء .

فى اليوم التالى زاد حاله سوءا . استأنف سيره المحموم مترنحا ، متعثرا على الاغلب ، وكان يتكلم بلا انقطاع . وقد هربت الدماء من وجهه وغار خداه واشتعلت عيناه فى وقبيهما العميقين .

وقال رئيس الاطباء لمعاونه :

– لا اود اللجوء الى العنف .

– ومع ذلك يجب ان نضع حدا لهذا العمل . وزنه اليوم ثلاث وتسعون ليبرة . فاذا استمر الحال على هذا الشكل مات بعد يومين .

فاسلم رئيس الاطباء نفسه للفكر وقال محيرا :

– مورفين ؟ كلورال ؟

– امس لم يؤثر فيه المورفين .

– قيدوه . اشك اصلا فى انه يبقى حيا .



## ٦

وقيدوا المريض . البسوه قميص القسر وشدوه بقوة الى عوارض السرير بعصائب من الخام . ولكن حمى حركاته كانت ابعد من ان تخف بل ازدادت . قضى ساعات طويلة محاولا التحرر . واخيرا استطاع بهزة قوية ان يقطع العصابة التى تقيد ساقيه وانزلق متخلصا من الاخرى وشرع يذرع الغرفة ويداه مكبلتان ويطلق صيحات عجب مدهشة .

وصرخ الحارس وهو يدخل الغرفة :

– آه منك ! . . اذن انت ساحر او ماذا ؟ غريتسكو ! ايفان ! تعالا سريعا ! لقد فك نفسه .

وانقض الثلاثة عليه ونشبت معركة طويلة ارهقت المهاجمين وانضبت المريض الذى كان ينفق آخر قواه . وتوصلوا آخر الامر الى طرحه على السرير وتكبيله احسن من قبل والمجنون يصيح لاهثا :

– انتم لا تعرفون ما تصنعون . الخطر يهددكم ! لقد رأيت واحدة ثالثة فى اول تفتحها . لا ريب فى انها تفتحت الآن . دعونى اكمل رسالتى ! يجب قتله ، قتله ، قتله ! حينئذ نسلم . استطيع ان اكلفكم الامر ولكن ليس من يقدر على ذلك الا انا . انكم تلقون حتفكم لمجرد لمسه .

وقال الحارس الشيخ الذى ظل للسهر عليه :

– اسكت يا سيدى ، اسكت !

وسكت المجنون فجأة . كان قد استقر رأيه على ان يخدع حراسه . لقد ابقوه مكبلا طوال النهار وتركوه لكى يقضى الليل على تلك الحال . وبعد ان اطعموه مد الحارس شيئا على الارض واضطجع ولم تنقض هنيهة حتى كان ينام مشدود القبضتين . واما المريض فقد بدأ معركته .

تقنطر حتى يمس عارضة طولانية من عوارض السرير . فلما جسها من خلال كم القميص الطويل اخذ يحك القماش على الحديد بقوة . وتهرأ القماش السميك واخرج المريض السبابة . . . فجأة وجدت الغاية ايسر منالا . وحل عقدة الكمين وراء ظهره بسرعة ولدانه لا تصدقان وفك القميص ثم استرق السمع طويلا الى غطيط الحارس حتى يتأكد من انه استغرق فى النوم . هنا سحب القميص وانفصل عن السرير . كان حرا . ولكنه لا يستطيع الخروج من الباب المغلق من الداخل ولا ريب ان المفتاح فى جيب الحارس . ولم يجرؤ على البحث فى جيوبه فقرر الهروب من النافذة .

كان الليل عذبا هادئا ، مظلما . والنافذة مفتوحة والسماء متلألئة بالنجوم . نجوم كان يعرف بعضها ويبتهج للعطف الذى تبديه له . فاذا خزر عينيه رأى الاشعة اللانهائية التى ترسلها اليه وازدادت ارادته الجنونية قوة ومضاء . كان عليه ان يثنى قضيبا سميكا من قضبان النافذة ويمرق من الفرجة الضيقة ويمضى الى



المكان الملتف الدغيل ويعلو السور الشاهق . هناك المعركة النهائية وربما الموت .

وحاول ان يلوى قضيبا سميكا بيديه ولكن المعدن قاومه . فجدل كمى قميصه المتينين وشدهما الى رأس القضيب الذى يشبه الحربة وارخى ثقله كله . وبعد جهد جهيد استنفد ما بقى له من الطاقة او كاد انثنى القضيب وانفرج عن ممر ضيق تسلل منه مخدشا كتفيه ومرفقيه وركبتيه . واجتاز الدغل وتوقف عند اسفل السور . كان الصمت مخيما فيما حوله والنواسات تنثر من نوافذ البناء الواسع ضوءا موهونا ولم يظهر احد . اذن فلم يره راء وحارسه الشيخ ينام ، لا شك ، نوما عميقا . كان لألأ النجوم العذب يتسرب حتى سويداء قلبه . همس وعيناه الى السماء :

— انا آت اليكن .

وسقط بعد المحاولة الاولى مهشم الاظافر مدمى اليدين والركبتين ولكنه انشأ يبحث عن موضع ايسر . فى الزاوية الواقعة بين السور والمشرحة كانت عدة قرميدات قد سقطت . واكتشف المريض هذه الثغرات وافاد منها . وبلغ ذروة الجدار فقبض على غصن الدردار الذى يرتفع من الناحية الاخرى وهبط الى الارض فى لطف .

واندفع نحو درج المدخل . كانت الزهرة ذات الوريقات المثنية تتميز فى العشب الرطيب واضحة . وهمس المريض :

– الآخر ! الآخر ! انه النصر او الموت .

ورفع عينيه الى السماء ومضى يقول :

– لا بأس . انتظرننى . سرعان ما اصبح بينكن .

وانتزع النبتة وانهال عليها يدعكها ويمزقها وعاد بها الى حجرته سالكا السبيل ذاته . كان الشيخ ينام دائما . وجر المريض نفسه الى سريره وسقط عليه فاقد الوعى .

فى الصباح وجد ميتا . كان وجهه الهادئ الصافى ، ذو القسمات العجفاء والشفتين الدقيقتين والعينين الغائرتين المغمضتين يعبر عن غبطة مزهوة . وبينما كانوا يمددونه على المحفة حاولوا ان يفتحوا يده التى كانت تقبض على الزهرة الحمراء . ولكن الاصابع كانت قد تحجرت فحمل غنيمته معه الى القبر .

١٨٨٣

## الوردة والضفدع

(حكاية)

كان ما كان ، كانت وردة وضفدع .

كانت شجيرة الوردة المتفتحة تشب فى حديقة صغيرة على شكل نصف دائرة اتخذت امام منزل ريفى . وكانت الحديقة مهملة تجتاح الاعشاب الضارة المساكب المتهدمة والمذاهب لا يهتم احد لتنظيفها وكسوتها بالرمل . فى الماضى كان السياج الخشبى ذو الاوتاد المنجورة على هيئة رماح مربعة مدهونا بالاخضر فحال لونه وتشقق وتزعزع . وقد سرق صبيان القرية رماحا لكى يلعبوا بها لعبة الجنود ، والقرويون الراشدون لكى يحموا انفسهم من كلب المنزل النزق وغيره من الكلاب .

واما مسكبة الازهار فلم يصبها سوء من هذا الاهمال للحديقة فى شىء . لقد غابت بقايا السياج تحت حشيشة الدينار واللبلاب ذى الازهار البيضاء الكبيرة

البزاليا التى تنحدر مثل شلالات خضراء شاحبة تتخللها
هنا وهناك عناقيد ضاربة الى اللون البنفسجى . وكان
العليق الذى غذته التربة الدسمة الرطيبة (كان يحيط
بالمسكبة بستان ظليل) يكاد يكون باسقا كالشجر .
وآذان الدب تشمخ بازهارها اعلى منه . والقراص يحتل
زاوية بأسرها كان يقرص ، بلا ريب ، ولكنك تستطيع
ان تتعجب على بعد يسير بخضرته القاتمة ولا سيما حينما
كانت الوردة تعلو بفيض الوانها الرشيق .

تفتحت ذات صباح جميل فى ايار . وبينما كانت
بريقاتها تنفتح جاء ندى الليل فاودعها بضع قطيرات
صافية . كنت تخال ان الوردة تبكى . ولكنها ابصرت
فى ذلك الصباح الجميل السماء الزرقاء للمرة الاولى
واحست طراوة الصبا واشعة الشمس تغمرها بلألاء
الفجر . ويسود المسكبة الهدوء حتى انها لو استطاعت
الى البكاء سبيلا لكان ما ذرفته دموع الفرح لا عبرات
الحزن . لم يكن لها صوت ولا تستطيع اكثر من ان
تنشر براسها المنحنى اريجا طريا هو لها بمثابة
الكلمات والعبرات والرجاء .

تحت ، بين جذور الوردة كان ضفدع عجوز دسم
البدن تخال بطنه المسطح مندغما مع التربة . وكان
قد قضى الليل فى صيد الديدان وصغار الذباب ، فجاء
فى الصباح يستريح فى ذلك الموضع الرطيب الظليل .
كانت عيناه المخيفتان تغمضهما اجفان ذات اطراف ،
وانفاس خرساء تمدد خاصرتيه الرماديتين اللزجتين



اللتين تغمرهما الثآليل ، وكانت احدى قوائمه الشنيعة
منتصبة الى جانبه وكسله يمنعه من اجتذابها اليه . ولم
يؤثر فيه سحر هذا الصباح الجميل فتهيأ لنوم القيلولة .

وحينما تهدأ الصبا الهينة هنيهة لا تحمل اريج
الوردة بعيدا كان الضفدع يحس منه قلقا غامضا ، غير
انه لم يعن نفسه طويلا كى يبحث عن مصدره .

وكان الناس قد كفوا عن المجيء الى هذه المسكبة
منذ زمن بعيد . ولد صغير اعتاد ان يجلس بين
الازهار وفد اليها لآخر مرة حينما كان الطقس جميلا فى
الخريف المنصرم ؛ فى ذلك اليوم نفسه اكتشف الضفدع
شقا حسنا تحت حجر اساس وتكوم فيه استعدادا
للنوم الشتوى . فى الصيف كانت اخت الصبى وهى
فتاة ، تظل قرب النافذة تقرأ او تخيط ، وبين حين
وآخر تلقى الى الصغير نظرة . كان هذا فى السابعة
من عمره تقريبا واسع العينين ، كبير الرأس ، نحيف
البنية . وكان يهيم حبا بحديقته (كانت حديقته لأنه
الانسان الوحيد الذى يضطرب اليها) ويقطع اوقاته فى
القراءة تحت اشعة الشمس جالسا على مقعد قديم من
الخشب فى مذهب رملى قرب البيت ظل واضح المعالم لان
من يغلق الصفاقات يحتاج ان يطرقه .

وسألت الاخت من خلال النافذة :

— هل تريد طابتك يا فاسيا ؟ قد يسليك اللعب
بها ؟

— لا يا ماشا افضل القراءة .

كان يظل هناك ساعات مستغرقا فى القراءة . فاذا
كفايته من مغامرات روبنسن والقرصان تغلغل فى
ب الدغل الذى يعرف اخفى اعشابه او يكاد . وقعد
رفصاء امام سويق آذان الدب اطول منه بثلاث مرات
ف به الاوراق الشعراء والضاربة الى البياض ، وراح
يل النظر الى النمل يزحف – نحو بقرة – حشرات المن
مس فى لطف بلوامسه الانابيب الصغيرة التى تحملها على
ورها حتى يستخلص منها النسغ الصافى المحلى ،
راقب الخنفساء السوداء تنهمك فى جر كرتها ،
لعنكبوت تتربص بالذباب فى وسط شباكها البارعة
ى تعكس لمعانا موشوريا ، والورنة العريضة البوز
دفا تحت الشمس وحراشف ظهرها تبرق بريقا اخضر .
ات مرة ابصر مع الغسق قنفذا كاد لأعجابه يصرخ
صفق بيديه ولكنه خشى ان يرعبه فكتم انفاسه ورمق
ينيه الواسعتين الطافحتين بالسعادة الكرة الحية
سائكة التى تشم بخيشومها جذور الوردة بحثا عن
دود وتحرك على نحو غريب قوائمها التى تشبه قوائم
دب .

وقالت الاخت بصوت عال :

– فاسيا ، يا حبيبى ، ادخل ! بدأت الرطوبة تنتشر
ى الجو .

فذعر القنفد وسرعان ما سحب معطفه الشائك على
اسه وقوائمه وتكوم فى كرة مغلقة . ومس الولد



الاشواك باصبعه فازداد الحيوان تقلصا ونفخ على عجل
كانه آلة بخارية صغيرة .

وزاد فاسيا به معرفة . وفاسيا ولد بلغت رقته
وعذوبته ان بدت الحيوانات الصغيرة كانها تفهمه
وتألفه سريعا . ياللفرجة حينما شرب القنفد قليلا من
الحليب فى صحن صغير !

ولم يستطع الصغير هذا الربيع ان يعود الى زاويته
المفضلة . كانت اخته دائما الى جانبه ، لا الى النافذة
ولكن قرب سريره . كانت تقرأ له القصص لانه يجد
العسر كله فى النهوض برأسه الواهن من الوسائد
البيضاء واصغر الكتب يؤود يديه المعروقتين ثم ان
عينيه تتعبان سريعا . اغلب الظن انه لن ينزل الى
زاويته المحبوبة ابدا . وهمس فجأة :

– ماشا !

– ماذا تريد يا حبيبى ؟

– الطقس لطيف فى الحديقة ، أليس كذلك ؟ هل
تفتحت الوردة ؟

وتنحنى الاخت لتقبل خده الشاحب وهى تمسح دمعة
جاهدت اخفاءها .

– اجل يا حبيبى الطقس جميل جدا ، تفتحت
الوردة ، وسنخرج معا لرؤيتها يوم الاثنين وسيسمح
لك الطبيب بذلك .

فيصعد الولد زفرة عميقة دون ان يجيب وتعود
الاخت الى القراءة .

– يكفى . انا تعب . اريد ان انام .

وتمسد الوسائد وتسوى الغطاء الابيض ويلتفت هو نحو الجدار فى عناء ولا يعود ينبس بكلمة ، بينما تتدفق الشمس من النافذة المطلة على الحديقة فتضىء سرير المريض الصغير باشعتها الساطعة وتذهّب شعره الحليق وعنقه الهزيل .

ولم تكن الوردة تدرى شيئا من ذلك . كانت تنمو رائعة الجمال . تتفتح غدا وتبدأ وريقاتها تتساقط بعد غد . هذا كل ما يعمره الورد . ولكن هاتيك الساعات القليلة من حياتها ستجلب لها غير قليل من القلق والآلام .

ولحظها الضفدع .

لما نظر اليها لاول مرة بعينيه الرهيبتين اختلجت عاطفة غريبة فى قلبه الحيوانى . ولم يعد يطيق ان يحول نظره عن الوريقات الرقاق . لقد اعجبته الوردة كثيرا واشتهى ان يدنو من هذا الكائن البديع المعطر . واجتهد فى ان يفصح لها عن حنوه فلم يجد خيرا من هذه الجملة التى القاها بصوت اجش :

– انتظرى حتى التهمك !

فارتعشت الوردة . لماذا كانت مشدودة الى سويقها ؟ كانت العصافير الحرة تزقزق من حولها وتنط من فنن الى فنن وتطير احيانا بعيدا الى حيث لا تدرى الوردة . والفراشات ايضا كانت حرة . ما اكثر ما تتشهى



مثل حريتها ! لو انها كانت لها ندا لهربت من هاتين العينين الشريرتين اللتين تلاحقانها . كانت تجهل ان الضفدع يكمن احيانا للفراشات .

– سألتهمك !

هكذا ردد الضفدع بلهجة معسولة ولكنها اشد وقعا على الاذن وزحف نحو الوردة .

– سألتهمك !

قالها ايضا من غير ان يحول عينيه عنها . ورأت المسكينة قوائمه اللزجة تتشبث باغصانها فاصابها خوف شديد . بيد ان الهولة قد لقى العنت فى تسلق الوردة لان جسمه المسطح انما خلق للتنقل على الارض . وبعد كل جهد يبذله كان ينظر الى الوردة التى يجمدها الرعب وطفقت تناجى ربها :

– يا الهى ، قيض لى ميتة اخرى .

واما هو فقد تابع صعوده . ولكنه عند اصول الافنان الفتية اصيب بالفشل . كانت قشرة الوردة الخضراء القاتمة مقنفذة بالاشواك التى وخزته فى قوائمه وبطنه واذا هو يسقط على الارض تنزف منه الدماء . فزمجر بالوردة وهو يرميها بنظرة حقد :

– قلت لك سألتهمك !

وجاء المساء . كان على الضفدع ان يفكر فى عشائه ؛ فمضى يجر نفسه جرا الى حيث يكمن للهوام الطائشة . ولم يمنعه الغضب من ان يملأ كرشه كالعادة . ولما كانت جراحه غير خطيرة فقد قرر ان

نأنف بعد الاستراحة الزحف على الوردة التى تجتذبه
نقه .
واستراح طويلا . وارتفع النهار ثم جاء الظهـــر .
وردة قد نسيت عدوها او كادت . وكانت قد تفتحت
ا وغدت اجمل كائن فى الحديقة . ولكن لم يكـــن
لك من يتأملها ويفيها حقها من الاعجاب . فالولد
غير فى السرير واخته لا تغادره ولا تقف الى النافذة
. الاطيار والفراشات وحدها كانت تتطاير حولهـــا
حل يدندن ويدخل فى بعض الاحيـــان كؤيسها ولا
ث ان يخرج مذرورا بطلعها . وانحنى بلبل عـــلى
ردة وشدا باغنية . ما اقل ما تشبه هذه الموسيقى
رجة الضفدع ! طفقت الوردة تصغى اليه تغمرهـــا
عادة وتتخيل انه انما يشدو لها . ومن يدرى فقـد
ن ذلك صحيحا . لم تكن ترى العدو وهو يتسلق
صان خفية . هذه المرة لم يعد الضفدع يهتم لقوائم
لبطن . كان يسبح فى دمه ولكنـــــه يصعد فى
اعة . . . وفجأة ، بينما كان البلبل يشدو ارق الحانه
عت الوردة النقيق الذى تعرفه جيدا :
– قلت سألتهمك ، وسأفعل !
والعينان الجاحظتان تحدقـــان فيها من الغصـــن
اور . لم يعد للهولة الا ان يأتى بحركة حتى يقبض
الوردة . وايقنت ان النهاية محتومة . . .
مضى امد غير يسير والمريض الصغير لا يتحـــرك
ه التى ظنت انه نائم كفت عن القراءة فى الكتاب



المفتوح على ركبتيها ومال رأسها رويدا رويدا . ونامت تلك الفتاة التى سهرت على اخيها عدة ليال متتابعة .

وهمس بغتة :

– ماشا .

فقفزت . حلمت انها جالسة عند النافذة وان اخيها يلعب بين الازهار كدأبه فى العام الماضى ويناديها . فلما فتحت عينيها ورأته هزيلا ، موهون القوى صعّدت زفرة مؤلمة :

– ماذا بك يا جميلى ؟

– ماشا ! قلت لى ان شجيرة الورد قد ازهرت . اريد واحدة . . .

– طيب يا حبيبى .

وذهبت تنظر الى شجرة الورد من النافذة . لـــم يكن فيها الا واحدة ولكنها فاتنة .

– هناك وردة جميلة لاجلك . هل تريد ان اضعها فى كأس عند رأسك ؟

– اجل يسرنى ذلك .

ونزلت الى الحديقة ومعها مقص . لم تكن قد خرجت من غرفتها منذ ايام فبهرتها الشمس واصابها الهواء بما يشبه الدوار . ودنت من الوردة حينما كان الضفدع على وشك ان يقبض عليها . فهتفت :

– وى ، يا للقذارة !

وامسكت بالغصن وهزته بقوة فسقط الضفدع على بطنه ارضا . وغضب غضبا شديدا فحاول ان يثب عـــلى

الفتاة ولكنه لم يبلغ الا حاشية ثوبها . ولم تلبث ان دفعته عنها بطرف حذائها فلم يجرؤ على اعادة الكـــرة ورآها من بعيد تقطف الوردة فى حنان وتاخذهـــا الى البيت .

حينما ابصر الولد اخته ومعها الوردة افتر ثغـــره عن ابتسامة واهنة ورفع يده الصغيرة النحيفة بجهـــد كبير وهو يهمس :

– اعطينى . اريد ان اشمها .

فوضعت له الوردة فى يده واعانته على تقريبها من وجهه ، فشم الاريج الحلو وهمس مبتهجا :

– ما اطيبها . . .

ثم اضحى وجهه جهمـا ، جامدًا وسكت . . . الى الابد .

ولم تتحسر الوردة التى قطعت فى ابان بهائها على مصيرها . لقد وضعت قرب التابوت الصغير فى حق على حدة . كان ثمة باقات من ازهار اخرى ولكن احدا لـــم يكن يعيرها انتباها بينما تلقت هى قبلـــة من الفتاة ، وسقطت عليها دمعة كانت اجمل حادث فى حياتها . ولما بدأت تذبل وضعت لكى تجف بين صفحات كتاب ضخم اهدى الىّ بعد ذلك بسنوات مديدة . ولذلك فانا اعرف هذه القصة .

١٨٨٤

## ناديجدا نيكولاييفنا

١

منذ عهد بعيد وانا اود كتابة مذكراتى . والدافع الى كتابتها على جانب من الغرابة . بعض الناس يكتبون مذكراتهم لانهم يختزنون كثيرا من الذكريات التاريخية ، والبعض يريدون ان يحيوا سنوات صباهم السعيدة مرة اخرى او ينموا على الموتى ويدفعوا اتهامات عفى عليها النسيان منذ امد مديد . واما انا فليس عندى اى من هذه الاسباب . انا لا ازال فى اول العمر ، لم اصنع التاريخ ولم ار كيف يصنع . ولست فى حاجة الى ان اذكر الناس بسوء او اعيد لنفسى الاعتبار . هل احيا سعادتى من جديد ؟ لقد كانت قصيرة ونهايتها مؤلمة وذكراها ابعد من ان تسبب لى الفرح . كلا !

اذن ، ففيم هذا الصوت الخفى يهمس فى اذنى ؟ علام افيق فى قلب الليل فارى مشاهد الماضى وصـــوره تسكننى ؟ لماذا حينما يظهر لى شبح شاحب يتدفق الدم الى وجهى وتتشنج يداى ويقطع الرعب والغضب انفاسى كانى فى يوم كنت اواجه اشأم اعدائى ؟

لم استطع التخلص من ذكرياتى واتتنى فكـــرة غريبة . اذا انا وضعتها على الورق فقد اتحلل منهـــا فتتركنى اموت فى سلام . هذا هو الدافع العجيب الـذى يدفعنى للكتابة . ولست ادرى هل يقرأ احد هذا الدفتر . فالامر عندى سيان ولا حاجة بى ان استميح قرائـــى المقبلين العذر عن اسلوبى المهمل او اختيارى موضوعا لا يهم اولئك الذين يصرفون افكارهم الى القضايا العامة اذا لم تقل العالمية . صحيح انى اريد ان يقرأنى انسان معين ولكنه لا ينحو علىّ باللائمة لان كل ما يتصل بى عزيز عليه . هذا الانسان هو ابنة عمى .

لماذا تأخرت اليوم ؟ مرت ثلاثة اشهر منذ ان عدت الى وعيى بعد ذلك اليوم المشهود . واول وجه وقعت عينى عليه كان وجه صونيا . وهى بعده تقضى سهراتها كلها معى وترى فى ذلك واجبا . تقعد عند رأسى او قرب مقعد كبير آتى فاجلس فيه حينما تسعفنى قـــواى وتتحادث او تقرأ لى شيئا . ويحزنها الا اهتم لنـــوع القراءة فاسلم امرى الى ذوقها .

– هل تعلم يا اندرى ان «رسول اوروبـــا» تنشر رواية جديدة عنوانها «لم تكن تتوقع ذلك» .

– حسن جدا يا حبيبتى ، لنقرأها .

– انها من تأليف الميسز غاى .

– حسن ، حسن . . .



وتبدأ قصة لا نهاية لها عن المستر سكريبل والمس غوردن . بعد صفحتين ترفع الىّ عينيها الواسعتيـــن الطافحتين طيبة .

– لن تكون طويلة فـ«رسول اوروبا» تختصر دائما .

– عظيم . انا اسمع .

وتستمر فى قراءة قصة مطولة للميسز غاى بينما انظر انا الى وجهها المنحنى من غير ان اصغى . احيانا ، حينما تجنح الميسز غاى الى الفكاهة تخنقنى العبرات . فتضع صونيا المجلة وتديم الىّ نظرا ثاقبا قلقا وترفع يدها الى جبينى .

– اندرى ، يا حبيبى ، هـــا أنت ذا تعود . . . كف ، كف ! يجب الا تبكى . كل حال يزول . كل شىء ينسى . . .– تقول ذلك بلهجة ام تؤاسى ولدها الذى اصابته صدمة فى رأسه . واهـــدأ على الرغم من ان الصدمة التى اصابتنى لا يذهب اثرها الا مع الحياة التى احسها تتخلى عـن جسدى رويدا رويدا .

اواه يا ابنـــــة العم العزيزة ! كم اقدر عطفك ! ليباركك الله ولتفسح الصفحات السوداء فى حياتك – الصفحات التى كتب عليها اسمى – المجال لرواية سعيدة على الا تشبه رواية الميسز غاى المملة . . .

الجرس يرن . ها هى ذى اخيرا ! انها آتيـــة لتلطيف جو غرفتى المظلمة الخانق وقطع حبل الصمت باحاديثها الحلوة واضاء تها بحسنها .

## ٢

انا لا اذكر امى وفقدت ابى فى الرابعة عشرة من عمرى فكفلنى احد اقاربى الابعدين وارسلنى الى ثانوية فى بطرسبورغ حيث انهيت دراستى بعد اربعة اعوام . كنت اتمتع بحرية مطلقة . فوصيى منصرف الى اعماله لا يفعل الا ان يزودنى بالمال الذى يراه ضروريا لوجودى . وهذا الدخل المتواضع يجعلنى على اى حال فى غنى عن التفكير فى خبزى اليومى ويتيح لى ان استجيب الى ميولى فيما يتعلق باختيار مسلكى فى الحياة .

هذاك الاختيار قد وقع منى منذ زمن بعيد . منذ الرابعة من عمرى كنت اهيم حبا بالاقلام والالوان ولما تخرجت من الثانوية كان رسمى لا بأس به فقبلت فى اكاديمية الفنون الجميلة من غير عناء .

هل انا موهوب ؟ الآن ، وقد حكمت بالامد يدى الى ريشة ابدا يخيل الىّ انى استطيع ان احكم على نفسى حكما نزيها . نعم ، كنت موهوبا . وانا لا اقطع فى هذا الامر استنادا الى رأى رفاقى او العارفين الذواقين ، كلا ، ولا بناء على سرعة دراساتى فى الاكاديمية ؛ معيارى هو العاطفة التى تجتاحنى منذ ان انكب على العمل . الفنان وحده يستشعر هذا الانفعال اللذيذ الآسر وهو يقدم على لوحة جديدة يجسد فيها حلمه . الفنان وحده يستطيع ان ينسى كل شىء فى الدنيا ويستغرقه الخلق . . . اجل



كنت موهوبا وكان فى وسعى ان اكون فنانا من مشاهير الفنانين .

ها هى ذى دراساتى ومخططاتى ولوحاتى المبتداة معلقة على الجدران . وها هى ذى . . . سأسأل ابنة عمى ان تنقلها الى غرفة اخرى . لا ، بل يجب وضعها عند قدمى السرير تماما حتى تديم الىّ نظرها الحزين الذى يخيل انه يرى المقصلة . انها تبدو حية بثوبها الازرق وخصلات شعرها الكستنائية المتمردة على قبعتها البيضاء الجميلة ذات الشارة المثلثة الالوان . اواه ، يا شارلوت ، يا شارلوت ! اأبارك اللحظة التى خطر لى فيها ان ارسمك ام العنها ؟

لقد حاول بيسونوف دائما ان يصرفنى عن ذلك . لما اعلمته بعزمى رفع كتفيه وقطب تقطيبة ضيق وقال :

— انتم اناس مسلوبون ايها السادة الرسامون الروس . الموضوعات الوطنية لا تعوزكم ! شارلوت كوردى ! ماذا يهمك من امر شارلوت ؟ كيف تصنع حتى تتمثل عصرها ؟

ربما كان على صواب . . . ولكن صورة البطلة الفرنسية كانت تسد على دروبى حتى انى بدأت اللوحة فعلا . كنت اريد ان امثلها بقامتها كلها ، وحدها ، تواجه الجمهور بنظرتها المستقيمة وخطة القتل النهائية ليست مكتوبة الا على وجهها . اليد التى ستضرب ضربة مميتة لا تزال جامدة ، زرقة الثوب القاتمة توضح

بياضها الهش والمنديل الدانتيلى المعقود على صدرها يبرز لطف العنق الذى سيخدده غدا خط دم . . . واذكر مصدر الهامى . . . كنت قد قرأت قصتها فى كتاب عاطفى وقد يكون مزيفا للامرتين ؛ وولد فى ذهنى تفاصح هذا الفرنسى الثرثار الذى يعتز بلهجته واسلوبه نموذجا للفتاة النقية المشغوفة بالخير . وبحثت عن كل ما استطعت ان اتزود به بهذا الموضوع وتفحصت كثيرا من صورها وقررت ان ارسم .

والاثر الاول مثل الحب الاول يستولى عليك قلبا وروحا . كنت استعيد الصورة وافكر فى اقل تفاصيلها اهمية فصرت اراها واضحة حتى وانا مغمض العينين .

ولكن بعد ان بدأت اللوحة بخوف سعيد وقلق فرح اصطدمت حالا بعقبة لم اكن اتوقعها ، عقبة يعسر تخطيها اذ لم يكن عندى نموذج .

كان كثير من الاشخاص يزاولون هذه المهنة فى بطرسبورغ فاخترت امرأة بدت لى خير من يحقق فكرتى وطفقت اعمل دائبا . ولكن تلك الآنا ايفانوفنا قلما تشبه حلمى مع الاسف ! كانت تقف وقفة بديعة وتظل ساعة كاملة من غير ان تتحرك وتكسب روبلها فى وجدان ، سعيدة بكونى لا اسألها ان تتعرى وقالت اول جلسة بتنهيدة وقليل من احمرار فى وجهها :

— ما ابدع ان يقف المرء لابسا ! هل تعلم ان هناك من يحدقون فى كل مكان من جسدك . . .

ولم تكن نموذجا الا منذ شهرين ولم تتعود المهنة



بعد . واعتقد اصلا ان الفتيات الروسيات لا يتعودنها ابدا .

ورسمت الذراعين والكتفين والقامة ولكنى لما وصلت الى الوجه اصابنى اليأس . الوجه الصغير المدور والانف المنتفش قليلا والعينان الصغيرتان الرماديتان اللتان تنظران الىّ على نحو فيه ثقة وبعض الرثاء تحت حاجبين مقوسين ، كل هذا محا مثالى الذى شيدت . ولم اقدر على تحويل هذه القسمات الدقيقة الى وجه لوحتى . جاهدت ثلاثة ايام او اربعة ثم عدلت يائسا . وكان فقدان النموذج الموفق يعرضنى للالتجاء الى آخر سهم فى الكنانة اعنى ان ارسم الوجه دون نموذج ، «على عماها» كما يقول الرسامون . وكان وضوح الرؤية فى ذهنى يقوى املى بالنجاح . ولكن ما كدت انكب على العمل حتى طارت الريش الى الطرف الآخر من المرسم . فعوضا عن الوجه الحى صنعت مخططا لان الفكرة لم تكن مجسدة لحما ودما .

ونزعت القماش عن المنصب ووضعته فى زاوية ووجهه الى الجدار . واوهننى الاخفاق حتى اخذت اشد شعرى . علام حياتى اذا كنت عاجزا عن تحقيق لوحة رائعة (ما اروعها فى ذهنى) والقيت بنفسى على سريرى وحاولت ان اخفف من حزنى بالنوم .

وبينا انا بين نائم ويقظان قرع الباب واذا الموزع يحمل لى رسالة من صونيا . كانت سعيدة بمشروعى الكبير والصعب وتأسف لعدم عثورى على نموذج وتكتب

قائلة : «ألا استطيع ان انفعك بعد خروجى من المعهد ؟ انتظر ستة اشهر يا اندرى ، سآتى الى بطرسبورغ ويكون فى وسعك ان ترسم منى عشرات اللوحات التى تريدها لشارلوت كوردى .. . على ان يكون بينى وبين التى تملك الآن روحك ، كما تقول ، بعض الشبه» .

ولم يكن بصونيا شىء من شارلوت . فهى عاجزة عن التسبب بالجراح وتؤثر شفاءها وتتقن ذلك اتقانا كبيرا .

ولعلها كانت تشفينى انا ايضا . . . لو كان شفائى ممكنا .

## ٣

وذهبت مساء الى بيسونوف .

كان منكبا على مكتبه المزدحم بالكتب والمخطوطات وقصاصات الصحف يملأ ورقة بخطه الانيق الدقيق السريع . ورمى الىّ نظرة من غير ان ينقطع عن عمله ؛ كانت تهاجمه فكرة فى تلك اللحظة اغلب الظن ويحرص على تسجيلها حالا . وجلست فى الظل ، على ديوانة عريضة واطئة مهترئة بعض الشىء يتخذ منها سريرا وادمت النظر اليه خمس دقائق . كانت صورته الجانبية الواضحة الباردة مألوفة عندى : رسمتها مرات عديدة فى



دفتر رسومى ولونتها ايضا . ولم احتفظ بهاتيك الدراسة لانه ارسلها الى امه . ولكنها ذلك المساء لفتت انتباهى بخاصة ، اما لانى كنت فى الظل ونور المصباح ذى الاباجور الاخضر يضيئها كلها ، واما لان اعصابى كانت مضعضعة . كنت احلل وجهه تفصيلا ، مستكشفا قسمات قد فاتتنى ملاحظتها حتى ذلك الحين . كان له وجه رجل ذى ارادة ، قد لا يكون نابغة ولكنه ذو ارادة .

الجمجمة المربعة التى تتصل اتصالا مباشرا بالقذال العريض القوى ، الجبهة الكروية ، الحاجبان المنحدران نحو اصل الانف يفصلهما غضن عمودى ، الفكان السميكان ، الشفتان الرقيقتان . كل هذا بدا لى اليوم جديدا .

وسألنى وهو يضع قلما ويلتفت فجأة :

— علام تنظر الىّ هكذا ؟

— من اين عرفت ذلك ؟

— احسسته . يخيل الىّ ان هذا الاحساس ليس وهما لانه كثيرا ما يخامرنى .

— كنت ادرس وجهك بوصفى رساما . ان لك سحنة اصيلة يا سيرغى فاسيلييفتش .

فقال ساخرا :

— أهكذا ؟ فليكن .

— لا ، جديا . انت تذكرنى بواحد . رجل مشهور . . .

فقال بيسونوف من غير ان يدعنى اكمل :

– بأفاعيله السيئـــة ؟ انا لســـت من انصار لافاتر . . . ولكن ماذا بك ؟ علام هذه السحنة ؟ الحال ليست على ما يرام ؟

فاجبت بلهجة يائسة :

– لا ، فى الحقيقة . تركت كل شىء . . .

– كنت على يقين من ذلك . لا ريب فى انك لـم تعثر على نموذج ؟

– لا ، لا ، ثم لا . وانت تعلم كم بحثت . ولكن بحثى ذهب عبثا وهو امر مثبط للهمة . ولا سيما هذه الآنا ايفونوفنا ، لقد انهكتنى . لقد افسدت ملامحهـا المستوية كل شىء ، حتى يخيل الىّ ان الصورة قد غدت فى ذهنى اقل وضوحا :

– أكانت واضحة ؟

– نعم ! لو ان فى الوسع الرسم والعينان مغمضتان لكان ذلك رائعا . ها هى ، ماثلة .

ويظهر انى اغمضت عينى على نحو مضحك لانـــه انفجر مقهقها .

– لا تضحك ، انا حزين .

وسرعان ما عاد الى الجد .

– فليكن . ولكن الامر مضحك مبك . ألم انصحك بهجر هذه الفكرة .

– وهذا فعلته .

– نعم . ولكن ما اكثر الوقت المضاع والعصبية



والخيبة ! كنت اعرف ذلك منذ البداية لا لانى توقعت فقدان النماذج ولكن الموضوع ليس من شأنك . يجب ان تتدفق فى عروقك دماء اولئك الذين رأوا مـــارا وشارلوت كوردى والثورة الفرنسية . واما انت فمـــن تكون ؟ مثقف روسى ضعيف رخو ! يجب ان تكون انت نفسك قادرا على عمل من هذا النوع . وانت ؟ هـــل تستطيع ان تقايض ذات يوم على الريشة بخنجر ؟ هكذا يقول اصحاب الاساليب المفخمة . المسألة بالنسبة اليك اشبه برحلة الى المشترى .

– كثيرا ما خضنا النقاش فى هذا الشأن يا سيرغى فاسيلييفتش ولا اخال ان احدنا قادر على اقناع الآخر . ان من خواص الفنان ان يحيـــا فى جلد شخصياته . أوجب على رفائيل ان يكون مريم العذراء لكى يرسـم المادونا ؟ هذا خطل يا سيرغى فاسيلييفتش ! والواقع انى اناقض نفسى : لم اكن اريد مناقشتك وها أنـذا افعل من جديد .

وهم بيسونوف بالرد ولكنه عدل عنه . وقال وهو ينهض وينزع الغرفة بخطوات خرساء من حذائـــه اللبادى :

– كما تشاء ! لنكف عن المناقشة ولا نسمـــم جراحات القلب الخفية كما قال لست ادرى اى شاعر .

– لم يقلها احد على ما اظن .

– ربما . ذاكرتى سيئة فى حفظ الشعر . . . ماذا

لو اوصيت على السماور لكى نرفع من شأننا ؟ انها ساعة الشاى .

ودنا من الباب وصاح بصوت آمر :

– الشاى !

انا لا احب هذه الطريقة فى معاملة الخدم . وظللنا هنيهة طويلة صامتين . وارتددت انا مستلقيا على نمارق الديوانة بينما استمر هو على مسيره . كان يفكر اغلب الظن . . . وتوقف اخيرا امامى وسألنى بلهجة جدية :

– لو يسرّ لك نموذج فهل تحاول مرة اخرى ؟

فقلت ملولا :

– طبعا ، ولكن من اين انبش عنه ؟

وخطا بضع خطوات .

– أرأيت يا اندرى نيكولاييفتش . . . انـــا اعرف . . . امرأة . . .

– اذا كانت من الطبقة الراقية فلن تقف لى .

– ليست حتى من الطبقة الوسطى . ولكن . . . هناك «ولكن» كبيرة جدا .

– ما هى ، قل ؟ الا اذا كنت مازحا ؟

– امزح ، مستحيل . . .

فقلت متوسلا :

– سيرغى فاسيلييفتش .

– اصغ الىّ جيدا . هل تعلم ماذا اقدر فيك ؟ – كان قد توقف امامى من جديد – انا لا اكبرك الا بعامين



ولكنك تحتاج الى عشرة اعوام على الاقل حتى تعانى ما عانيت . انا انسان مأفون ، شرير و . . . فاسق (وشدد على الكلمة) . من الناس من يفوقوننى ولكنى ارانـــى اشد منهم ذنبا . وابغض نفسى لانى لا استطيع ان اكون على ما اردته لذاتى من نقاء . . . كنقائك مثلا .

– اى فسق واى نقاء تقصد ؟

– انا اسمى الاشياء باسمائها . انا اتشهى غالبا سلامك ووجدانك الصافى ، اتشهى ما لديك . . . ولكن ماذا يهم ! هذا مستحيل ! – قالها قاطعا غضوبـــا – فلنكف عن الكلام فى ذلك .

– اوضح لى ماذا لدىّ برأيك على الاقل .

– لا شىء . . . لا احد . . على اى حال استطيع ان اقولها : ابنة عمك صوفيا ميخائيلوفنا . ليست ابنة عمك لحما ، أليس كذلك ؟

– لا ، ابنة عم فى الدرجة الثالثة .

– وهو كذلك . انها خطيبتك – قال هذا بلهجـــة باترة .

فهتفت به :

– من اين لك علم ذلك ؟

– اعلم . فى الماضى كنت احدس وانا الآن متيقن . وقد كتبت لى امى علمت بالامر هنالك . . . هل من سر فى مدينة ريفية ؟ الحق ما اقول ، أليس كذلك ؟

– لنفرض .

– منذ طفولتكما ؟ بقرار من الاهل ؟

– نعم . بادئ الامر لم اكن اعلق على ذلك اهمية واما الآن فاخاله منتهيا الى الزواج . انا لا اريد ان يعلم كل الناس ولكنى لست حزينا لعلمك انت .

فهمس مشتت النظرة :

– احسدك لان لك خطيبة .

وصعد زفرة عميقة .

– لم اكن ادرى انك عاطفى يا سيرغـــــى فاسيلييفتش .

فاستأنف من غير ان يصيخ الىّ سمعا :

– اجل احسدك واتشهى نقاءك وآمالك وسعادتك المقبلة وحبك الذى ترعرع منذ الطفولة .

وقادنى الى المرآة بيده وقال :

– قارن . من انت ؟ ملاك قرب شيطان . الشيطان هو انا . قد اكون امتن بنيانا واعرض ما بين المنكبين واقوى صحة . ولكن انظر (ومس شعره الذى بـــدأ يصلع على جبينه) . اجل يا صديقى انه «لهيب القلب مهدور فـــى الصحراء» ! ماذا اقول ، انهـــا القذارة بعينها . . .

–ماذا لو عدنا الى شأننا ؟ فيم رفضك تعريفـى بنموذجك ؟

– لانها اسهمت فى ذلك الهدر . لم ابالغ حينمـا قلت لك ليست حتى من الطبقة الوسطى . انها فـــى آخر درك من دركات المجتمع . تحتها لا يوجد الا القاع ،



الهوة التى قد تهوى اليها قريبا . قاع الضياع . هى ضائعة منذ الآن اصلا .

– بدأت افهمك يا سيرغى فاسيلييفتش .

– خيرا تفعل . أرأيت الـ«ولكن» ؟

– احتفظ بهذه الـ«ولكن» لنفسك . لماذا ترى من واجبك ان تحمينى وتصوننى ؟

– قلت لك لماذا احبك . انت نقى ، انتما نقيان كلاكما . انت حادث نادر ، معطر ، يطفح بالطراوة . احسدك ولكنى سعيد بتملى هذا المنظر . وانت تريدنى على ان الوثه . لا ، لا تأمل فى ذلك .

– ما هذا يا سيرغى فاسيلييفتش ؟ انت لا تثـق مثقال ذرة بالنقاء الصافى الذى تعزوه الىّ مـــا دمت تخشى علىّ من الاشياء الفظيعة لمجرد لقاء مع هـــذه الامرأة .

– اسمع ! انا وحدى قادر على تسليمك اياها اذا حلا لى ذلك . انا اصنع ما اريد . ولا اريد . Dixi* .

كان هو الذى يجلس هذه المرة وانا اذرع السجادة مضطربا .

– هل تحسب انها توافق ؟

– واما هذا فنعم . . . بل لا ، – اضافها قاطعا – لن توافق ابدا . كفاية .

رجوت ، غضبت ، برهنت على حماقة دور الوصى

---

* قلت . (باللاتينية) .

الذى يتخذه قبلى ولكن هذا كله لم يجد فتيلا . لقد رفض باتا واوجز :

– انا لا اقول عمرى «dixi» مرتين .

فاجبت حانقا :

– اهنئك على ذلك .

وتحدثنا عن التوافه ونحن نشرب الشاى ، ثم انسحبت .

٤

كسلت طوال اسبوعين . كنت اذهب الى الاكاديمية وحسب لاشتغل فى مسابقة عن موضوع التوراة معروف : تحول امراة لوط الى عمود ملح . كان لوط واهله وما اشبه جاهزين ولكنى لم اكن ادرى كيف اصور العمود : أاصنع شيئا يشبه شاهدة القبر ام تمثالا لقرينة لوط من الملح الجبلى ؟

وتنصرم الايام طويلة مملة . تلقيت رسالتين من صونيا وقرأت ثرثرتها اللذيذة عن الحياة فى المعهد ، عن قراءاتها فى منجى من الناظرات وعيونهن الثاقبة وضممت الرسالتين الى رزمة الرسائل السابقة المعقودة بشريط وردى اللون . هذا الشريط احتفظ به منذ الخامسة عشرة من عمرى ولا استطيع قذفه . والحقيقة ، لماذا ارميه ؟ لم يكن مزعجا ابدا . ولكن ما عسى ان يقول بيسونوف اذا راى هذا البرهان عن عاطفيتى ؟ هل يعطفه علىّ نقائى او يرهقنى بالتهكم والسخرية ؟



لقد اساء الىّ حقا . ما العمل ؟ هل اهجر اللوحة ام ابحث عن نموذج من جديد ؟

ووافانى حظ لم اكن اتوقعه . ذات يوم كنت مضطجعا على الديوانة اقرأ رواية فرنسية حمقاء حتى استشعرت وجعا فى راسى من وصف المشارح والشرطة السرية والذين عادوا الى الحياة بعد موت يكفى لقتل عشرين شخصا واذا الباب يفتح على هيلفريخ .

تصوروا ساقين هشتين مقوستين وجذعا ضخما منسحقا بين حدبتين وذراعين طويلتين عجفاوين وكتفين متطاولتين كانهما تعبران عن شكوك ابدية ورأسا ملقى الى الوراء بعض الشىء بوجه فتى شاحب ، مكتنز قليلا ولكنه لطيف . كان هذا كله رساما . والهواة يعرفون جيدا لوحاته التى لا يتغير موضوعها ابدا . كان هيلفريخ اخصائيا فى رسم القططة : قططة نائمة ، قططة مع العصافير ، قططه متنمرة . بل رسم ذات مرة هرا نشوان ذا عينين مرحتين وقربه قدح من الخمر . فقد بلغ ذروة فى رسم القططة ولم يرسم اشياء اخرى . واما الحواشى – الخضرة التى يظهر منها انف وردى وعينان ذهبيتان ضيقتا الحدق ، شرشف ، سلة فيها اسرة كاملة من القطيطات ذوات الآذان الشفافة – فقد كان يقصدنى لاجلها . ذلك اليوم ايضا كان معه ملف من الورق الازرق . وبعد ان بسط لى يده الشاحبة المعروقة وضع الملف على المنضدة واخذ بفكه . سألت :

– ايضا قط ؟

– ايضا . . . هنا يجب رسم سجادة . . . وفي الاخرى طرف كنبة . . .

وسحب الورقة وارانى لوحتين ابعادهما صغيرة . القطعة جاهزة تماما بارزة على القماش الابيض .

– كنبة او شيء آخر . . . ارسمها انت . انا ، زهقت روحي منها .

– متى تهجر قططك يا سيميون ايفانوفتش ؟

– صحيح ، يجب هجرها . انها تزعجني كثيرا . ولكن ماذا افعل ؟ انها مربحة . فظاعة صغيرة مثل هذه تسوى مئتي روبل .

وباعد بين ساقيه النحيلتين ورفع كتفيه المرفوعتين خلقة وبسط ذراعيه كأنه يعلن لى عن دهشته من ان فظاعة كهذه تجد شارين .

خلال عامين كسب شهرة بقططه . ولم ار قبله ولا بعده (اذا استثنينا لوحة للمرحوم غون ربما) مثل حذقه في فن تصوير الهررة من مختلف الاعمار والوان الوبر وشتى الاوضاع . وهيلفريخ اذ اعارها انتباها خاصا قد اهمل كل شيء آخر . كرر مفكرا :

– انها مربحـــة . . . لم يحتاج احـــدب على شكلي من المال ؟ ومع ذلك فأحسبني يوما بعد يوم اعجز من الشروع بعمل حقيقي . انا اغبطك يا اندري . انا لا ارسم الا هذه البهائم منذ عامين . . . من كل بد ،انا اهيم بها ولا سيما حية . ولكني اغرز فيها ، اغوص . . .



ومع ذلك فانا اكثر منك موهبة . ألا تحدس ذلك يـــا اندري ؟ – طرح سؤاله في عذوبة وكياسة .

فاجبته باسما :

– لا احدس . انا من ذلك على ثقة .

– ماذا جرى لشارلوتك ؟

فابديت حركة محزونة ، فتابع :

– لا تسير على ما تروم ؟ ارني . . .

وهززت رأسي من غير ان اتحرك من مطرحي فذهب ينبش كومة اللوحات القديمة الملقاة في احدى الزوايا . ثم وضع العاكس على المصباح وركز لوحتي غير المنجزة على المنصب واضاءها .

قال بعد صمت مديد :

– افهمك . هذه البداية يمكن ان تؤدي الى شيء . ولكنها على اي حال آنا ايفانوفنا . هل تعلم لمـــــاذا اتيتك ؟ اريد ان آخذك معي .

– الى اين ؟

– اينما كان . الى الخارج . انا حزين يا اندري واخاف ان اعود الى الشرب .

– ترهات !

– لا ، لا . احس شيئا يحفر هنا (واري موضع فم المعدة) . – ثم غنى بصوته الرفيع فجـــأة : «اود ان انسى نفسي وانام» . جئتك حتى لا اكون وحدي . اذا بدأت ، دام ذلك اسبوعين ، انطرح بعدهما مريضا . الحقيقة ، هذا مضر . . . لمن كان له مثل جذعي هذا .

واستدار مرتين على كعبيه ليقدم لى حدبتيه . قلت :

– فكرة ! ماذا لو انتقلت الى عندى ؟ سأعرف انا كيف احتجزك .

– فكرة رائعة . سافكر فيها . يا الله ، تعال .

لبست ملابسى وخرجنا نخب فى طين بطرسبورغ . كنا فى الخريف وريح غضوب تهب من البحر والماء يعلو . سرنا على طول رصيف «القصر» . كان النهر الجامح يلطم الكورنيش الصخرى بامواجه المزبدة . وبين حين وآخر ينبعث برق باهر يشق الظلمة التى تلف الضفة الاخرى يعقبه دوى عميق : كان هذا مدفعا يطلق فى القلعة . ويعلو الماء . وقال هيلفريخ :

– اود ان يعلو ايضا . انا لم ار فيضانا قط . لا بد انه شىء طريف .

ولبثنا مدة طويلة نحدق فى الظلمات الهائجة . وقال رفيقى اخيرا :

– لن يرتفع اكثر من هذا . الريح تحور الى الهدوء . مؤسف . انا ما رأيت فيضانا قط . . . تعال .

– الى اين ؟

– على غير هدى . . . اتبعنى . اريد ان آخذك الى محل ما . ان حماقات الطبيعة تخيفنى . فلنهملها . احرى بنا ان نذهب فنرى الحماقات الانسانية .

– اين يا عزيزى سينيا ؟

– سترى . . . عربة !

ومضينا فى العربة . وامر هيلفريخ الحوذى ان



يقف فى شارع فونتانكا امام باب خشبى منحوت مدهون .

واجزنا فناء قذرا يقع بين بنايتين طويلتين هرمتين بطابقين ، وكاشفان قويان معلقان على طرفى درج مدخل ، مثقل هو ايضا بالنحت المحبر على الطراز الروسى القديم ، يغرقاننا بنورهما . وكان اناس يبممون الوجهة التى نيمم ، سادة بمعاطف الفرو ، سيدات ببرانس طويلة صارخة الالوان : ازهار من الحرير على قاع المخمل القطنى ، بلفاعات فى الاعناق ومناديل من الحرير الابيض على الرؤوس . كل هؤلاء كانوا ينجرفون الى المدخل وبعد ان يصعدوا بضع درجات يخلعون ثيابهم واذا هم ، اكثرهم ، يعرضون زينات بائسة : القطن يحتل فيها مكان الحرير والبرونز مكان الذهب والزجاج يقلد اللآلئ ، والاسبيداج والمساحيق مكان طراوة الوجوه ولمعان العيون .

واخذنا بطاقات الدخول من شباك التذاكر ودخلنا صفا من الغرف فيها مناضد صغيرة وغلفنى هواء خانق مشبع بروائح غريبة . وكان دخان التبغ يرنق فى الجو مختلطا بروائح البيرة والمراهم الرخيصة ، والحشد يئز ازيزا ؛ وبعض الناس يتسكعون كيفما اتفق وبعض قد جلسوا الى المناضد وامامهم قنان . وجوههم ، رجالا كانوا ام نساء ، تعكس تعابير غريبة . كلهم مصطنعون فى المرح ويطيلون الكلام فى شىء لا يعرفه احد .

واتخذنا مجلسنا وطلب هيلفريخ لنا شايا . وجعلت احرك ملعقة فى فنجانى وانا اصغى الى سمراء قصيرة القامة ، مكتنزة ذات وجه غجرى وهى تجيب رفيقها الذى كان يسألها ما اذا كانت تضطرب الى هذا المكان دائما ، تجيب بلكنة المانية وجرس مزهو :

– مرة فى الاسبوع . انا لا استطيع ان آتى دائما لان علىّ ان اذهب الى اماكن اخرى . هاك ، اول امس كنت فى النادى الالمانى ، امس فى الاورفيوم ، اليوم انا هنا ، غدا ساكون فى المسرح الكبير وبعد غد فى «مسرح التجار» ، ثم فى الاوبريت ، ثم فى قصر الازهار . . . اجل انا اذهب كل يوم الى احد الامكنة . وهكذا ينقضى die ganze Woche * .

ونظرت من عل الى جليسها الذى قد تقلص من عرضها لبرنامج الالهيات الفخم ذاك . كان رجلا فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، اشقر ، ضيق الجبهة تظله طرة صغيرة من الشعر الذى لا لون له ، وسلسلة من البرونز تلمع على صدريته . وتنهد خجولا من هذه السيدة الجميلة . أكان قادرا هو البائع المتواضع فى مخازن آبراكسين على ان يلازمها كل مساء فى النوادى والملاهى ؟

ونهضنا ورحنا نجوس الغرف . فى نهاية الصف

* الاسبوع كله . (بالالمانية) .



كان باب واسع يفضى الى قاعة الرقص . على النوافذ سجف من الحرير الاصفر ، السقف مدهون ، على طول الجدران صفوف من الكراسى ، فى زاوية القاعة كشك واسع ابيض على شكل محار تعزف فيه اوركسترا من خمسة عشر عازفا . ونسوة رائحات جائيات مثنى مثنى اغلبهن متخاصرات والرجال جالسون يراقبون . كان الموسيقيون يدوزنون آلاتهم . وبدا لى وجه عازف الكمان الاول مألوفا . سألت وانا امس كتفه :

– ألست فيدور كارلوفتش ؟

فاستدار نحوى . رباه ، كم انتفخ وهرم وشاب !

– بلى ، انا هو . وماذا تريد ؟

– هل تذكر الثانوية . . . كنت تأتى وكمانك الى دروس الرقص .

– اجل . والآن اجلس هناك على مقعد فى زاوية القاعة . واذكرك . كنت راقصا ماهرا . . .

– أتعمل هنا منذ امد بعيد ؟

– حوالى ثلاثة اعوام .

– هل تذكر يوم جئت قبل الوقت وعزفت فى القاعة الفارغة مرثاة لارنست ؟ لقد سمعتك .

فلمعت عيناه المنتفختان .

– حقا ؟ كنت تسمعنى ؟ كنت احسبنى وحدى . اجل ، كان هذا فى الماضى . . . ولكن انتهى . . . انا الآن هنا : فى ايام المرفع وايام الفصح اعزف فى مسارح الشوارع اثناء النهار وآتى مساء الى هذا

الملهى . . . (وظل هنيهة صامتا ثم همس كأنه يحدث نفسه) عندى اربعة ابناء وبنت . احد الصبيان ينهى هذه السنة دراسته فى Annen-Schule وعليه ان يدخل الجامعة . . . انا لم اعد قادرا على عزف مرثاة ارنست .

ولوح رئيس الاوركسترا عدة مرات بقوس كمانه واندفعت الموسيقى من الاوركسترا الهزيلة فى بولكا تصم الآذان . واتبع الرئيس بالضجة صوت آلته الحاد . واخذت الثنائيات تدور والاوركسترا تصدح .

قلت :

– تعال يا سينيا . هذا مضجر . . . تعال نشرب الشاى عندى ونثرثر فى اشياء طيبة .

فكرر قولى مبتسما :

– فى اشياء طيبة ؟ طيب ، لنذهب !

وبينا نحن نشق ممرا لنا نحو المخرج توقف هيلفريخ فى مكانه لا يريم . قال :

– وى ، هاك بيسونوف . . .

فالتفت وابصرته . كان جالسا امام منضدة من المرمر عليها قنينة الخمر والاقداح وما لست ادرى ايضا . كان مضىء العينين ينحنى على اذن جارته التى ترتدى ثوبا من الحرير الاسود ويتكلم فى حيوية . ولم اكن ارى وجه جليسته ولكنى لاحظت ان لها قواما ممشوقا اهيف وذراعين بضتين وشعرا اسود معقوصا على قذالها . وقال لى هيلفريخ :



– حظك كبير . هل تعرف هذه الانسانة ؟ اطرب ! انها هى شارلوتك .

– هى ؟ فى مثل هذا المكان ؟

## ٥

كان فى يد بيسونوف قدح خمر . وثبت علىّ عينيه الحيتين الحمراوين ولم يخف عنى استهجانه .

ونهض واقبل علينا .

– ماذا تصنعان هنا ؟

فاجبت باسما :

– جئنا نراك . ولست بآسف لذلك لان . . .

وضبط النظرة التى زلقتها نحو رفيقته وقاطعنى بلهجة جافة :

– لا تأمل فى ذلك . . . أهو هذا الهيلفريخ الذى اعلمك . . . ولكن لا ينفعك ذلك . لن اسمح بذلك . . . سامضى بها .

ولما عاد مسرعا الى المرأة قال لها بصوت قوى :

– هيا بنا يا ناديجدا نيكولاييفنا .

وادارت رأسها ولاول مرة رأيت وجهها مدهوشا .

اجل ، فى ذلك المكان الموبوء رأيتها للمرة الاولى . كانت مع ذلك الرجل الذى يفتش فى الفسوق عن متنفس لحياته النشيطة المغرورة الانانية . وكانت هى تجلس الى قنينة فارغة وعيناها حمراوان بعض الاحمرار ووجهها شاحب متعب ، تلبس ثوبا مهملا .

وكان القاصفون يتزاحمون حولنـــا ، تجار مدمنون ، باعة بؤساء يقضون حياتهم وراء بسطاتهم ويفرجون فى الملهى عن ارواحهم الحقيرة ، نساء فاسدات تعودن الجنوح ، فتيات لـم يمسسن بشفاههن كأس الفسق الا منذ امد قريب ، خياطـات ، فتيات مخازن . . . كنت ارى اليهـا وهى تتدحرج نحو الهوة التى حدثنى عنها بيسونوف ان لم تكن قد وقعت فيها .

وجعل بيسونوف يستعجلها :

– هيا بنا يا ناديجدا نيكولاييفنا !

نهضت ، نظرت اليه فى دهشة فسألت :

– الى اين ؟ لاية مناسبة ؟

– لم اعد ارغب فى البقاء هنا . . .

– اذن فاذهب . . . أليس هذا صديقك وهـذا هيلفريخ ؟

فقال فى عنف :

– أسمعى يا ناديا . . .

فقطبت حاجبيها ورمته بنظرة غاضبة .

– باى حق تكلمنى على هذا النحو ؟ مرحبـا يا عزيزى سينيا .

فاخذ هيلفريخ يديها وشد عليهما وقال :

– اسمع يا بيسونوف . لا تكن احمق . اذهب من هنا اذا شئت . واما ناديجدا نيكولاييفنا فباقية معنا . سنقول لها اشياء مهمة جدا . هل تسمحين يا ناديجدا نيكولاييفنـــا بان اقدم لك لوباتين ، فنان رسام ،



صديقى وصديقـــه (واشار الى بيسونوف الذى كان يتخذ هيئة عابسة) .

وقال لى فجأة جم المرح :

– انها تحب اللوحات جدا يا اندرى ! صحبتها الى المعرض العام الماضى . ورأينا ايضا دراساتك . هل تذكرين ؟

قالت :

– نعم .

وردد بيسونوف :

– ناديجدا نيكولاييفنا !

– دعنى وشأنى . . . اذهب حيثما شئت . سابقى مع سينيـــا والـ . . . سيد لوباتين . ان فى ذلك تسرية عن نفسى . . . منك ! – صرخت به فجـــأة حينما رأت انه يريد ان يرد عليها – اذهب عنى . . . انت تثير اشمئزازى . اتركنى ، اذهب . . .

فاستدار بقوة وخرج من غير ان يودعنا . وقالت وهى تصعد زفرة عميقة :

– يكون احسن . . . دونه . . .

وتساءل سينيا :

– لماذا تتنهدين يا ناديجدا نيكولاييفنا ؟

– لماذا ؟ لان عليه الا يسمح لنفسه بخلائـــق ذوى العاهات هؤلاء . . . (واشارت برأسها الى الحشد المتدافع فيما حولنا) . على اى حال سيان عندى . . .

زهقت روحى من هذا كله . . . بل افظع ، وانا لا اعثر على كلمة اقوى . لنشرب يا سينيا ؟

فرمانى بنظرة استعطاف .

– اذن لكنت مسرورا يا ناديجدا نيكولاييفنـــا ولكنى لا استطيع . انه هو . . .

– ماذا ؟ سيشرب معنا .

– لا .

– اذن نشرب وحدنا .

– يمنعنى من الشرب .

– مؤسف . . . وتطيع ؟

– عاهدته .

فنظرت الىّ فى اهتمام :

– طيب ! اصنعا ما تريدان . ان لم تريدا فانا وحدى . . .

وتدخلت :

– ناديجدا نيكولاييفنـــا ، اغفرى لى تدخلى فى شأنك عند اول لقاء . . .

واحسست الدم يصعد الى خدى بينما كانت هى تنظر الىّ باسمة :

– ماذا بك ؟

– عند اول لقـــاء ارجوك . . . لا تتصرفى على هذا الشكل . . . ثم انى اريد ان اسألك امرا .

فتبرقع وجهها بالكآبة .

– اخشى الا استطيع تصرفا آخر : فقدت العادة .



اخيرا ، ساحاول حتى اسرك . ما هو هذا الامر الذى تريد ان تسأله ؟

ورحت اشرح لها متلعثما ، حييا ، محرجا وهى تصغى الىّ بانتباه وتحدق فىّ بعينيها الرماديتين . اضفى هذاك الانتباه المديد او شىء آخر على نظرتها معنـــى صـــارما قاسيـــا بعض الشىء . وانتهت الى التصريح :

– طيب ، فهمت ما تحتاجه ! ساهب وجهى تعبير المناسبة .

– لا ضرورة لذلك . حسبى ان يكون وجهك هو الذى ارسمه . . .

– طيب ، طيب . متى يجب علىّ ان آتى ؟

– غدا فى الساعة الحادية عشرة اذا امكن .

– فى مثـــل هذا البكـور ؟ اذن يجب ان اذهب لانام . سينيا ! هل ترافقنى ؟

– نحن لم نتفق على امر يا ناديجدا نيكولاييفنا : هذا العمل ليس مجانيا .

– ستدفع لى اجرا ؟ – هكذا سألتنى وقفرت فى صوتها رنة زهو غاضبة .

فقلت حازما :

– نعم هذا حتم . والا لا ارسم .

فقاستنـــى بنظرة متعاليـــة وقد اقول متجاسرة ولكنها لم تلبث ان غرقت فى التفكير . وهيمن صمت .

كنت فى ضيق وحمرة خفيفة تعلو وجنتيها وعيناهـا تلمعان لمعانا .

– طيب ، ستدفع لى . . . مـا تدفعه للنماذج الاخرى . كم اقبض من اجل شارلوت جملة يا صغيرى سينيا ؟

فاجاب :

– حوالى ستين روبلا .

– وكم يستغرق الرسم ؟

– شهرا .

فقالت فى حرارة :

– حسن ، حسن جدا . ساحاول ان اتقبل الدفع . شكرا .

وبسطت لى يدها الرقيقة وشدت على يدى بقوة . وسألتنى :

– هل ينام عندك ؟

– نعم ، نعم .

– سارده لك بعد لحظة ، بعد ان يوصلنى الى البيت .

بعد نصف ساعـة كنت فى البيت ولـم يبطئ هيلفريخ عن اللحاق بى ولذنـا بسريرنا واطفأنـا الشموع . وكنت على وشك ان اغفو لمـا رن صوت سينيا فى الظلمة :

– هل تنام يا لوباتين ؟

– لا ، وماذا ؟



– هل تدرى انى اسلم يدى اليسرى للقطع على ان تكون هذه المرأة سعيدة .

– ولم لا تكون اليمنى ؟ – هكذا سالته وانـا على وشك ان انام .

فاجابنى جدا :

– ابله ! بماذا ارسم ؟

## ٦

لما استيقظت كان يدخل الغرفـة ضوء النهـار الرمادى .

وذكرنى وجـه هيلفريخ الشاحب الجميـل الذى يضيئه النور الخافت وهو ينام على الديوانة ، بسهرة البارحـة والنموذج الجديد الذى شغلته . والتفت الى الجهة الاخرى واستسلمت لغفوة خفيفة .

ورن صوت :

– لوباتين !

سمعته من خلال النوم وهذه الحقيقة التى كانت تلائم حلمى لـم توقظنى ولكنى شعرت بان ثمة من يمس كتفى .

– انهض يا لوباتين .

فنهضت واثبا واذا ببيسونوف امامى .

– اهذا انت يا سيرغى فاسيلييفتش ؟

قال بصوت خفيض :

– نعم . . . جئت مبكرا جدا أليس كذلك ؟ لا ترفع صوتك . فلست اود ان يسمعنا الاحدب .

– ماذا تريد منى ؟

– ألبس ثيابك واغتسل . اقول لك ما اريد . ولكن هيا بنا الى الغرفة الاخرى حتى لا نوقظه .

واخذت ثيابى وحذائى تحت ابطى وذهبت الى المرسم . كان بيسونوف شاحبا جدا . سألت :

– انت لم تنم هذه الليلة ؟

– بلى . ولكنى افقت باكرا جدا لكى اعمل . اوص على الشاى ، سنتحدث . على فكرة ، ارنى لوحتك .

– ما حاجتك برؤيتها الآن . ستراها بعد حين يسير منقحة منتهية . قد تكون غاضبا علىّ لانى تصرفت ضد رغبتك ولكنى مبتهج جدا بهذا الحظ . ناديجدا نيكولاييفنا تفوق كل ما املته .

فهدر بصوت اصم :

– لن اسمح لك برسمها .

– هل جئت تبغى الشجار يا سيرغى فاسيلييفتش ؟

– انا لا اريد لها ان تأتى الى هنا كل يوم وتظل معك الساعات الطوال . . . لن اسمح لها بذلك .

– هل تملك السلطة الكافية ؟ أانت سيدها ام سيدى ؟ – قلتها وانا استشعر الغضب .

– السلطة . . . السلطة . . . بضع كلمات تكفى . ساذكرها بحقيقتها واقول لها من انت .



ساكلمها عن صوفيا ميخائيلوفنا ابنة عمك . . .

– لا اسمح لك بان تقول ولو كلمة واحدة عن ابنة عمى . اذا كانت لك حقوق قبل هذه المرأة وحتى لو فرضنا ان اقوالك عنها صحيحة وانها حقا جانحة وان عشرات الرجال يملكون مثل حقوقك عليها غير انك لا تملك اية حقوق قبل صوفيا ابنة عمى . احظر عليك ان تكلمها فى ذلك . هل تسمعنى ؟

كانت لهجتى تطفح تهديدا فقد بدأ يغضبنى .

– وى ، وى ! انت تخرج مخالبك ! لم اكن ادرى ان لك مخالب . طيب . انت على صواب . ليس لى اى حق قبل صوفيا ميخائيلوفنا ولا اجرؤ ذكر اسمها عبثا . ولكن الاخرى . . . الاخرى . . .

كان يروح ويجىء بخطى مضطربة . رأيت انه فى الواقع متأثر ولم افهم ما حدث له . ولقد اظهر اثناء حديثنا الاخير قدرا كبيرا من الاحتقار لهاتيك المرأة وها هو ذا . . . هل هذا ممكن ؟

– انك تحبها يا سيرغى فاسيلييفتش !

توقف فرمانى بنظرة غريبة وقال فجأة :

– لا .

– اذن ماذا يثير اضطرابك ؟ علام هذه الزوبعة ؟ انا لا استطيع على اى حال ان اعتقد انك تصرف كل هذا الجهد لكى تنقذ روحى من مخالب هذا الشيطان الوهمى .

– هذا شأنى . ولكن اعلم انى ساقف دون هذا

الامر بكل الوسائل . . . لن اسمح به ! هل تسمعنى ؟
– قالها فى صيحة استفزاز .

احسست الدم يندفع الى رأسى . وكان فى الزاوية التى اقف بها كومة من المتاع الساقط : اقمشة ، ريش ، منصب مكسور وعصا ذات رأس حديدى تثبت فيه مظلة كبيرة اثناء اشغال الصيف . لقد اخذت هذا الرمح آليا ولما قال لى بيسونوف «لن اسمح به» غرست السنان فى الارض بقوة فغاصت عدة سنتمترات .

ولم انبس بكلمة . ولكن بيسونوف رفع نحوى عينين مدهوشتين بل مروعتين كما خيل الىّ وقال :

– وداعا . انا ذاهب . انت محتد جدا .

فى هذه الاثناء استعدت هدوئى .

– لا ، البث هنيهة اخرى .

– انا مشغول . الى اللقاء !

وذهب . واخرجت الرمح فى جهد من الارض ومسست باصبعى حديده اللامع الدافئ بعض الشىء . وفكرت لاول مرة ان بين يدى سلاحا رهيبا قادرا على ان يقتل انسانا فى سرعة .

وغادرنى هيلفريخ الى الاكاديمية ولبثت انا انتظر نموذجى فى غير قليل من الانفعال . وضعت قماشا جديدا على المنصب واعددت كل شىء .

وقد يكون باطلا ان ازعم انى لم اكن افكر الا فى لوحتى . كنت استذكر السهرة واطارها الغريب



الجديد علىّ ، اللقاء المسر السعيد غير المتوقع ، هذه المرأة العجيبة الجانحة التى جذبتنى اليها دفعة واحدة باسباب الود ، موقف بيسونوف الغريب . . . ماذا يريد منى ؟ أهو يحبها حقا ؟ اذن علام هذاك الاحتقار ؟ أما كان فى امكانه ان ينقذها ؟

كنت افكر فى كل ذلك وارسم بالفحم على القماش . كنت اخطط الوضع الذى كنت اريد ان تقف لى ناديجدا نيكولاييفنا وامحو تصميما بعد آخر .

وقرع الجرس فى الساعة الحادية عشرة تماما . وما انقضت دقيقة حتى كانت بالوصيد . كم اذكر وجهها الشاحب وهى تقف عند الباب صامتة فى اضطراب وحياء (اجل ، لقد حل الحياء محل تعبيره فى البارحة) . وبدت انها تخشى دخول هذه الغرفة حيث وجدت سعادتها والفترة الخالصة الصافية الوحيدة فى حياتها . . . والموت . لم تتدحرج الى الهوة كما تنبأ بيسونوف . . . ولكننى لا استطيع المضى فى التذكار اليوم . يجب علىّ ان انتظر واهدأ .

## ٧

تجهل صونيا انى اكتب هذه الصفحات المؤلمة . وهى كدأبها فى الماضى تقضى كل الايام قرب سريرى او قرب المقعد . وكثيرا ما يأتى صديقى الاحدب المسكين لرؤيتى . ان سحنته يرثى لها ولا يتكلم

الا نادراً . وتقول صونيا انه يعمل كثيرا . . . ليوفر له الله النجاح والسعادة !

اقبلت فى الحادية عشرة كما اتفقنا ودخلت مترددة واجابت عن تحيتى على استحيـــاء وجلست صامتة فى احدى الزوايا . قلت وانا ازود لوح الدهان بالالوان :

– انت دقيقة يا ناديجدا نيكولاييفنا .

فنظرت الىّ ولم تجب . فتابعت وقد تضرج وجهى من حرج :

– لست ادرى كيف اشكر لك . – كنت اود ان اقول شيئا آخر تمامـا ، – اوشكت ان اهجر اللوحة لانى لم اعثر على نموذج .

– اذن فليس عندكم نماذج فى الاكاديمية ؟

– بلى ، ولكنهم لا يلائموننـى . انظرى الى هذا الوجه . واخرجت من كومة الاوراق التى تحتشد بهـا المنضدة صورة آنا ايفانوفنا وقدمتها اليهـــا فطافت ابتسامة خفيفة بشفتيها . قالت :

– الواقع ليس هذا مـــا تحتاجه . هذه ليست شارلوت كوردى .

– أتعرفين تاريخ شارلوت كوردى ؟

فرمقتنى بدهشة ممزوجة بالمرارة .

– ولم لا اعرفها ؟ انا درست شيئا مـا . ومنذ ان ادمنت هذه الحياة نسيت كثيرا من الاشياء ولكن لم انس كل شىء . واما هذا فلا ينسى . . .

– اين درست يا ناديجدا نيكولاييفنا ؟



– مـاذا يهمك من امـــر دراستى ؟ لنبدأ اذا شئت .

تغيرت لهجتها فجأة : فقد لفظت هذه الكلمات فى جهوم كما كلمت بيسونوف امس .

لذت بالصمت . واخرجت من الخزانة الثوب الازرق والطاقية وسواهـــا من اللباس المعزو لشارلـــوت ورجوتها ان تبدل ثيابها فى الغرفة المجاورة . ولـم اكد اهيئ عدتى حتى عادت .

كانت امامى لوحتى من لحم وعظام فهتفت فى حبور :

– يا رباه ، يا رباه ! مـا ابدع واروع ! قولى لى يا ناديجدا نيكولاييفنا ألم يسبق لى ان رأيتك فى مكان ما ؟ مـــا من تفسير آخر . كنت اتخيل لوحتى مثلك فى هذه اللحظة . يظهر انى التقيت بك ربمـا انحفر وجهك فى ذهنى . . . اين رأيتك ؟

– لست ادرى . واما انا فلم اعرفك الا البارحة . ابدأ ارجوك . اوقفنى كما يجب وارسم .

واوقفتها الوقفة التى اريد وسويت ثنيات الثوب ومسست يديها حتى تكون لى ايماءة الاستسلام التى فكرت بها دائما وعدت الى منصبى .

كانت ههنا امامى . . . وها هى ذى الآن على هذه اللوحة . . . تنظر الىّ حزينة مفكرة بوجهها الشاحب الذى وسمه الموت كما كان فى تلك الجلسة الاولى .

محوت الفحم ورسمت تصميما سريعـــا ثم رحت اشتغل بالدهان . فى عمرى لم ار العمل يجرى خيرا

منـه فى ذلك الحين ، فقدت الشعور بالوقت . بعد ساعة فقط اظهرت لى نظرة القيتها اليها انهـا تكاد تسقط اعياء . فقلت وانا اعينها على النزول من القاعدة واجلسها على مقعد :

– اغفرى لى ارجوك . لقد انهكتك .

فاجابت شاحبة ولكنها باسمة :

– لا بأس . من يريد ان يربح لقمته يجب ان يعانى بعض الالم . انا سعيدة بحماستك . هل يمكن رؤية ما فعلت ؟ – قالتها وهى تشير برأسهـا الى اللوحة التى كانت ترى قفاها وحده .

– من كل بد .

– وى ، يا للفوضى ! انا لم ار قط بداية رسم . شىء مطرف جدا . . . ولكنى اميـز من الآن مـاذا سيكون . . . لقد تخيلت شيئـا جميلا يا اندرى نيكولاييفتش . . . سابذل ما فى وسعى لكى تنجح . . . بقدر ما يتعلق ذلك بى .

– ماذا تستطيعين ان تصنعى ؟

– قلتهـا لك امس . . . ساضفى على وجهى تعبيرا يساعدك فى عملك . . .

وعادت الى موضعها عجلى ، مرفوعة الرأس ، هامدة اليدين البضتين ووجهها يعكس كل ما حلمت به لاثرى : القوة واللوعة ، الزهو والخشية ، الحب والبغض . . .

وسألت :

– لا بأس ؟ استطيع ان اظل هكذا ما شئت .



– انت تغمرينني بلطفك يا ناديجدا نيكولاييفنـا ولكن بقاءك على هذا الوضع مدة طويلة مرهق . اشكر لك . سنرى . هذا لا يزال بعيدا . . . هل تسمحين لى ان ادعوك الى الفطور ؟ . .

بدأت بالرفض ثم قبلت .

وقدمت لنا اغافيا الكسييفنـا قهرمانتى فطورا . وجلسنا معـا الى المائدة للمرة الاولى ولكن لا للمرة الاخيرة . . . كان واضحا ان ناديجدا نيكولاييفنـا محرجة وتأكل قليلا من غير ان تقول شيئا . وسكبت لها خمرا شربته جرعة واحدة تقريبا فلونت وجنتاهـا الشاحبتان . وسألت فجاة :

– قل لى هل تعرف بيسونوف منذ امد بعيد ؟

فاجأنى السؤال فاضطربت اذ ذكرت الفصل الذى كانت سببا له .

– لمـاذا احمر وجهك ؟ الواقع سيان عندى ، اجب عن سؤالى فحسب .

– انه صديق الطفولة .

– أهو انسان طيب ؟

– اخال ان نعم . انه شريف ، دؤوب ، موهوب وبرّ بامه .

– هل له ام ؟ اين هى ؟

– فى مدينة . . . حيث تملك منزلا صغيرا . وهو يرسل اليها مالا ويذهب لزيارتها احيانا . وهى تهيم به حبا .

– لماذا لا يستقدمها الى هنا ؟

– هى لا تريد على ما اظن . . . والحقيقة انى لا اعلم . . . ان لها هناك منزلها وعاداتها .

فقالت مفكرة :

– هذا ليس صحيحا . بل يخاف ان تزعجه . انا لست على يقين ولكنه فرض . انها ستضايقه . هى ريفية ، ارملة موظف صغير لا ريب . وقد **تربكه** .

لفظت ناديجدا نيكولاييفنا كلمة «تربكه» بلهجة واخزة . وتابعت :

– انا لا احبه يا اندرى نيكولاييفتش .

– لماذا ؟ هو ليس سيئا على اى حال .

– انا لا احبه . . . اخشاه . . . ولكن كفاية ، هلم نعمل .

وعادت الى القاعدة . وتصرم النهار الخريفى القصير .

اشتغلت حتى الغسق مفسحا لنموذج فترات راحة بين حين وآخر . ولم الق ريشتى الا حينما اختلطت الالوان والظلال وبدت الرؤية غامضة . . . وبدلت ناديجدا نيكولاييفنا ثيابها وذهبت .

## ٨

فى ذلك المساء ذاته نقلت سيميون ايفانوفتش الى بيتى . كان يسكن فى شارع سادوفايا ، بناية



واسعة تغص بالناس ، تكاد تحتل حيا بين ثلاث جادات . وكان اشد اقسامها ارستقراطية ذلك الذى يطل على شارع سادوفايا مؤلفا من غرف غروم-سكجيبيتسكى المؤثثة وهذا رئيس متقاعد يؤجر غرفه الواسعة التى لا تنقصها القذارة لفنانين ناشئين وطلاب ليسوا فقراء جدا وموسيقيين . هؤلاء هم جل مستأجرى الرئيس الصارم الذى كان يسهر على وقار «فندقه» على حد تعبيره .

وصعدت الدرج الحلزونى وسلكت الممر . وراء الباب الاول كنت تسمع عزفا على الكمان ولا تتجاوزه قليلا حتى يرتفع انين فيولونسل وفى نهاية الممر يهدر بيانو .وقرعت على باب هيلفريخ فصاح بصوته الرقيق :

– ادخل !

كان جالسا على الارض يجمع متاعه فى صندوق كبير . وكان ثمة حقيبة مغلقة وكان سيميون ايفانوفتش خلوا من اى منهاج : فقد وضع فى القاع مخدة وعليها مصباحا مفكوكا مغلفا بالورق ثم ترى هنالك فراشا صغيرا من الجلد وجزمة وكدسة دراسات وعلبة الوان وكتبا وكومة اشياء لا غناء فيها . وكان هناك هر كبير اصهب جالسا الى جانب الصندوق ينظر فى عينى صاحبه . ويقول هيلفريخ ان هذا معاونه المتحمس . وقال صديقى :

– انا حاضر يا اندرى . يسعدنى انك تؤوينى . ما اخبار الجلسة ؟ هل جاءت ؟

فاجبت مهللا :

– بالطبع يا سينيا . . . هل تذكر ما قلت تلك الليلة . . . انك تسلم يدك اليسرى لتقطع ؟

فسأل باسما وهو يجلس على الصندوق :

– وبعد ؟

– افهمك بعض الفهم يا سينيا . . .

– أرأيت ؟ انتشلها من الوحل يا اندرى ! انا لا استطيع . ما انا الا شيطان احدب احمق . وانت تعرف جيدا ان قواى لا تسعفنى فى جر حملى ذاته فى طريق الحياة الطويلة لو لا عون الآخرين ، عونك مثلا ، واما ان اسند الناس . . . فهذا وهم . انا نفسى احتاج وصيا ينقذنى من الادمان ، يؤوينى ، يحثنى على العمل ، يهتم بمالى ، يرسم سلالا وديوانات وديكورات اخرى لهررتى . ما عسانى ان اصنع لولاك يا اندرى الطيب ؟

وغلبه فجأة فرط الحنان فقفز من صندوقه وهرع يضمنى الى صدره ويشد رأسه الى صـــدرى وشعره الحريرى يمس شفتى مسا هينا . ثم اطلقنى فجـــأة واسرع يلوذ الى زاوية مظلمة من الغرفة (وقع فى ظنى انه مسح دمعة وهو فى طريقه اليها) وقعد فى مقعد .

– انت ترى ان هذا ليس شأنى ! انت انســـان آخر . . انقذها يا اندرى !

كنت الوذ بالصمت . واستأنف :



– كان هنالك انسان آخر قادر على ان يفعل ذلك ولكنه لم يشأ .

– بيسونوف ؟

– نعم .

– هل يعرفها منذ امد بعيد ؟

– عهده بها اقدم منى . هذا الانسان ذو جمجمة حاشدة بالعينات والادراج ؛ يفتح درجا فيخرج بطاقة يقرأ ما فيها ويفعل بموجبه . ها هو ذا يلتقى بامرأة جانحة : واذا هو ينبش فى مصنف رأسه (كل شىء فيه مرتب حسب الابجدية) فيجد : **لن يرجعن ابدا** .

ولم يقل سيميون ايفانوفتش زيادة . كان يرتفق المقعد وذقنه فى يده وينظر الىّ مفكرا .

– علاقاتهما غريبة . قص علىّ كيف تعارفا .

– ليس الآن يا اندرى . قد تقول لك ذلك هى نفسها . . . لا ، ليس «قد» بل تقوله لك يقينا . انت هكذا انت . . . (قالها سينيا حنونا) تعال اريد ان اسدد ما للرئيس فى ذمتى .

– هل معك دراهم ؟

– اجل ، اجل . والفضل للهررة .

وخرج الى الممر ونادى خادمـــا . فظهر الرئيس نفسه بعد لحظة . كان هذا شيخا قويا مكتنزا قصيرا ، حسن الهمة ، حليق اللحية . دخل وهو يؤدى انحناءة جميلة ومد يده الى هيلفريخ واما انا فقد كان علىّ ان اقنع باشارة من رأسه . وسأل فى ادب :

– يأمر السيد ؟

– سافارقك ايها الرئيس .

فاجاب الرجل وهو يرفع كتفيه :

– كما يحلو لسيدى . ليس لى ما اشكوه منك . ويسعدنى ان يقطن فندقى اشخاص متميزون مثقفون . . . هل السيد رسام ايضا ؟ – هكذا سأل وهو يوجه الىّ اشارة اخرى من رأسه طافحة بالاناقة– اسمح لى بان اقدم نفسى : الرئيس غروم– سكجيبيتسكى ، جندى قديم .

فبسطت اليه يدى وتسميت واذا وجه الرئيس يأخذ سمتا من الدهشة الموقرة :

– السيد لوباتين ! ولكنه اسم معروف . لقد سمعت به من طلاب الاكاديمية كافة . تشرفت بمعرفتكم . اتمنى لكم شهرة سيميرادسكى وماتايكا . . . الى اين تنتقل ؟ (السؤال لهيلفريخ) .

– الى بيته . . . – بهذا اجاب هيلفريخ وعلى شفتيه ابتسامة حرج .

– انا لا اغضب عليك لاختطاف مستأجر ممتاز من عندى . الصداقة قانون . . . – واعاد الرئيس تحيته . – ساجلب سجلى .

وخرج يرفع رأسه فى حيوية . كان فى مشيته شىء ينم على روح العسكرية .

وسألت صديقى سينيا :

– اين خدم ؟



– لست ادرى . ليس فى الجيش الروسى على كل حال . فى جواز سفره ما هو الا كسافيرى غروم–سكجيبيتسكى ، نبيل . ولكنه يسر الى الجميع كأنه يبوح لهم بامر خطير ، انه اسهم فى الثورة البولونية . ولا تزال بندقية معلقة على جدار غرفته تذكارا .

وعاد الرئيس بسجله ومحسبة . وسوى حسابه وقال لهيلفريخ مجموع الاجرة حتى نهاية الشهر واثمان الوجبات . فدفع سيميون ايفانوفتش وافترقنا على احسن حال . ولما انزلنا العفش اخذ سيميون ايفانوفتش على ذراعه القط الاصهب الذى كان يتمسح منذ امد طويل بساقيه مشرع الذنب ، يهر هريرا حادا قلقا (لا ريب ان الغرفة الفارغة كانت تقلقه) ورحلنا .

## ٩

وانقضت ثلاث جلسات اخرى او اربع . كانت ناديجدا نيكولاييفنا تقدم فى الساعة العاشرة او الحادية عشرة صباحا ولا تذهب الا مع الغسق . دعوتها عدة مرات الى الغداء ولكنها ما ان تنتهى الجلسة حتى تدخل فى سرعة الغرفة الاخرى ، تلبس ثوبها الاسود وتستأذن .

وكان وجهها قد تغير تغيرا كبيرا منذ بضعة ايام . كان معنى من الاسى والجهامة يتخذ سبيله الى شفتيها وعينيها الرماديتين . وكانت تقل الكلام معى ولا ينفرج

صدرها الا فى حضرة هيلفريخ الذى كان يتابع رسم القططة على الرغم من هجماتى . وما خلا النمـــوذج الاصهب ظهرت فى مسكننا خمس او ســـت قطط من مختلف الاعمار والاوبار من الجنسين . وكانت اغافيا الكسييفا تطعمها من غير ان تنبس بكلمة ولكنها لا تنفك تشن عليها حربا مستمرة تظهر بشكل عمليات طرد الى درج الخدم . ولكن كانت الهررة تموء مواء شاكيا لا يلبث ان يعطف قلب المرأة الطيبة ، واذا الباب يفتح والنماذج ذوات الاربع تعود الى اماكنها ظافرة .

ما اكثر ذكراى تلك الجلسات الطويلة الصامتـــة حية ! كان قلق غامض ثقيل يستولى علىّ كلما تقدمت اللوحة . . . كنت استشف فراقنا المقبل حينما تزول الحاجة الى ناديجدا نيكولاييفنا بوصفهـــا نموذجا . والحديث الذى دار بينى وبين هيلفريخ يوم نقلتـــه يعود الى ذهنى . وكثيرا ما يخيل اليّ ، وانا انظر الى وجهها الشاحب القاتم ، انى اسمع كلمات صديقى : «آه ، يا اندرى انتشلها من الوحل» .

انتشلها من الوحل ! كنت اكاد اجهـــل كل شىء عنها ، اجهل حتى عنوانها . لقد هجرت المسكن الذى اوصلها هيلفريخ اليه بعد تلك السهرة المشهودة ولم يستطع ان يستخلص منها اين تقطن الآن . ونجهل كلانا كنيتها .

سألتها اياها ذات يوم ذهب فيه هيلفريخ منذ الصباح الى الاكاديمية (ارغمته على ان يزور من حين



الى آخر مرسما للدراسة) وقضينـــا النهار وحدنا . كانت اقل حزنا ، اقل صمتا مما عودتنى ، فتجاسرت على سؤالها :

– انا لا ازال اجهل كنيتك يا ناديجدا نيكولاييفنا .

فتجاهلت سؤالى وطاف بوجهها ظل يكاد لا يدرك . وعضت على شفتها لحظة كأن شيئا ادهشها ثم استأنفت حديثها . كانت تتكلم عن هيلفريخ ورأيت انها تجهد جهدها لكى تجد شيئا يساعدها تجنب سؤالى . واخيرا لاذت بالصمت .

والحت :

– ناديجدا نيكولاييفنا ، علام اساءتك الظن ؟ هل بدر منى ما . . .

قالت محزونة :

– لندع هذا الامر . اساءة الظن ؟ خلّ . . . علام اسىء الظن بك ؟ بم تستطيع ان تسىء اليّ ؟

– اذن ما سبب . . .

– لاننى لا ارى فائدة من ذلك . عجل بالرسم فالمساء يدنو . . . – قالتها وهى تجتهد فى ان تظهر بمظهر المرح واضافت : لا يلبث سيميون ايفانوفتش ان يعود فما عساك ان تريه ؟ انت لم تفعل شيئـــا مذكورا نهارك كله ونحن نضيع الوقت فى الثرثرة .

– ليس فى الامر ما يستدعى العجلـــة . . . انا تعب . . . استريحى هنيهة اذا شئت .

فذهبت تجلس على كرسى فى الزاوية واتخذت انا مجلسى فى الطرف الآخر من الغرفة . كنت اتحرق على الاستفسار منها ولكنى احسست انها اميل الى التحفظ جلسة بعد جلسة . كانت مقوسة الظهر تشابك ذراعيها حول ركبتيها وتحدق فى الارض واحد القطط يتمسح بثوبها ويرفع اليها النظر ويهر هريرا هادئا . كنت تخالها قد تحجرت . . . ماذا تعانى هذه الروح الابية التعيسة ؟

ابية ؟ انا لم الق الكلمة على عواهنها . كنت قد ملت الى اليقين بان مرد تعاستها صلابتها . ولعلها لو خففت من غلوائها لعاشت كما يعيش الآخرون ، آنسة «ساحرة النظرة» ثم تتزوج وتستغرقها حياة لا طائل تحتها قرب زوج تشغله امور مهمة جدا فى احدى الدوائر ؛ كانت تعنى بزينتها وتفتح ابواب بيتها لاناس المجتمع وتربى اولادها («الابن فى الثانوية والبنت فى المعهد») وتقوم ببعض اعمال الخير حتى اذا بلغت نهاية السبيل التى رسمها لها المولى هيأت لزوجها الفرصة لان ينشر «اساه العميق» فى صفحة الوفيات من «الازمنة الحديثة» . ولكنها تنهنهت عن هذا كله . اى شىء جنح بها عن سبيل «المرأة الشريفة» المعبد ؟ كنت اجهل ذلك واوجع نفسى رغبة فى قراءته على وجهها ولكنها كانت تتمسك بقناعها الصفيق ذى النظرة الجامدة . وقالت بغتة وهى ترفع رأسها :

– لقد استرحت يا اندرى نيكولاييفتش .



فنهضت ونظرت اليها ثم حولت عينىّ الى اللوحة واجبت :

– لم اعد قادرا على العمل اليوم يا ناديجدا نيكولاييفنا .

فرمقتنى بنظرة وارادت ان تقول شيئا ولكنها تماسكت وخرجت صامتة لكى تبدل ثيابها وتهاويت على مقعد ووجهى بين يدىّ . كان شعور يأس غير مفهوم يضغط على قلبى وانتظار غامض لشىء مجهول مروع ، بل الرغبة الجامحة فى ان افعل امرا اجهله ، بل حنان ممتزج بالمخافة التى اضفى علىّ هذا الكائن التعيس – كل هذا قد كون انطباعا ضاغطا ولا اعلم كم مر علىّ من الوقت وانا فى مطرحى اكاد اكون مغميا علىّ .

لما ثبت الى نفسى كانت تقف امامى وقد لبست ثوبها الاسود .

– الى اللقاء !

نهضت وبسطت لها يدى .

– انتظرى هنيهة . . . اريد ان اقول لك شيئا .

فسألتنى مضطربة :

– ماذا ؟

– اشياء كثيرة يا ناديجدا نيكولاييفنا . . . لا تكونى نموذجا هذه المرة .

– وما عسانى ان اكون غيره ؟ لا ساح الله ان اكون لك كما كنت . . ما انا الآن . . . وداعا . . .

أتراك منتهيا قريبا من لوحتك ؟ – هكذا سألتنى وهى قرب الباب .

– لست ادرى . . . ساطلب اليك ان تقفى لى ايضا اسبوعين او ثلاثة اسابيع اخرى .

فصمتت كأنها لا تستطيع ان تقول لى ما تريد .

– ماذا تريدين ان تسالينى يا نادیجدا نيكولاييفنا ؟

– لعل احد رفاقك . . . يحتاج . . .

فقاطعتها :

– الى نموذج . ساحاول ان اسوى الامر ، سابذل جهدى .

– اشكر لك . وداعا .

وبينما انا امد لها يدى قرع الباب فشحب وجهها وسقطت على كرسى . كان الطارق بيسونوف .

## ١٠

دخل فى انطلاق ، مرح الوجه . بدا لى للوهلة الاولى انه نحف طوال هذه البضعة ايام التى غابها عنى . ولكنى بعد لحظة وقع فى ذهنى انى اخطأت . قال لى مرحبا فى مرح وحيا بانحناءة من رأسه نادیجدا نيكولاييفنا التى ظلت جالسة فى كرسيها وتكلم متدفقا :

– جئت ارى عملك . يهمنى جدا . اريد ان اعرف



هل تستطيع ان تصنع شيئا مذكورا الآن وتحت تصرفك نموذج لا تحتاج الى غيره .

نظر نظرة سريعة الى نادیجدا نيكولاييفنا . كانت تجلس فى مكانها . كنت انتظر ان تذهب ، كنت اتمناه ولكنها بدت مسمرة الى كرسيها ، صامتة لا تحول عينيها عن بيسونوف . واجبت :

– صحيح . ان النموذج بديع . ما اعمق عرفانى بجميل نادیجدا نيكولاييفنا .

قلت هذا ووضعت المنصب مطرحه وقلت :

– انظر .

فسدد نظرة ثاقبة الى اللوحة ورأيته متأثرا فزهوت .

ونهضت نادیجدا نيكولاييفنا فجأة وقالت بصوت اصم :

– الى اللقاء .

فالتفت بيسونوف على عجل وخطا بضع خطوات فى اتجاهها .

– الى اين تذهبين ؟ مضى علىّ امد طويل لم ارك فيه . والآن اذ التقيت بك مصادفة تقريبا تبدين وكأنك تهربين منى . انتظرى هنيهة ، خمس دقائق فقط ، نخرج معا واصحبك . حاولت عبثا العثور عليك . فى مسكنك القديم قيل لى انك تركت بطرسبورغ ولكنى كنت اعرف ان ذلك غير صحيح . واستعلمت فى مكتب العناوين ولكن عنوانك لما يصل اليه . وكنت اريد ان

اعود غدا آملا فى وصول العنوان اليه ولكن لم يعد لعودتى من ضرورة : ستقولينه لى انت نفسك ؛ ساصحبك .

كان يتكلم مسرعا بنبرة حنان لم اعرفها منه ، نبرة مختلفة كل الاختلاف عن تلك التى كلمها بها يوم لقائنا فى الملهى .

اجابت :

– لا حاجة بى الى ذلك يا سيرغى فاسيلييفتش . اشكر لك . انا قادرة على العودة بلا خفر . . . ولا سيما ان ليس عندى ما اقوله لك . . انت – اضافتها همسا .

فحرك يده وفتح فمه ولكنه لم يصدر الاصوتا لم يتركب فى كلمة . كنت ارى انه يجهد ان يتماسك . . . وذرع المرسم هنيهة ثم التفت نحوها وقال فى صوت خفيض :

– اذهبى . . . اذا لم تكن لك بى حاجة فهو خير لنا ، نحن الاثنين . . . وربما لنا، نحن الثلاثة . . .

وخرجت بعد ان صافحتنى بضعف ولبثنا نحن وحيدين . ولم يلبث هيلفريخ ان عاد فاقترحت على بيسونوف ان يتعشى معنا . لم يجبنى حالا . كان غارقا فى افكاره ولكنه قال آخر الامر وكأنه يستيقظ :

– نتعشى ؟ . . فليكن . . . انا لم ارك منذ زمن طويل . اريد ان اتكلم بكل ما فى قلبى .

وهذا ما فعله . فى البداية لم تبدر منه الا ردود مختصرة على سينيا الذى لا ينفك يتكلم عن قططه التى



سيهجرها حتما وينصرف الى الفن الحقيقى اخيرا ؛ ولكن حيوية سينيا انتقلت اليه رويدا وقد يكون ذلك تحت تأثير قدحى الخمر اللذين شرب . واعترف انى لم اره قط على مثل هذا التدفق وهذه الفصاحة كما كان فى ذلك المساء . استولى على الحديث والقى علينا درسا فى السياسة الداخلية والخارجية . لقد اتاح له عامان من تأليف مقالات افتتاحية عن مختلف القضايا ان يناقش موضوعات لا نعرف ، هيلفريخ وانا ونحن منهمكان فى دراساتنا ، منها شيئا مذكورا .

قلت بعد رحيله :

– سيميون ايفانوفتش ، ان بيسونوف يعلم كنية ناديجدا نيكولاييفنا .

– ما حملك على هذا الظن ؟

فاعدت على مسامعه الفصل الذى سبق عودته :

– لماذا لم تسأله اياها ؟ الواقع انى افهم ، ساستعلم بنفسى . . . .

والحقيقة ، لماذا لم اسأل بيسونوف اياها ؟ حتى الآن لا استطيع ان اجيب . فى ذلك الوقت لم اكن افهم شيئا من علاقاته بناديجدا نيكولاييفنا . ولكن الاستشفاف الغامض لامر خارق خفى سيجرى بينهما كان يؤودنى منذ ذلك الحين . كنت اود ان اوقف خطبة بيسونوف الملتهبة عن الانتهازية ، ان اقطع عرضه عن قضية الرأسمالية وما اذا كانت الى نمو فى روسيا ، ولكن الكلمات انحبست فى حلقى .

وقلت لهيلفريخ عن ذلك . قلت له فى هـــذه الكلمات :

– لست ادرى ما يمنعنى من الكلام عنها ببساطة . ان بينهما امرا لا ادريه . . .

وصمت سينيا وهو يذرع الغرفة ، ثم دنا من النافذة القاتمة وغاص نظره فى الليل فقال :

– واما انا فادرى . كان يحتقرها وبدأ الآن يهيم بها لانه يرى . . . آه ، يا للقلب الجاف الانانـــى الغيور – والتفت نحوى وهتف وهو يلوح بيديه قائلا :

– حذار يا اندرى !

قلب غيور ؟ غيور . . . مم ؟

## ١١

**يوميات بيسونوف** . البارحة صادفنى لوباتيـــن وهيلفريخ مع ناديا وتعارفوا على الرغم منى . ذهبت اليوم صباحا اليه حتى اعترض على هذا التقارب ولكنى لم استطع اليه سبيلا . سيتقابلان ، سيقضيان الساعات معا كـل يوم وانا ادرى الى ما ينتهى ذلك .

واسألنى عبثا لماذا يقض مضجعى ذلك الى هـــذا الحد . الحقيقة ، ماذا يهمنى ؟ لا ريـــب فى انى اعرف لوباتين منذ سنوات واخالنى اكن مودة خالصة لهذا الفتى الموهوب ولا اريد به شرا . والتقارب مع امرأة جانحة رأت عيناها مختلف الالوان شر ولاسيما لطبيعة نقيـة



كطبيعته . وانا اعرف هذه المرأة منذ زمن بعيد ايضا كانت وقتئذ كمـــا هى الآن . صحيح انى يجب علىّ ان اعترف امام نفسى ، بانى فى فترة معينة ضعفت حتى رحت افكر فيها كثيرا يجتذبنى مظهر ليس عاديا وفكر بدا لى اصيلا . ولكنى سرعان ما لملمت شعثى . كنـت اعلم منذ امد بعيد ان «دخول الجمل من سـم الخياط» ايسر من عودة امرأة جانحة الى حياة طبيعية شريفـة ؛ واراقبها هى بالذات فارى انها لا تستطيع ان تكـون استثناء للقاعدة فقررت ، وقلبى مدمى ، ان اسلمها الى نفسها ومع ذلك فقد ظللت اخالطها .

لن اغفر لنفسى الخطأ الذى ارتكبت مساء اقبل علىّ لوباتين يشكو الى فشله . قلت لم ان لدى من يلائمه نموذجا . ومن الغريب ان هيلفريخ لم يقل له عنها مـــن قبل . فهو يعرفها مثلى اذا لم يكن اكثر .

وقد كان من طيشى وحدتى هذا الصباح ان عرضت كل شىء للتهلكة . كان علىّ ان اكون اميل الى العذوبة غير اننى اخرجت هذا الانسان ذا القلب الحنون عـــن طوره . لقد قبض على شىء يشبـــه الرمح وغرزه فى الارض حتى اهتز زجاج النوافذ وامام هذا الغضب وجب علىّ الرحيل .

ظللت عدة ايام لا ارى لوباتين . امس صادفـــت هيلفريخ فى الشارع وعجت بالحديث على صديقه مـن حيث لا يدرى .

انها تأتيه كل يوم واللوحة تتقدم فى سرعـــة .

سلوكها ؟ متواضعة وقورة . صموت دائما . تلبس السواد الفقير . وتقبض اجرة عن كل جلسة . ولوباتين ؟ انه مغتبط لعثوره على نموذج بديع ، مرح جدا فى البداية وساهم الآن بعض الشىء .

وقال الاحدب موجزا :

– ماذا يهمك من هذا كله يا بيسونوف ؟ ان مصير هذه المرأة لم يمسك قط مع ان انقاذها كان هينا عليك . . . الآن فات الاوان حتما . . . فاتك انت . . .

فاتك انت ! . . فاتك انت ! . . ماذا اراد ان يقول ؟ اى شىء لم يفت اوانه بالنسبة الى صديقه ؟ يا للاحمقين !

كيف ! هذا الهيلفريخ الذى يدعى كونه صديقه ويعرف خيرا منى ميله لابنة عمه لا يفهم السوء الذى يرتكبان ؟ لن ينقذا هذه المرأة وسيحطم لوباتين قلب تلك التى تحبه وقلبه . . .

ان من واجبى ان اتدخل . ساذهب غدا الى لوباتين حتى الم بالموقف . وساذهب اليها من فورى .

ذهبت اليها فلم اجدها . لقد انتقلت لست ادرى الى اين . قيل لى انها باعت اثوابها . طفقت ابحث عنها ولكنى لم اعثر لها على اثر على الرغم من مكتب العناوين ومساعدة البوابين . غدا ساذهب الى لوباتين .

يجب ان اغير الخطة . لقد اخطأت فى معرفة لوباتين . كنت اظن استنادا الى لطفه انى قادر على



تكليمه بلهجة الآمر ؛ وكانت علاقاتنا السابقة تبرر حتى ذلك الحين هذا الرأى . التأثير يجب ان يكون فى المرأة . فى الماضى كانت تبدو انها تهتم بى . احسبنى قادرا ، اذا بذلت جهدا غير كبير ، على ان افرق بينهما . قد اوقظ فيها ميلها القديم فتتبعنى .

اغازل ناديجدا نيكولاييفنا ! هذه الفكرة مجنونة على حد ذاتها ولكنى عقدت العزم عليها . ليس من حقى ان اتساهل فى سقطة لوباتين وتقوض حياته كلها .

هذه المرأة تسخر منى ! كنت على قدر من الرقة ، كلمتها بلهجة فيها مذلة لى ولكنها تركت البيت بعد بضعة اقوال فيها احتقار واساءة .

كدت انكرها . اتخذ وجهها الشاحب معنى من الرزانة لا يناسب وضعها الاجتماعى ابدا . هى متواضعة وابية فى نفس الوقت . بم تستطيع ان تأبى ؟ وتفرست فى وجه لوباتين فى ان اقرأ قصة صلاتهما . لم يكن فيه شىء خاص : قليل من الانفعال ولكن لا ريب فى ان لوحته هى السبب . ستكون شيئا جميلا حقا : انها تنبض بالحياة .

وطويت على غضبتى كشحا وبقيت طواعية مع لوباتين وهيلفريخ . فثرثرنا واصاخا اذنا صاغية الى مفاهيمى فى مختلف المسائل التى تشغلنى حاليا .

ولكن ما العمل ؟ هل تترك الامور حبلها على غاربها ؟ ذات مرة وعدت لوباتين الا احشر صوفيا ميخائلوفنا فى

هذه المغامرة . وطبيعى ان علىّ البر بوعدى . ولكن لماذا لا اكتب لامى ؟ انها ترى صوفيا ميخائيلوفنا من حين الى آخر وتستطيع ان تخبرها . انا لا احنث بوعدى قط ومع ذلك . . .

اجل ليس فى القعود والاستسلام خير ، ليس لى حق فى ذلك . واما هذه المراة فساحملنها على افلات فريستها مهما يكلفنى الامر . بقى ان نعلم اين تسكن . ساكلمها . . . ولكن كفانى تفكيرا ؛ آن اوان العودة الى عملى . فى هذا الاضطراب العابث الذى نسميه الحياة لا توجد الا سعادة حقيقية واحدة مطلقة : الرضى الذى يغدقه علينا العمل حينما تستغرقنا المهام فننسى وضاعات الوجود ونستطيع ان نقول اخيرا : صنعت اليوم اثرا طيبا .

## ١٢

**مذكرات لوباتين** . انقضت ستة ايام على زيارة بيسونوف ولم ترجع خلالها ناديجدا نيكولاييفنا . بعثت الىّ برقعة تعتذر فيها متذرعة باشغال احتجزتها .

اطلعت هيلفريخ على الرقعة واستنتجنا انها متوعكة . يجب ان اعثر عليها مهما يكن من امر . لو اننا عرفنا كنيتها لاستعلمنا من مكتب العناوين ولكنا نجهلها . ولا غناء فى سؤال بيسونوف عنها . كنت يائسا ولكن سيميون ايفانونوفتش قطع على نفسه عهدا ان يجد مسكنها «ولو كانت فى قاع البحر» . ونهض صباح اليوم



التالى مبكرا ولبس ثيابه مهموما حازما كأنه ماض فى بعثة مميتة واختفى طوال النهار .

ظللت وحدى وحاولت عبثا ان اعمل . ثم اخذت كتابا فجعلت الكلمات والافكار تعبر دماغى من غير ان تترك اثرا . وعلى الرغم من الجهود التى بذلت لكى اركز انتباهى فلم استطع ان اقرأ الا بضع صفحات .

اغلقت الكتاب – كتابا جيدا مشوقا ابهجنى قبل بضعة ايام – ورحت اتجول فى المدينة .

لم يغادرنى امل غامض فى ان التقى ناديجدا نيكولاييفنا او من يهدينى اليها السبيل . هذا الامل عاودنى ؛ كنت اتفحص المارة بعين يقظة واعبر الشارع كلما لمحت امرأة على الرصيف الآخر لها ما يشبه مشيتها وشكلها ، ولكنى لم التق الا الرئيس غروم-سكجيبيتسكى الذى كان يتبختر فى شارع نيفسكى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر (كان الليل قد ارخى سدوله لانا كنا فى كانون الاول) . ولما كان الطقس عذبا فقد حل الرئيس عرى قبة معطفه الانيق كاشفا عن ربطة عنق من الحرير المحبر مثبتة بدبوس صارخ اللون وكانت قبعته تلمع مثل الميناء ويده بالقفاز الاصفر على الموضة تعتمد على عصا ذات اكرة ضخمة من العاج .

واتحفنى بابتسامة لطف وتساهل وحرك يده بلطف ودنا منى :

– انا سعيد ايها السيد لوباتين . ما احب هذا اللقاء .

وشد على يدى واجاب على سؤالى عن صحته قائلا :

– شكرا لك ، الصحة جيدة . هل تتسكع او تقصد محلا بعينه ؟ اذا صح فرضى الاول ، الا يرضيك ان ترافقنى قليلا ؟ وكان يسرنى ان اعود معك ايها السيد لوباتين ولكنى عبد عاداتى . انا اقطع شارع نيفسكى من اقصاه الى اقصاه كل يوم مرتين . هذه هى القاعدة .

فعدت والرئيس لانى كنت اود العودة الى البيت . واستأنف الحديث فى رزانة وقال :

– هذا هو اللقاء البهيج الثانى الذى يقع لى اليوم . رأيت السيد بيسونوف ايضا وعلمت انه صديقك .

– اذن فانت تعرفه ؟

فرد الرئيس وهو يرفع كتفيه :

– انا اعرف كل الناس . لقد سكن السيد بيسونوف فندقى لما كان طالبا . كنا صديقين طيبين ، كلمة الشرف . من ذا الذى لم يسكن عندى يا سيد لوباتين ! شخصيات – مهندسون ، حقوقيون ، كتاب– تعرف الرئيس . اجل ، كثير من الناس المشاهير يتذكروننى .

وتبادل تحية متأدبة وسيدا ذا هيئة قلقة ذكية فبدا الرجل محيرا ثم ابتسم واشار برأسه اشارة ودية .

– انه لا ينسى اصدقاءه القدامى على الرغم من انه الآن فى مرتبة عالية يا سيد لوباتين . هذا



بتريشيف ، مهندس مرموق . هو ايضا سكن عندى ايام دراسته .

– وبيسونوف ؟

– انه سيد حسن جدا ، كثير الميل الى عيون الجنس اللطيف . . . – اضافها وهو ينحنى على اذنى .

فخفق قلبى خفقانا شديدا . خيل الى ان الرئيس يعلم شيئا من امر ناديجدا نيكولاييفنا .

وبادل التحية مارا آخر ومضى يقول :

– ولو لم يكن فتى ممتازا لتعكرت علاقاتنا ايها السيد لوباتين . ولكنى اذكر شبابى ذاته ، ناهيك بانى جندى قديم ، بى ميل الى الغزل . . .

ورمانى بنظرة متخابثة اعقبتها غمزة وتندت عيناه لذاذة .

– يسعدنى انك تعرف بيسونوف يا رئيس . . . كنت اجهل ذلك .

– لم يبق عندى طويلا .

– الم يكن يعرف . . .

واوقف لسانى خجل مفاجئ بينما كنت على وشك ان الفظ اسم ناديجدا نيكولاييفنا . ورمقت الرئيس : كان يخترقنى بنظرة تغيرت فجأة وصارت اشبه بنظرة الصقر . وقلت متلعثما :

– لا ، لا يمكن ان يكون عندك علم ذلك . المعذرة .

فتلاعب بعصاه خليا واستأنف كأن شيئا لم يكن منى :

– اجل انا جندى قديم راى ذكريات . . .

واضاف وهو يهز رأسه محزونا :

– تجاوزت الخمسين . اعترف بانى اغبطك يا سيد لوباتين ولكنى اغبطك على شبابك فقط .

وسألته وقد تذكرت ما قاله لى هيلفريخ :

– اين خدمت يا رئيس ؟

فطرأ عليه تغير جديد . تجهم وجهه وطوف فيما حوله نظرة دائرية وانحنى علىّ حتى مس شاربه اذنى .

– المجالس بالامانات . امامك مقاتل من مقاتلى ميخوف واوباتوف .

وتراجع خطوة حتى يحكم فى الاثر التى تركته اسراره . فاجتهدت فى تصنع الدهشة . وهمس الرئيس وقد انحنى علىّ من جديد :

– هذا السر لا ابوح به الا لاصدقائى الخلص .

وانتصب وفى عينيه سمة الانتصار .

لم يبق علىّ الا ان اشكر له ثقته واستأذن منه لاننا كنا نقترب من جسر بوليتسايسكى .

كنت حانقا على نفسى : كدت الفظ اسم ناديجدا نيكولاييفنا فى حضرة هذا الانسان المشكوك فيه .

لما عدت الى البيت اعلنت لى الكسييفنا ان



«صاحب القططة» لم يعد بعد . وقدمت لى الغداء ووقفت بالوصيد محزونة من فقدان شهيتى . وسألت :

– لماذا لم تعد فتاتك تأتى يا اندرى نيكولاييفتش ؟

– يظهر انها مريضة .

فهزت الكسييفنا رأسها مصعدة زفرة عميقة وذهبت تحضر الشاى من المطبخ . كنت سئما من وحدتى بما تعودت الطعام فى صحبة هيلفريخ .

## ١٣

بعد الغداء حملت الىّ رسالة من صونيا .

لم اكتم عنها شيئا قط . وعندما تنتهى ايامى وهذا يحدث عن قريب – الموت لا يتلصص بل يدنو بخطوات ثابتة اسمعها ترن فى ليالى السهاد وانا ينهشنى المرض وذكريات الماضى – عندما تنتهى ايامى وتقرأ هى مذكراتى ترى فيها انى لم اكذب ابدا . كنت انمى اليها افكارى وعواطفى ، والاشياء الوحيدة التى كانت رسائلى المطولة تخلو منها هى الامور اجهل وجودها فى نفسى او لا اعترف بها انا لنفسى .

ولكنها كانت تعرفنى . وعلى الرغم من سنيها التسع عشرة فقد كانت تفهم بروحها الحانية ما كنت اخاف الاعتراف به ، ما لم اكن اصوغه فى ذهنى باشكال ملموسة .

«انت تحبهـــا يا اندرى . اتمنى لك الكثير من السعادة . . .»

لم استطع ان اقرأ اكثر من هذا . انقضت علىّ موجة عارمة وتغلغلـــت فىّ ، وكادت تفقدنى الرشد . اعتمدت على مسند المقعد وجلست بلا حراك مدة طويلة ماسكا الرسالة بيدى ، مغمض العينين لا احس الا هذه الموجة التى تعج وتعصف فى روحى .

هذا صحيح ، احبها . احب لاول مرة . حتى ذلك الحين كنت اسمى حبا هذا الميل لابنة عمى التى كنت انوى البناء بها بعد بضعة اعوام ولكنت سعيدا معها ولا اصدق انى استطيع ان احب غيرها . كان قدرى يبدو واضحا : قال الى المولى : «هذه هى زوجتك ولا يجوز ان تكون لك اخرى» . وتوقفت عند هذا المشروع كلى ثقة فى المستقبل واختيارى . وحب امرأة اخرى كان يبدو لى امرا دنيئا .

واذا هذه المخلوقة الغريبة البائسة تعرض لى ، هذه المخلوقة التى انحطمت حياتها واضاءت فى وجهها عينا شهيد . فى البدايـــة كانت الشفقة ثم تدفعنى الثورة على من كان يظهر لها الاحتقار الى الدفاع عنها . وبعد . . . بعد لست ادرى كيف تم ذلك . . . ولكن صونيا على صواب : كنت احبها حبا معذبا عنيفا ، حب رجل لم يعرف الحب حتى الخامسة والعشرين من عمره . كنت اريد ان انتزعها من جحيم التعاسة الغارقة فيه ، ان احملها بعيدا ، ان اهدهدها فى قلبى لكى تنسى



نفسها ، ان ارى هذا الوجـــه البائس وقد اضاءتـــه ابتسامة فرح . . . وصونيـــا فتحت لى عينىّ بجملة واحدة من رسالتها . . .

«لا تفكر فىّ . انـــا لا اريد ان اقول تنسانى تماما . ولكن لا تخشى ايلامى . لن اشكو قلبى المحطم . وهل تعلم لماذا ؟ لان قلبى ليس محطما . لقد اعتبرتك ابدا اخا وخطيبا : اخا حقا واما الخطيب فيظهر انه وهم فرض علينـــا فرضا . انت احب الناس الىّ وكنت استطيع الا اكتب اليك ذلك لانك تعرفه ؛ ولكن لما قرأت رسالتك وقلت لنفسى الحقيقـــة عنك وعـــن ناديجدا نيكولاييفنـــا كن على يقين يا حبيبى انى لم احس اى مرارة . انـــا لك اخت لا زوج ، فهمت ذلك من الفرح الذى اضفتـــه على سعادتك ، فرح لا اخفى عليك ممزوج بالخوف عليك . ولكنى اتمنى من صميم القلب ان تنقذها وان تسعد انت وتسعدها هى» .

«بعد كل مـــا كتبته لى عن ناديجدا نيكولاييفنـــا اعتقد انها جديرة بحبك . . .»

هذه الاسطر ملأت قلبى بهنـــاءة جديدة رويدا رويدا . لم اكن اشاطر صونيا مخاوفها : ما عسانى ان اخشى ؟ لا اعرف كيف ومتى حدث ذلك ، ولكنى اثق بناديجدا نيكولاييفنـــا . ان ماضيها الذى اجهل وسقطتها — وكل ما كنت اعرفه عن حياتهـــا — يخيل الىّ شيئا مصادفا لا حقيقيـــا ، مثل خطأ قدر ليست مسؤولة هى عنه . قبض عليها شىء فاطاشها والقاها

فى الوحل ولكنى سانتشلها واشدها الى قلبى واروح عنها عذاباتها .

ورن الجرس رنينا عنيفا فقفزت . ركضت ارفع الرتاج غير منتظر ان تاتى الكسييفنا وهى تجر نعليها . وفتح الباب بغتة وضمنى سيميون ايفانوفتش بيديه وجعل ينطنط فى موضعه صارخا بصوت ممراح رنان :

– هاكها يا اندرى ، هاكها ، هاكها ! . .

وراءه كانت قامة قاتمة . اندفعت اليها واخذت يديها المرتعشتين وغمرتهما بقبلات من غير ان اصغى لما تقوله لى منفعلة على وشك البكاء .

## ١٤

ذلك المساء العزيز علىّ ظللنا نحن الثلاثة طويلا نتحدث ونضحك ونمرح . كانت ناديجدا نيكولاييفنا هادئة بل بدت لى مرحة . لم اسأل هيلفريخ كيف واين عثر عليها ولم ينبس هو بكلمة . ولم اقل لها شيئا ينوه اى تنويه بما كنت فكرت او احسست قبل عودتها . ولم يكن مرد ما قعد بى عن السؤال التواضع او التردد . كل ما فى الامر انى وجدت سؤالى نافلا وخفت ان انكأ جراحات روحها المعذبة . كنت على فصاحة وانشراح خارقين . وهيلفريخ فى اعلى عليين يشع ويثرثر بلا انقطاع ويحملها احيانا على الابتسام



بنكاته . وهيأت الكسييفنا المائدة وجلبت السماور فلما فرغت من ذلك كله استندت بظهرها الى عضادة الباب وخدها الى يدها تنظر الينا جميعا وكيف ناديجدا نيكولاييفنا توزع علينا الشاى . قلت :

– ماذا يا الكسييفنا ؟

– لا شىء يا عزيزى . انا انظر اليكم . . . هانت ذا غاضب . استطيع ان اسمح لنفسى بذلك وانا فى مثل هذه السن . الآنسة ربة بيت طيبة . هذا جميل .

فخفضت ناديجدا نيكولاييفنا راسها .

– الا ترى ما الطف ! هنا الرجال دائما وحتى الشاى يوزعونه هم ايضا وكل شىء آخر . . . واذا شئت الحقيقة فانا سئمة ، سئمة بلا ربة بيت ، اغفر لى صراحتى . . .

واستدارت ثم ذهبت تظلع فى الممر . فهمد مراحنا ونهضت ناديجدا نيكولاييفنا تتمشى فى الغرفة .

كانت لوحتى فى احدى الزوايا . لم امد يدى اليها منذ عدة ايام وجفت الالوان . وتأملت ناديجدا نيكولاييفنا صورتها طويلا وقالت لى باسمة :

– يا لله ، سرعان ما تنهى لوحتك . ولا اعود الى تاخراتى . ستكمل اللوحة قبل المعرض بكثير .

وتدخل سينيا :

– ما اشد الشبه !

وتوقفت فجاة كان فكرة مباغتة تمنعها من الكلام وابتعدت من اللوحة مقطبة الحاجبين . قلت :

– هانت ذى الى قتـــام ! ماذا بك يا ناديجدا نيكولاييفنا ؟

– لا شىء يا اندرى نيكولاييفتش . الشبه شديد حقـا . وفكرت ان كثيرا من الناس يعرفوننى . . . اتصور ما سيحدث . . .

ولهثت وامتلأت عيناها بالدموع واستأنفت :

– وما اكثر الاقاويل والاسئلة التى تسمعهـا . «من هى ؟ اين اصطدتهـا ؟» والسائلون سيكونون اناسا يعرفون تماما من انا واين يمكن صيدى . . .

– ناديجدا نيكولاييفنا . . .

– انت لم تزدرنى يا اندرى نيكولاييفتش . ولا انت يا صغيرى سينيا العزيز . لقد تصرفتمـا معى تصرفكما مع انسان . . . هذه هى المرة الاولى التى يقع لى ذلك فيها منذ ثلاث سنوات . كنت اخالنى فى حلم . . . هل تعلم لماذا ذهبت ؟ كنت افكر (اغفر لى !) ، كنت افكر انك مثـل الآخرين . وفكرة كون وجهى وجسدى قادرين على ان ينفعا فى شىء رفعا من روحى ولذلـك جئت اقف للرســم . وكانت اللوحة بسبيل الانتهاء وانت ابدا مهذب رقيق ؛ ولكنى كنت قد فقدت عادة هذه الاشكال وكنت اسىء الظن . كنت اخشى ان اصاب بضربة جديدة لا ريب فى انها تؤلمنى كثيرا . . .

وجلست فى مقعد ومنديلها على عينيها . ومضت تقول :



– اغفر لى . لم اكن اثق بك وكنت انتظر مرعوبة اللحظة التى ستحصبنى فيها بالنظرة التى تعودتهـا خلال ثلاث سنوات لان احدا لم ينظر الىّ الا بها طوال هذه السنوات الثلاث . . .

وصمتت متشنجة الوجه ، مختلجة الشفتين ، ثابتة النظرة فى زاوية الغرفة كانها ترى فيها شيئا .

– كان ثمة واحد لم يكن ينظر الىّ كالآخرين . . . ولا كما تنظر . . . ولكن . . .

كنت وهيلفريخ نصغى اليها كاتمين انفاسنا .

وهمست دفعة واحدة :

– ولكنى قتلته . . .

وندت عنها فى يأسها الشديد صيحة قوية ثـم انفجرت باكية مثل الاطفال .

## ١٥

**يوميات بيسوتوف** . انا انتظر البقية . كنت هناك ذات يوم ورأيتهما معا . لم تكفنى ارادتى كلها لكى احتفظ بقناع اللامبالاة والتهذيـــب . حسست انى اذا بقيـــت ربع ساعـــة اخرى ساكشف عن وجهى الحقيقى .

هذه المرأة انسان آخر يقينا . انا اعرفهـا منذ ثلاث سنوات وقد اعتدت ان ارى فيهـا المرأة التى كانت طوال هذه المدة . واما الآن فاشهد انها تغيرت .

انا متعجب واسالنى عما اذا كان دورا يلعبه بمهارة انسان شرير قد تعود الكذب على الآخرين وعلى نفسه .

لم افهم شيئا عن علاقاتهما ؛ ولا ادرى حتى اذا كانت خليلته . شيء فى نفسى يقول لى – لا . اذن فهى اكثر ذاكاء مما توهمت . ماذا تريـــد ؟ ان تصبح زوجة ؟

اعدت قراءة هذه الاسطر فتبينت انها باطلة كلها ما عدا الملاحظة عن تغيرها . منذ ثلاث سنوات كنت ارى انا نفسى فيها قسمـــات لا تجدها عند امرأة من جنسهـــا . وكدت العب دور المنقذ الذى اتخذ الآن لوباتين كرما لنفسه . ولكنى كنت حينئذ مجربا اكثر منه الآن : كنت اعلم ان ذلك لا يؤدى الى شيء واحجمت قبل ان اجرب . ان طبيعتها ما خلا العقبات المعتادة فى هذا المجال تنطوى على عناد وجراة لا نظير لهمـا . فحدست انها ينست وان ردها سيكون حاسمـا منذ المحاولة الاولى . اذن فلم احاول .

هل كـان لوباتين اكثر صمودا ؟ لست ادرى . كل ما اراه هو انها تحولت . اعرف انهـــا تركت حياتهـا السابقة ولدى البرهان المبين . لقد انتقلت الى غرفة لا يستطيع الوصول اليهـا هيلفريخ او هذا المنقذ ، وهى تقف للرسم وتخيط . انها تحيـــا فى الفاقة وتشبه المدمن الذى قطع على نفسه عهدا بالتوبة . هل تصمد ؟ هل تكون مدينة بخلاصهـــا لهذا الفنان الساذج الذى لا يعرف الحياة ولا يفهم منها شيئا ؟



كتبت امس رسالة مفصلة لامى . ولا بد انهـــا ستتصرف وفق خطتى – فالنساء يهمن وجدا فى حشر انفسهن فى القصص العاطفيـة – وستعلـم صوفيـــا ميخائيلوفنا بالامر . وقد ينقذه ذلك .

ينقذه ! لماذا يهمنى انقـاذه ؟ علام ؟ هذه هى المرة الاولى التى اعنى فيها كـــل هذه العناية بمصير الآخرين . ماذا يهمنى ان يصل اسبابه بهذه المرأة او يقطع ، ان يخرجها من الطين او يتدحرج فيه هو نفسه مهدما حياته وموهبته ؟

ليس من عادتى محاكمة الاشياء او دراسة نفسى . هذه اول مرة ارانى مضطرا على سبر روحى وتحليل عواطفى تفصيلا . لست ادرى ما يجرى فىّ ويحنقنى . كنت اخال انى خلو الا من الرغبة الخالصة فى تجنيب الشر انسانـــا امحضه الود ولا ازال على هذا الظن الآن . . . ولكن فحصا اعمق يظهر لى ان الامر ليس كذلك تماما . لماذا ، وانا ارغب فى انقاذه ، افكر فى المرأة على الاخص . لماذا لا يفتأ وجهها الذى كان فى الماضى صفيقـا عنيدا والذى هو الآن وديـــع ، يبدو لعينىّ كل لحظة . لمـاذا كانت هى وليس هو التى تحرك فىّ عاطفة غريبة لا افهمهـــا وهى التى يهيمن عليها نفور ومقت ؟ اجـــل ، ان من الممكن ان يكون صحيحا انى اقل استعدادا لتقديم الخير الى لوباتين من تقديمه لها . . .

اسىء اليها هى ؟ لا ، لا اريد ان اسىء اليها . ومع

ذلك اريد ان انتزعها منه ، ان احرمها هذه الحماية التى قد تكون املها الاوحد . . . اذن فهل اكون انما اطمح لاحتلال مركز لوباتين ؟

يجب ان اراهـــا اليوم . هذه القصة تزعجنـــى وتمنعنى من العمل . مهمتى لا تتقدم ابدا : وما صنعته فى اسبوعين اقل مما كنت اصنعـه فى يومين . آن اوان الفراغ من ذلك كله . آن اوان الايضاح . . . وبعد ؟

النكوص ؟ ابدا ! زهوى كلـــه يثور علىّ لمجرد التفكير فى ذلك . انا الذى وجدتها وكنت القادر على انقاذها ولكنى لم اشأ . انا الآن اشاء .

## ١٦

**مذكرات لوباتين** . ركض هيلفريخ يستقدم طبيبا كان يسكن نفس البناية . وسقيت ناديجدا نيكولاييفنا الماء وانصرفت نوبة الهيستريـــا بعد قليل . كانت جالسة على الديوانـــة التى نقلناها اليها تنتحـــب فى خفوض . وانسحبت الى الغرفة المجاورة حتى لا اثقل عليها .

وعاد سيميون ايفانوفتش بلا طبيب فوجدهـا قد هدأت .

وبينا هى تستعد للعودة اقترح عليها مرافقتهـا فشدت على يدى وعيناها الغارقتان بالدمع تحدقان فى عينىّ بشكران متوجس .



وتصرم اسبوع ثم اثنان ثم شهر كامل وجلساتنا مستمرة . والحقيقة كنت اتلكـأ فى الرسم ولا ادرى هل احست بذلك ولكنها كانت تستعجلنى غالبـــا . كانت اكثر هدوءا واحيانا مرحة – كان هذا نادرا على اى حال . وروت لى قصة حياتها . وكنت افكر طويلا فيما اذا سأسجلها فى مذكراتى . بعـــد تردد طويل قررت ان احفظ السر . من يدرى فى اى يد يقـع دفترى ؟ وحتى لو انى كنت على يقين من ان صونيا وهيلفريخ سيكونان قارئى الوحيدين لما سقت قصة ماضيهـا لانهما كليهما يعرفانها جيدا . كتبت الى ابنة عمى التى عودتها الصراحة دائما الرواية المؤلمة التى روتها لى ناديجدا نيكولاييفنا . واما هيلفريخ فقد سمعهـا من فمها . اذن فليسا فى حاجة لقراءة قصتها فى مذكراتى . واما الآخرون . . . فانا لا اريد لهـــم ان يحكموا فى امرها ! سمعت اعترافها وبرأتها من كل ما يحتاج الى التبرئة فى نظر الناس . حينما كنت اسمع اعترافهـا المر وقصة مصائبها ، اسأم ما يمكن لامرأة ان تنكب به من مصائب ، لـم اكن افكر فى اتهامهـــا ، كنت استشعر خجل ومذلة كائن يرى نفسه مسؤولا عن الشر الذى يحدثونه عنه . وملأتنى آخر حادثة فى عذابهـا خوفا ومرحمة : لم يكن مـــا تمتمت به مساء نوبتها العصبية اقوالا تلقى على عواهنها . فقد قتلت انسانا من غير ان تدرى حقا . حاول انقاذها ولكنه كان اضعف من ان يوقفها فى اندفاعها الى الهوة فاندفع هو فيها

منتحرا . حكت لى فى تصميم ، بلا دموع ، هذه القصة المؤثرة وفكرت فيهـــا طويلا . أفى الوسع بعث هذا القلب المحطم وشفاؤه من جراحه العميقة ؟

ولكنها كانت تتماثل الى الشفاء ، والهدوء يعاودها ، والابتسامة لا تندر على وجهها . وكانت تاتى كل يوم وتبقى للغداء وبعد الوجبة كنا نظل الساعات معا نحن الثلاثة . واما هيلفريخ وانا فلم يكن ينضب لنا معين بينما كانت هى تلقى كلمة بين حين وآخر .

واذكـر جيدا احد هذه الاحاديث . كان هيلفريخ من غير ان يهجر قططه قد انكب على رسم دراسات . واعترف ذات يوم متحمسا ان فى نيته رسم لوحة «خلال خمس او عشر سنوات» . فسألته مبتسما على الرغم منى من سمته المتزمتة :

– لماذا ليس قبل هذه المدة ؟

– لانها شىء جدى ، غايـــة حياتى يا اندرى . أتظن ان المشاريع الجدية وقف على الاشخاص ذوى القامات الباسقـــة والجذوع المستقيمـــة ؟ عماليق مغرورون ! اؤكد لك – قالها فى تزمت مصطنع – ما اكثر العواطف الكبرى التى تفقس بين حدبتين والافكار الكبرى التى تبرعم فى هذه العلبة الطويلة (ونقر على جمجمته) . وسألت ناديجدا نيكولاييفنا :

– هل فكرتك الكبرى سر ؟

فنظر الينا وصرح بعد فترة صمت :

– لا . ساقولها لكما . خطرت لى منذ زمن بعيد .



اسمعا . ذات يوم غضب الامير فلاديمير الشمس الحمراء على ايليا مورومتز الذى كلمه فى جسارة وامر بسجنه فى كهف عميق وبان يقفلوه ويردموا عليه التربة . واخذوا القوزافـــى القديم للموت . ولكـــن الاميرة ابراكسيا ، وهذا ما يحدث دائما فى القصص ، كانت فطينة ذكية ، فعثرت على الممر المؤدى الى ايليا وكانت ترسل اليه كل يوم خبزا مقدسا وماء وشموعا يقرأ الانجيل على ضوئهـــا . نعم ، ارسلت الانجيـــل ايضا .

واستغرق سينيا الفكر وصمت طويلا حتى سألته :

– وبعد يا سيميون ايفانوفتش ؟

– هذا كل ما فى الامر . وطبيعى ان الامير احتاج بعد قليل الى القوزاقى القديم لان التتر كانوا يحاصرون كييف . وندم فلاديمير على ما بدر منه من غضب ندما شديدا . واما ابراكسيا فسرعان ما ارسلت الخدم الى الكهف العميق ليسحبوا ايليا منه بيديه البيضاوين . ولما كان قلبه خلوا من الحقد فقد اعتلى صهوة جواده الخ . وقتل التتر شر التقتيل وهذا كل شىء .

– واين اللوحة يا سيميون ايفانوفتش ؟

فاتخذ سمتا متعجبا وضم يديه :

– ويسألنى هذا السؤال رسام ! الرسام اندرى لوباتين ! ولكنك تستطيع ان تصنع ثلاثين ، ثلاثمئة ، ثلاثة آلاف لوحة . انـــا لم اختر منهـــا الا واحدة وسارسمها ولو كنت على سرير الموت ! اذن فانت لا

تراه فى كهفه ؟ الا ترى كـــل هذا لوحة حية ؟ هاك مغارة ، سرداب ، حفرة مما يشاهد فى كهوف كييف . ممرات ضيقة ، كوة صغيرة فى الجدار . الغبـــار ، العفن ، شىء مروع خيالى يضفى عليـــه لهب الشمعة منظرا اسطوريا . وايليا جالس امام دعامة عليها كتاب مقدس قديم ضخم من البردى اصفرت صفحاته السميكة المتغضنـــة المغطاة بحروف سوداء وحمراء . ان على جسده دراعـة فقط وهو تستغرقـــه القراءة ويقلب صفحات الكتـاب بيديـــه الكبيرتين الصلبتين اللتين اعتادتـــا العنان والرمح والسيف والهراوة لا تقليب الصفحات . ان يديه اللتين صلبهما العمل طوال حياته ترتعشان وتجدان العسر فى تقليب صفحـات الكتاب المقدس .

ولاحظ فجأة هيلفريخ :

– خسارة ان النظارات لـــم تكن معروفـــة فى ذلك العصر . لولا ذلك لما احجمت ابراكسيا عن ارسال نظارتين مدورتين سميكتين باطار من الفضة . لقد جعلته حياة السهـــب طويل البصر كيف ؟ مـــا قولكما ؟

فانفجرنـا ، ناديجدا نيكولاييفنا وانا ، بالضحك فحملق فينا مدهوشا ثم ابتسم كأنه فهم سبب ضحكنا . ولكن مزاجه الفخم انتصر وتابع :

– لن اصف لكمـا عينيه فوصفهما صعب جدا . ولكن كل المعانى فى عينيه وشفتيه . اذن انه يجلس



ويقرأ فى الانجيل المقطع الذى يحض به المسيح على ادارة الخد الآخر لمن لطمك فلا يفهم شيئا . قد خدم ايليا بلاده دون كلل كل حياته وقتل الالوف المؤلفة من البيتشينيغ والتتر وقطاع الطرق وقهر مردة مخيفين وحمى الحدود من هجمات الكفـار على روسيا المقدسة وهو يؤمن بالمسيح ويعبده ويفكر فى اطاعة وصاياه . ولكنه كان يجهل الكتاب المقدس واذا هو يفكر : «اذا ضربت على خدى الايمن وجب علىّ ان ادير الايسر ؟ هل هذا ممكن يا مولاى ؟ اذا ضربت انا فقد اتحمل ولكن ماذا لو تهجم العدو على النساء واساء معاملة الاطفال او راح ينهب المؤمنين ويذبحهم ، هل نتركه وحبله على غاربه ؟ لا يا مولاى ، لا استطيع ان اطيعك ! سامتطى صهوة جوادى وآخذ رمحى واذهب الى القتال باسمك لانى لا افهم حكمتك ولكنى اصغى الى الصوت الداخلى الذى حبوتنى ، لا اليك . . .» والورقة الصفراء ذات الاحرف الحمراء والسوداء ترتعش فى يده المرتعشة . والشمعة تنشر ضوءا شاحبا تكلله شرابة من الدخان تضيع فى الظلمة ، ولا منار الا ايليا والكتاب . . .

وصمت سيميون ايفانوفتش يفكر وهو مستلق فى مقعده وعيناه الى السقف . وقلت بعد صمت طويل :

– الحقيقة انه موضوع جميل يا صغيرى سينيا . ولكن الرواية اسهل من الرســـم على القماش . كيف تصور كل هذا ؟

فهتف فى حماسة :

– ساصنع ، ساصنع من كل بد ، ساصنع كل شيء ! ساضع علامة الاستفهام هذه : المحارب ايليا والانجيل . ماذا يجمع بينهما ؟ هذا الكتاب الذى يجعل من القتل اشأم الخطايا بينا ايليا قضى حياته فى القتل . انه يركب جواده مدججا من اخمص قدميه حتى رأسه بادوات العقاب : انها ادوات العقاب لا ادوات القتل . لانه يعاقب . ومتى تنقصه هذه الاسلحة او تفقده ملأ طاقيته رملا ويشتغل بها . ومع ذلك فهو قديس . رأيته فى كييف . . . قبره قرب بقية القبور . ومن العدالة . . .

– هذا حق يا سينيا ولكنه ليس كل ما فى الامر . الرسم عاجز عن التعبير عنه .

– عاجز ؟ خل عنك ! حتى ولو لم يعبر عن الكل فلا ضير فى ذلك . سيطرح السؤال . . . دقيقة ، دقيقة – قالها فى اندفاع حينما رأى انى اريد مقاطعته – قد تقول لى ان السؤال مطروح . نعم ، مطروح ! ولكن طرحه غير كاف . يجب ان نوجهه كل يوم ، كل ساعة ، كل لحظة . فليصبح سؤالا مقيما ملحا . ولو لم أثر الا اهتمام عشرة اشخاص بلوحتى لوجب علىّ ان ارسم . انا افكر فى ذلك منذ امد بعيد ولكن هذه القطة تصرفنى عنه .

وانحنى سينيا يأخذ القط الاصهب الذى كنت تخاله يستمع باذن صاغية ووضعه على ركبتيه . واستأنف :



– ألست تصنع مثلى انت ؟ أليست لوحتك سؤالا كسؤالى ؟ هل انت متيقن من ان هذه المرأة احسنت صنعا ؟ انت تحمل الجمهور على التفكير ، هذا كل ما فى الامر . وما خلا العاطفة الجمالية التى يوحى بها كل رسم والتى لا تسوى كثيرا ، هى وحدها ، أليس هذا التفكير روح اثرنا ؟

وقالت ناديجدا نيكولاييفنا فجأة :

– يا سيميون ايفانوفتش ، يا عزيزى سينيا ، انا لم ارك قط على حالك هذه . كنت اظن دائما ان لك قلبا من ذهب ولكن . . .

– ولكنك كنت تعتبرينني احدب صغيرا لا عقل له ؟ هل تذكرين يوم اطلقت علىّ هذا النعت ؟

ونظر اليها ولا ريب انه لمح ظلا على وجهها وقال :

– اغفرى لى . . . لننس تلك السنين . سيكون كل شيء الى خير . أليس كذلك يا اندرى ؟ كل شيء يكون الى خير .

ووافقته مغتبطا ان ارى ناديجدا نيكولاييفنا تهدأ رويدا رويدا . من يدرى ؟ قد تصبح هذه السنوات الثلاث من حياتها ذكرى بعيدة مثل كابوس غامض كذبته الحقيقة وكأنك تفتح عينيك وترى نفسك فى الغرفة والليل هدوء وانت سعيد بان كل هذا ما هو الا حلم .

## ١٧

وانقضى الشتاء . واخذت الشمس تصعد فى السماء يومـــا بعد يوم وتزيد فى دفء شوارع بطرسبورغ وسطوحهـــا ؛ والماء يضوضى فى المزاريب والجليد ينطلق منها فى قرقعة مدوية . وظهرت عربات اخذت تسير بضوضاء ربيعية على البلاط الذى تعرى فى بعض المواضع .

وكنت قـــد انتهيت من اللوحة تقريبـــا . بضع جلسات اخرى واستطيـــع ان اسلمها الى المحكمين فى المعرض بالاكاديمية . وهيلفريخ يهنئنى مقدما . وكانت ناديجدا نيكولاييفنا تبتهج لرؤية اللوحة وانا اراقب على وجهها معنى من الصفـــاء الهادئ جديدا . وكانت فى بعض الاحيان ممراحا تمازح سينيا على الاغلب وهـــو ينقب فى اكوام من الكتـــب التى تتصل بمشروع ، يتفحص الالبومات الاثرية ، يدرس الانجيل . وتفرقت هررته فلم يبق الا الهر الجذاب الاصهب الذى لم يعد يتخذه صاحبه نموذجا . ومنذ حديثنا عن ايليا مورومتز لم يصنع سيميون ايفانوفتش الا لوحة صغيرة باعها بمئة وخمسين روبلا وقرر انه تزود بالمال لامد طويل ولا سيما ، وهذا ما يدهشنى كثيرا ، انه لا يتحرج قطعا من العيش على حسابى .

وكنا نحن الثلاثة نقضى معا اوقات فراغنا كلهـا تقريبـا . وتزود هيلفريخ بنـــاء على رغبة ناديجدا



نيكولاييفنا بمخطوط ضخم – مشروع نشخصية كبرى يستهدف خير روسيا فى مهلة قصيرة جدا – كانـــت تنسخه هى بخطها الجميل . ولما كان ازدهار روسيا يقتضى عملا فكريـــا كبيرا فقد طرأت على المشروع تعديلات متلاحقة ولا اظنه حتى الآن منجزا . من ذا الذى ينسخه اليوم عوضا عن ناديجدا نيكولاييفنا ؟

ومهما يكن من امر فلم تكن تحيا فى الحاجة ومـــا تربحه ناسخة ونموذجا كان يكفيها . وكانت لا تـــزال تسكن الغريفة التى انتقلت اليها على غير علم منا . وهى حجرة ضيقة واطئة تطل نافذتها الوحيدة على جدار وكل اثاثها سرير وسحابة وكرسيان ومنضدة تكتب عليها وتتخذها مائدة . وعندما نزورها ، انا وسينيا ، يذهب سينيا الى صاحبة البيت فى المطبخ فتستعير من عندهـا كرسيا . وكانت زياراتنا نادرة اصلا : هذه الحجرة البخسة التى ترفض ناديجدا نيكولاييفنا تركها معاندة تبدو لنا غير حفية . وكنا نفضل الاجتماع عندى حيث المكان اوسع واكثر اضاءة .

ولم اكن اكلمها عن حالى الروحية . كان الحاضر يسعدنى واخشى ان اسىء اليها وامس بيد خرقاء جراحاتها التى قد لا تكون الى اندمال بعد . كنت اخاف ان افقدها الى الابد اذا انا الححت على تحقيق ما غدا اعز آمالى ، على تحقيق رغبتى منذ ذلك الحين . هذا الامل لو كان اقل عنفوانا لما صبرت كل ذلك الصبر . كنت على يقين من ان ناديجدا نيكولاييفنا بعد ستة اشهر او سنـــة

وحتى سنتين (لم يخفنى طول الزمان) بعد ان تهدأ وتشفى واجدة فىّ دعامتها الاكيدة وموافقة على الزواج منى . لم اكن آمل بل اعرف انها ستكون زوجتى .

وانا اجهل ما اذا كان بيسونوف قد فهم ذلك . . . كان يأتى احيانا يعكر هناءتنا ويجعلنا فى ضيق من امرنا . كان هادئ المظهر ينظر اليها رابط الجأش . ولم تكن تبداه بالكلام ولكنها تجيب عن اسئلته وتصغى الى خطبه الطويلة عن شتى الموضوعات . كان موسوعيا وعلى قدر من الفصاحة . وكان يخيل الىّ انه يخفى عنا بتدفقه الفصيح شيئا يعذبه . وقد وقعت فيما بعد على بينة اخفائه جرحا قاتلا يقرضه قرضا مثل ذلك الراهب الفرنسى الذى اشتهر بمناعته فكان يحمل فى المعارك معطفا احمر يخبئ به دم جراحه . ولكن لم يبلغنى علم ذلك الا بعد فوات الاوان .

وكان قد سكن عند الرئيس من جديد . ذهبت ازوره مرة . كانت غرفته الجديدة مثل القديمة تغص بالكتب والصحف والاوراق ولكنها بدت لى كلها فى فوضى ، والغبار يغمرها حتى يقع فى ذهنك ان احدا لا يمد اليها يدا . كانت له فى مسكنه عادة تختلف عنها تماما وهو فى حضور ناديجدا نيكولاييفنا فى غرفتنا . فهو يقل الكلام ويذرع الغرفة فى جهامة ولفافته بين اسنانه . واحسست ان زيارتى فى غير محلها وقررت الا اعدو . وسألته عرضا ما اذا كان يعرف شيئا عن الرئيس وهل هو من «مقاتلى ميخوف واوباتوف» فقال :



– اكاذيب . وهو ليس حتى بولونيا حقيقيا . فى الماضى اعتنق الارثوذكسية واحسب انه يحاول ان يعتبره الشبان بمثل هذه القصص .

وتركته . امران فتحا عينىّ بعد حين على خططه .

بادئ الامر بعثت لى صونيا برسالة نقلت فيها حديثا جرى لها مع ام بيسونوف . كانت هذه السيدة العجوزة ، عرفانا منها بالجميل الذى كانت ام صونيا تسديه اليها والى ابنها ، تزور بعض الاحيان الفتاة فى المعهد . ويفهم من اقوال ابنة عمى انها جاءتها ذات يوم مضطربة القسمات كأنها تنطوى على سر وبسطت الهدف من زيارتها بعد بضع مقدمات متحرجة . لقد روى لها ابنها بالتفصيل كل ما يقع عندنا . ولم يجد الوانا اكثر سوادا لوصف الموقف ؛ وهو **لا يطلب** الى امه ان تخبر صونيا ولكن السيدة العجوز لما تضمره من عرفان للجميل تحرص على اخطارها حتى تبادر الى انقاذى قبل فوات الاوان . واندهشت كثيرا حينما عرفت ان ابنة عمى ملمة بكل شىء . كانت اسوانة خجلة من تكليم فتاة بامور مثل هذه ولكنها لا تستطيع ان تفعل غير ذلك . يجب انقاذ هذا التعس اندرى مهما يكلف الامر . وهى لو كانت بدلا من صونيا لرحلت من فورها الى بطرسبورغ لتفتح عينىّ .

وكتبت صونيا : «ويلعب سيرغى فاسيلييفتش بيسونوف فى هذه القصة دورا غريبا . انا لا اظن انه كتب كل هذا الى امه من غير ان يعلم انها ستنقل الىّ

كل شيء وقد اقول اكثر من هذا : من غير ان يريدها على نقله .

سآتى الى بطرسبورغ ولكن بعد الامتحانات . فاذا شئت قضينا الصيف فى الريف وسادرس قليلا حتى تقل المصاعب علىّ فى بداية الدراسة العليا» .

هذه الرسالة اذهلتنى ولكن رسالة مطولة اخرى غفلا عن التوقيع تلقيتها فيما بعد طفحت الكيل .

كان كاتب الرسالة يحذرنى ، باسلوب متفاصح ، من القدر المحزن الذى ينزل بالشبان الذين يستسلمون لهواهم ، الذين لا يميزون حسنات وسيئات مخلوق يريدون ان يتصلوا به «باسباب خفيفة لا تكاد ترى فى البداية ولكنها لا تلبث ان تصبح اشد ثقلا من سلاسل المحكومين» . بمثل هذه الصيغ كان يكتب صاحب الرسالة المجهول . . . «ان زواجا متنافرا فظاعة ايها السيد لوباتين ، آمن بكلمة شرف يقولها لك شيخ طافح بالتجارب . وقد خنق مثل هذا العمل كثيرا من المواهب ، اذكر ذلك يا سيد لوباتين» . ويسرد لائحة اتهام كاملة ضد «ناديجدا» وينعت روحها بانها «طريدة جهنم» (عرفت من فورى انها يد الرئيس) . ويأخذ على المرأة استمرارها حياة فاجرة فى استطاعتها ان تهجرها «لان لها اقارب ابعدين فى وسعهم (وانا على يقين فى ذلك) ان ينشلوها من وضعها الاجتماعى لو كان ميلها الى الفسق لا يشدها الى الحمأة التى تغوص فيها انت نفسك وتهلك موهبتك الجميلة بمحاولتك التى لا غناء



فيها لانقاذها» . ويتهمها بقتل رجل «سيد حسن جدا ليست له مزاياك ولكنه شريف جدا ويقبض راتبا قدره خمسون روبلا وينوى زيادة دخله الذى سيكون كافيا لاثنين . الم يكن فى ذلك فرصة لا مثيل لها لمخلوق دنىء رفض مع ذلك الزواج من السيد نيكيتين وليس له الا هدف الاستمرار فى حياته المنحطة ؟ . .»

وكان الكتاب طويلا جدا ، القيته الى النار قبل انهاء قراءته . وبدا لى اسهام بيسونوف مؤكدا . ماذا حمل الرئيس على التفكير فى انقاذ روحى ؟ كانت الدماء تغلى فى رأسى ووجدتنى على اهبة الوثب الى مسكن بيسونوف . لم اكن ادرى ما عسانى ان افعل . واما الرئيس فلم اهتم به : هذا المرتد المخبأ قد رضخ للاغراء او خاف على نحو ما . واختطفت قبعتى ولم انكل الا مام الباب . الخير ان افكر واقرر فيما بعد ما افعل .

قر قرارى وحاولت ان ارسم ثانويات اللوحة لكى اهدئ نفسى منتظرا ناديجدا نيكولاييفنا . ولكن الريشة كانت ترقص على القماش وبصرى يضطرب . ولبست معطفى وفى نيتى ان اخرج فاستنشق الهواء . لما فتحت الباب ابصرت ناديجدا نيكولاييفنا شاحبة ، منقطعة الانفاس ، محملقة العينين فى ذعر .

## ١٨

**يوميات بيسوفوف** . اليأس يلاحقنى فى كل مكان على الرغم من كل ما افعله لكى انسى . اخيرا توضح

كل شيء لعينيّ ، قد انقطعت عن كتابة مذكراتى منذ شهر ، تبددت الشكوك كلها . اين هدوئى الفلسفى المزعوم ؟ اين ليالى العمل المستمر ؟ انا الذى كنت افخر بقوة خلائقى فى وسط عصر مائع ، انطرح ارضا وقد كسرتنى العاصفة . . . ما هى ؟ أهى كذلك ؟ انا احتقر نفسى لما فرطت من زهو لم يمنعنى من الرضوخ لهوى سوقى ، احتقر نفسى بما سمحت لهذا الشيطان فى شكل الانثى من الاستيلاء على روحى . ويقينا لو كنت اعتقد بالغيبيات لرايت فى هذا ضربا من الوسواس .

اعدت قراءة ما كتبت . . . ما هذه الشكاوى المذلة المؤسية ! اين انت يا اعتدادى ، اين انت يا سيطرتى على نفسى التى اتاحت لى ان احيا كما اهوى ؟ لقد انحدرت الى دور المتآمر الوضيع : كتبت الى امى التى رددت يقينا كل شيء على مسامع ابنة عمه ، ولكن ذلك لم يؤد الى نتيجة . وفرغ صبرى فقسرت احمق عجوزا على ارسال رسالة خرقاء الى لوباتين لن تؤدى كذلك الى نتيجة كما اعلم . سيقذف بها الى النار ، او ، انكى من ذلك ، يطلع خليلته عليها ويضحكان معا من الشطحات الحمقاء التى طلع عليها الرئيس بها ويسخران منى فاهمين انى انا المحرض على هذه التفاهة .

خليلته ؟ هل هى اياها ؟ لقد افلتت الكلمة منى ولكنى لست متيقنا منها ابدا . واذا لم تكن اياها ؟ ربما بقى لى خيط من الامل ؟ ماذا يحملنى على الظن بانه يحبها الا شكوك غامضة تمخضت عنها غيرة مجنونة ؟



منذ ثلاث سنوات كان كل شيء ممكنا ميسورا . كنت اكذب حينما كتبت فى هذه اليوميات انى ضربت عنها صفحا لانها لا يمكن انقاذها . لو لم اكذب وخدعت نفسى فانقاذها كان هينا : كان يكفى ان انحنى لكى انهضها ولكنى لم اتنازل . ولم افهم ذلك الا الآن وقلبى ينهشه الحب . الحب ! لا ، انه هوى وحشى ، حريق ينهشنى . كيف السبيل الى اطفائه ؟

ساذهب اكلمها مهما يكن الجهد الذى سابذله كى اظل هادئا . لتختر بينى وبينه . لن اقول لها الا الحقيقة ، ساحذرها من هذا الرجل السريع التأثر الذى يهتم بها اليوم ويهجرها غدا مستغرقا فى هوى آخر . ساذهب اليها ! على اى حال يجب البت ، فلم اعد اطيق صبرا . . .

**اليوم نفسه .**

رايتها الآن ساذهب اليه .

هذه هى الاسطر الاخيرة فى يومياتى . لن يستطيع شيء ان يقف فى وجهى . فلم اعد قادرا على كبح جماحى .

## ١٩

**مذكرات لوباتين** . فيم الاطالة ؟ أليس من الخير ان اتوقف ههنا ؟ لا ، ساكتب حتى النهاية . وحتى لو هجرت الريشة وهذا الدفتر لوجب علىّ ان احيا للمرة

الالف النهار المخيف ؛ وللمرة الالف اعانى الذعر وتأنيب الضمير وآلام الضياع ؛ والمشهد الذى ساسوقه لا بد باد لعينى الف مرة فى تفاصيله التى يفتح كل منها فى قلبى جرحا فظيعا . فلاكمل ما بدأت .

مضيت بناديجدا نيكولاييفنا الى المرسم وهى لا تكاد تطيق الوقوف على قدميها وترتعش كأن الحمى تعصف بها . كانت تنظر الىّ بعينين مذعورتين من غير ان تستطيع فتح فمها بكلمة . فاجلستها واعطيتها قدحا من الماء .

– حذار يا اندرى نيكولاييفتش ، حذار ! اوصد الباب بالمفتاح . . . لا تسمح لاحد بالدخول . انه آت .

– من هو ؟ بيسونوف ؟

فهمست :

– اغلق الباب .

فثارت ثائرتى . بعد رسائل مغفلة يلجأ الى العنف .

– ماذا فعل لك ؟ اين صادفته ؟ اهدئى . اشربى قليلا من الماء واروى لى . اين رأيته ؟

– فى مسكنى . . .

– هل اتى للمرة الاولى ؟

– لا ، للمرة الثالثة . لم اقلها لك خوفا من اغضابك . رجوته الا يعود ابدا لان زياراته كانت تثقل علىّ . فذهب فى صمت ولم يرجع طوال ثلاثة اسابيع . وقد جاء اليوم مبكرا وانتظر حتى لبست .

وسكتت ؛ كانت تصعب عليها متابعة الحديث .



– وبعد ؟

– لم اره قط على هذه الحال . بدأ حديثه بلهجة وادعة . تكلم عنك دونما حقد ؛ قال فقط انك سريع التأثر وحذرنى منك . انه قال بكل بساطة انك لن تلبث ان تهجرنى اذ الاهتمام بى يضايقك . . .

صمتت واستخرطت فى البكاء . فزعزعنى الحنان والشفقة اللتان لم احس مثلهما ابدا . واخذت يديها الباردتين ودفأتهما بالقبلات وانبجس من بين شفتى سيل من الاقوال التى تفيض فرحا . اقسمت لها على حبى الابدى وتوسلت اليها ان تكون زوجى ، الا تصغى الى بيسونوف . قلت لها الف حماقة ، هذيت من الفرح ولكنها فهمتنى . كنت ارى على صدرى وجهها المشع لطفا ، وجها جديدا غريبا بعض الشىء ، وجها غير الوجه الذى تعودت رؤيته : اضاع تعبيره المعذب .

اخذت تبتسم من خلال الدموع وتقبل يدىّ وتشد نفسها الىّ . فى تلك اللحظة لم يكن فى الدنيا الا نحن الاثنان . كانت تتحدث عن سعادتها ، عن الحب الذى احسته نحوى منذ اللحظة الاولى واسلمها الى الهرب : كانت تجد نفسها ادنى منى ولا تجرؤ على ربط مصيرها بمصيرى . . . وعادت تعتنقنى من جديد وتبكى فرحا . اخيرا هدأت وقالت فجأة :

– وبيسونوف ؟

– فليأت . ماذا يهمنا من امره ؟

– انتظر ، لم اقل لك كل شىء لقد تكلم عنك ثم

عن نفسه . انه يعتبر نفسه احق بالثقة منك . ذكرنى بانى كنت احبه منذ ثلاث سنوات وكنت قادرة على اللحاق به . ولما اجبته بانه يخدع نفسة انفجر زهوه وجعله يثب علىّ . . . – وقفزت انا – لا ، لا – قالتها وهى تقبض على يدى – لم يمسنى . . . انا ارثى له يا اندرى نيكولاييفتش . . . لقد انكب على قدمى ، ذلك المزهو ! لو انك رأيته !

– وماذا قلت له ؟

– وماذا اقول ؟ لا شىء . قلت له انى لم احبه . ولما سألنى هل سبب هذا انى احبك قلت الحقيقة . . . واذا تغير لا سبيل الى فهمه يطرأ عليه ، تغير جمدنى من الرعب . انقض علىّ يضمنى اليه وهو يهمس : «وداعا ، وداعا !» وتوجه الى الباب . لم ار عمرى وجها مخيفا كوجهه . وخارت قواى فهويت على كرسى ، فاستدار وهو عند الباب واطلق ضحكة غريبة وقال لى : «ساراكما قريبا انتما الاثنين» . يا لذلك الوجه المرعب . . .

وصمتت بغتة ، شاحبة كالورس وعيناها مسمرتان بباب المرسم . التفت واذا ببيسونوف فى الباب . قال متلعثما :

– لم تنتظران رؤيتى؟ اخذت درج الخدم حتى لا ازعجكما .

فوثبت وانغرست امامه . ظللنا طويلا يحدق واحدا بالآخر . كان حقا يبعث الخوف . كان يهمى علىّ بنظرات



صاعقة وهو شاحب ، احمر العينين ، لا ينبس بحرف وشفتاه الرقيقتان ترتعشان . فجأة ادركتنى الشفقة عليه .

– فيم مجيئك يا سيرغى فاسيلييفتش ؟ اذا كنت تود الحديث لىّ فاهدأ .

– انا هادئ يا لوباتين . . . انا مريض ولكنى هادئ . لقد اتخذت قرارى وليس لى ان اضطرب .

– اذن فماذا تريد منى ؟

– ان اقول لك كلمتين . هل تأمل ان تكون سعيدا معها ؟ – واشار الى ناديجدا نيكولاييفنا – لا تظن ذلك ! سامنعك من ذلك .

قلت وانا اجاهد لكى احتفظ بهدوئى .

– اذهب من هنا . استرح . ألم تقل انك مريض ؟

– هذا شأنى . اسمع . لقد انخدعت . . . انها خطيئتى . انا احبها . اعد لى اياها .

قلت فى نفسى : «انه مجنون» .

واضاف بصوت اجش :

– انا لا استطيع الاستغناء عنها . لن ادعك قبل ان توافق .

– سيرغى فاسيلييفتش !

– وافق والا . . .

فقبضت على كتفيه ووجهته الى الباب فمشى مطيعا . ولكن بدلا من أن يضع يده على الاكرة ادار المفتاح فى القفل ودفعنى بحركة عنيفة واتخذ وضعية تهديد . واطلقت ناديجدا نيكولاييفنا صيحة .

رأيته يأخذ المفتاح باليد اليسرى ويدس اليمنى فى جيبه ثم يخرجها وفيها شىء لماع لم اتبينه حالا . ولكن منظره وحده صعقنى فاختطفت الهراوة الموجودة فى الزاوية فورا وحينما كان يسدد فوهة مسدسه الى ناديجدا نيكولاييفنا هاجمته مطلقا صراخا مجنونا . وغاب كل شىء فى ضجيج مخيف . . .

. . . . . .

وبدأ العذاب .

لست ادرى كم مضى علىّ وانا فاقد الوعى . لما عدت الى نفسى لم اكن اذكر شيئا . ولان اكون متمددا على الارض ، ان ارى السقف من خلال ضباب ازرق ، ان احس فى صدرى شيئا يمنعنى من الحركة والكلام — كل هذا كان ابعد من ان يدهشنى ؛ كان يبدو لى ضرورة لا بد منها لمهمة كان علىّ ان انجزها ولكنى اجتهد فى تذكرها دونما جدوى .

اللوحة ! اجل ، شارلوت كوردى وايليـــــا موروميتز . . . يقرأ الانجيل وهى تقلب له الصفحات فى ضحكة مسلوبة . . . ياللحماقات . . ليس هذا ، ليس هذا هو الامر الذى يتكلم عنه هيلفريخ .

واقوم بحركة تسبب لى الما حادا . هذا لا بد منه ، لا يمكن ان يكون على نحو آخر .

الصمت . وتئز ذبابة فى الهواء وتصطدم بالزجاج . وتجيئنى القرقعة الفرحة المنبعثة من العربات من خـــلال النوافذ الموصدة . ويتبدد الدخان امام عينى ، دخـــان



غريب ضارب الى الزرقة ، فاميز قوالب السقف الفظة حول حمالة الثريا . هذا التزيين الغريب لم الاحظه من قبل . ويمس يدى شىء فالتفت فارى على الارض يـدا صغيرة بيضاء رقيقة . ولا استطيع ان ابلغها مع الاسف لانها يد ناديجدا نيكولاييفنا التى اعبد . . .

وتعـود الىّ ذاكرتى فى ومضة نـــور . . . لقد قتلها .

مستحيل ! انها حية . لم يفعل الا ان جرحهـــا . النجدة ! النجدة ! ولا اسمع صيحتى . خرخرة فى صدرى تخنقنى ، تسحقنى وزبد ازهر يصعد الى شفتى . لقد قتلنى انا ايضا .

وارفع نفسى فى عناء شديد فاراها بلا حـــراك ، مغمضة العينين فيقف شعر رأسى . وددت لو اغمى علىّ . سقطت عليها اغمر بالقبلات هذا الوجه الذى كان منذ نصف ساعة ينشدّ الى صدرى طافحا بالحياة والسعادة . انه الآن متجمد ، زاهد والجرح الصغير فوق العين لا ينزف . كانت ميتة .

لما خلع البـــاب وهرع سيميون ايفانوفتش الىّ احسست قوتى تهجرنى . وضعونى على الديوانـــة . رأيتهم يحملونها واردت ان اصرخ ، ان اتوسل اليهم ان يدعوها قربى . ولكنى لم اقدر الا على الهمس بينما كان الطبيب يفحص صدرى المثقوب من طرف الى طرف .

واخرجوه هو ايضا مقيت السحنة يغمره الدم الذى انبجس من جرح رأسه المميت .

انهى الكتابة . ما عسانى ان اضيف ؟

وصلت ابنة عمى حالما اخطرها سيميون ايفانوفتش برقيا . لقد عالجونى مدة طويلة معاندين ولا يزالون . وصونيا وهيلفريخ على يقين من نجاتى . ويريدان المضى بى الى الخارج ويعتمدان على هذه الرحلة لشفائى .

ولكنى اشعر انى لن اعيش طويلا . لقد التأم جرحى ولكن مرضا آخر ينهش صدرى : اعرف انى مصدور . وينضم الى مرض الصدر مرض اشد اثرا فى تقصر ايامى . لا استطيع ان انسى ناديجدا نيكولاييفنا وبيسونوف . ان تفاصيل النهاية المشؤومة لا تفارق مخيلتى ويهمس صوت ملح فى اذنى انى قاتل .

لم اقدم الى المحكمة . لقد حفظت القضية لانهم اعتبرونى فى حال الدفاع المشروع عن النفس .

ولكن لما كان الضمير الانسانى يجهل قانون العقوبات ومبدأ اللامسؤولية ، فانا اتحمل العقاب . ولكنى بلغت النهاية تقريبا . سيغفر لى الله عن قريب ونلتقى نحن الثلاثة هناك حيث تبدو لنا نزعاتنا وعذابنا تافهة فى فيض من نور المحبة الابدية .

١٨٨٥





كان سيميون ايفانوف حارس خط ، يقع منزله على اثنى عشر فرسخا عن محطة وعلى عشرة فراسخ عن محطة اخرى . فى العام الماضى افتتح على بعد اربع فراسخ مصنع للغزل كبير تشمخ مدخنته فوق الغابة . ولا يوجد اقرب منه الا مساكن حراس الخطوط الآخرين .

كان سيميون انسانا مريضا محطما . خاض الحرب قبل تسع سنوات وصيفا . وقد تجرع اثناء المعارك الجوع والبرد والحرارة الخانقة ومراحل من اربعين او خمسين فرسخا تقطع مهما يكن الفصل وصفر الرصاص فى اذنيه من غير ان ينال منه لحسن الحظ . . . ذات مرة كانت الكتيبة فى خط النار الاول وتبادل الرمى مستمر منذ اسبوع : الروس والاتراك قد تخندقوا فى طرفى واد صغير يتبارزون بالاطلاق من الصباح حتى المساء . وكان ثمة ضابط سيميون ؛ والوصيف يحمل

اليه ثلاث مرات فى اليوم السماور والغداء من المطبخ المتنقل الواقع فى قاع اخدود . حينما كان يمرق فى مكان مكشوف كانت الرصاصات تئز حواليه مصطدمة بالحجارة ؛ كان يبكى من الخوف ولكنه يسير . وكان السادة الضباط منشرحى الصدر لوجود الشاى ساخنا دائما . وعاد من الجبهة متصلب الاطراف من الروماتزم . واستشرت المصائب عليه : مات ابوه بعد عودته بامد يسير ، قضى ابنه فى الرابعة من عمره بالم فى الحنجرة وظل سيميون مع زوجته وحيدين . لم ينجحا بالعمل فى الحقول – ما اصعب الحرث حينما تكون الساقان والذراعان متورمة . ودفعتهما الفاقة الى البحث عن الحظ فى مكان آخر . اقاما على لينيا ، فى خيرسون ، على الدون من غير ان يظفرا بشىء مذكور . اشتغلت المرأة خادما واستمر سيميون على ضربه فى البلاد . ذات يوم بينما كان مسافرا فى السكة الحديدية بدا له وجه احد رؤساء المحطات مألوفا ، فتبادلا نظرات منتبهة وتعارفا : كان رئيس المحطة ضابطا فى كتيبته . سأل :

– أانت ايفانوف ؟

– انا نفسى يا صاحب النبالة .

– ماذا تفعل هنا ؟

وروى له ايفانوف قصته .

– اين تذهب الآن ؟

– لا ادرى يا صاحب النبالة .



– كيف لا تدرى يا احمق ؟

– يا صاحب النبالة انا لا ادرى الى اين اذهب . انا ابحث عن عمل .

نظر اليه رئيس المحطة مفكرا ثم اقترح عليه قائلا :

– انظر ايها الاخ ، ابق الآن فى المحطة . انت متزوج على ما اظن ؟ اين امرأتك ؟

– متزوج . وزوجتى فى خدمة تاجر من كورسك يا صاحب النبالة .

– احضرها . ساتدبر لها بطاقة مجانية . قريبا سيشغر عمل حارس خط وساكلم رئيس مصلحة الصيانة بشانك .

– انا شاكر لك جدا يا صاحب النبالة .

وبقى سيميون فى المحطة . كان يقوم باعمال المطبخ ، يكسر الحطب ، يكنس الفناء والرصيف . ولما وصلت زوجته ، بعد اسبوعين ، اوسق عربة يد بمتاعه ووصل الى مكان عمله . كان منزله جديدا ، حسن البناء ، والحطب لا يعوزه ؛ وترك اسلافه حديقة صغيرة ، وقطعة من الارض الصالحة للزراعة تمتد على جانبى الخط . واسعد سيميون كل هذا فطفق يعد المشروعات ويحلم بشراء بقرة وحصان .

وتسلم عدته : علما اخضر وآخر احمر ، مصابيح ، بوقا ، مطرقة ، مفتاحا انكليزيا لشد العزقات ، مخلا حديديا ، رفشا ، مكانس ، براغى ، كلاليب ، كراستين

فيهما انظمة ومواقيت القطارات . فى الايام الاولى جعل يحفظ جدول المواقيت طوال الليل ، وقبل مرور القطار بساعتين كان يطوف فى قطاعه كله ثم يروح يجلس على مقعد قرب البيت ينظر ويسمع : ألا ترن الخطوط ويئز القطار . وحفظ الانظمة والتعليمات على ظهر قلب على الرغم من ضعفه فى القراءة .

وكان ذلك فى الصيف . كانت المهمة سهلة : ما من ثلج يحتاج الى كنس والقطارات نادرة . كان سيميون يقطع قطاعه مرتين فى اليوم ، يشد هنا وهنا على عزقة ، يسرى كومة حصى ، يتحقق من البرابخ ويعود الى البيت لينصرف الى اعماله المنزلية . ولكن كان ثمة امر مزعج : اية تسوية مهما تكن تافهة تحتاج ان يطلب بشأنها اجازة من رئيس المصلحة عن طريق مساعد رئيس المحطة والجواب ابدا بطئ . وكان سيميون وزوجته يشعران حتى بسآمة .

وتصرم شهران . وجعل سميون يتعرف بزميليه . كان احدهما شيخا هرما يجرى البحث لصرفه وكانت امرأته هى التى تقوم بعمله . واما الآخر وهو الاقرب الى المحطة فقد كان شابا نحيفا ، بارز العضلات . التقيا اول مرة على المرتفع الذى تسير عليه السكة فى منتصف الطريق بين منزليهما فحيى سيميون وهو ينزع عمرته . قال :

– مرحبا ايها الجار .

فنظر اليه الآخر شزرا .



– مرحبا .

وقفل راجعا . وتقابلت المرأتان بعد . وبدأت السلام ارينا ، امرأة سيميون . فلم تبد الجارة احفى من زوجها . ولفت نظرها سيميون ذات يوم :

– ليس زوجك ثرثارا ابدا ايتها الحسناء .

صمتت ثم قالت :

– ماذا تريده ان يقول لك ؟ لكل انسان همومه . . . امش فى طريقك .

ولكن بعد مضى شهر آخر تعارفا . كان فاسيلى وسيميون يجلسان على حافة المرتفع ويرويان قصة حياتهما وهما يدخنان الغليون . وكان اصغاء فاسيلى اطول من كلامه ، ولا ينضب لسيميون معين عن قريته وعن الحرب .

– تلقيت اكثر من نصيبى من البؤس ولست شيخا . انه السعد يا صاحبى . انا ولدت فى برج نحس . هكذا يا اخى فاسيلى ستيبانوفتش .

ويفرغ فاسيلى ستيبانوفتش غليونه بضربه على الخط ويرد :

– لا تحقد على الابراج . الناس هم الذين يضطهدوننا . لا حيوان اشأم من الانسان . الذئاب لا يأكل بعضها لحم بعض واما الناس فيفترس احدهم الآخر .

– والذئاب ايضا يا صاحبى .

– هذا مثال يضرب ، ماذا . . . ولكن هذا لا يمنع

ان الانسان اشد الضوارى وحشية . لولا سوء الناس وجشعهم لكانت الحياة الآمنة ممكنة . ولكن كل واحد يحاول ان ينهش لحمك حيا ، ان ينتزع من جسدك شلوا ، ان يأكلك .

وغرق سيميون فى الفكر . قال :

– لا اعرف . ممكن يا صاحبى ولكن هذه هى ارادة الله .

فرد فاسيلى :

– اذن لا فائدة من النقاش معك . ان من يلقى كل الشر على الرب ويحنى ظهره ليس انسانا بل جحشا . وعلى من احسن الفهم السلام !

ومضى من غير ان يضيف كلمة . ونهض سيميون :

– ايها الجار لماذا تغضب ؟

ولكن الآخر لم يدر حتى رأسه . ولاحقه سيميون بنظراته حتى غيبه منعطف . لما عاد الى بيته قال لامرأته :

– ان لجارنا خلقا عسيرا . انه خبيث .

ولكن هذه لم تكن القطيعة ؛ التقيا مرة اخرى ودارت المناقشة حول الموضوع ذاته . قال فاسيلى :

–آه ايها اخى . لولا الناس لما كنا فى هذه الاكواخ . . .

– ولكننا لسنا فى ضيق . . .

– لسنا فى ضيق ، لسنا فى ضيق . . . سقيم الذهن ! عاش طويلا واكتسب قليلا ؛ رأت عيناك



البؤس بالوانه فلم يفدك ذلك . ما أصعب حياة الفقير فى كوخ كان او فى اى مكان آخر ! هؤلاء الجزارون ياكلونك ، يعتصرون دمك وحينما تصبح شيخا عجوزا يقذفونك الى المزبلة . كم تقبض اجرة ؟

– ليست كثيرة يا فاسيلى ستيبانوفتش ، اثنى عشر روبلا .

– وانا ثلاثة عشر وخمسين كوبيكا . دعنى اسألك لماذا ؟ مبدئيا الادارة يجب ان تدفع لكل منا خمسة عشر روبلا فى الشهر مع الوقود والضوء . لماذا هذه الاثنا عشر او الثلاثة عشر وخمسون ؟ من يحشو كيسه بالباقى هل تعلم ؟ . . وانت الذى يرى اننا لسنا فى ضيق ! وليست المسألة فى هذه الروبلات القليلة وحسب اذ لو دفعوا لنا على الفلس لما تحسن حالنا . رأيت المدير فى الشهر المنصرم فى المحطة . حصل لى هذا الشرف . كان قد خرج من عربته الخاصة ويقف على الرصيف وسلسلة ذهبية على كرشه وخداه احمران مكتنزان . . . لقد تطبق شحما على حسابنا . آه ، لو كنت السيد . . . ولكنى لن اظل هنا طويلا ، ساذهب اينما كان .

– الى اين يا ستيبانوفتش ؟ الاحسن عدو الحسن . امرأتك شغيلة وانت فى ملاذ دافىء وعندك قطعة من الارض . . .

– ارضى ! لو رأيتها : لا تنبت فيها فجلة . كنت اود ان ازرع ملفوفا هذا الربيع ولكن جاء مساعد رئيس المحطة يهر : «ما هذا ؟ بلا اجازة ؟ اقلع لى

هذا ، عجل» . كان سكران . قد لا يقول شيئا نسى يوم آخر ولكنه ذلك اليوم كان عنيدا . . . «ثلاثة روبلات غرامه ! . .»

وسحب فاسيلى سحبة من غليونه وقال بصوت منخفض :

– وقفت على شعرة من ضربه .

– انت حقا نزق جدا يا جارى .

– لست نزقا ولكنى احاكم الامور محاكمة صحيحة . انتظر ايها البوز الاحمر ! ساشكو امرى الى الرئيس وسنرى ما يكون .

وهذا ما فعله .

وجاء مرة رئيس المصلحة يفحص الخط لان شخصيات ستأتى من بطرسبورغ فى تفتيش ، ويجب ان يكون كل شىء على ما ينبغى عند وصولهم . وسوى المرتفع واضيف اليه الحصى وفحصت العوارض وشدت العزقات واعيد دهان الاعمدة ورش الرمل فى المذاهب . وقد اوفدت زوج حارس الخط العجوز زوجها ينتف العشب . واشتغل سيميون طوال الاسبوع : جعل كل شىء على احسن حال ، رمم سترته ونظفها ولمّع بالخُفّان قفل زناره . وكدح فاسيلى ايضا . ويجىء الرئيس فى عربة يحركها اربعة عمال فتهدر المسننات وتزأر العجلات وتنطلق العربة بسرعة عشرين فرسخا فى الساعة على الاقل . ها هو ذا قرب منزل سيميون الذى



يهرع اليه ويقدم تقريره على الطريقة العسكرية وقد اتخذ وضعيته . كل شىء على ما يرام .

وسأل الرئيس :

– هل انت هنا منذ امد طويل ؟

– منذ الثانى من ايار يا صاحب النبالة .

– طيب ، شكرا . . . من الحارس فى المركز ١٦٤ ؟

فاجاب المساعد الذى يرافقه :

– فاسيلى سبيريدوف .

– سبيريدوف ، سبيريدوف . . . أليس الذى كان معاقبا فى العام الماضى ؟

– هو نفسه .

– طيب ، هلم نره هذا السبيريدوف . هيا بنا .

وشد العمال على مفاتيحهم وانطلقت العربة .

وقال سيميون فى نفسه وهو يرمقها : «سيلعب لعبا عند الجار» .

بعد ساعتين ذهب يقوم بجولته فرأى انسانا يسير على المرتفع ورأسه مغطى بالبياض . ونظر سيميون متيقظا واذا فاسيلى هو الذى يتقدم وفى يده هراوة وعلى ظهره كيس ، وقد عقد على خده منديلا .

صاح سيميون :

– الى اين ايها الجار ؟

فدنا فاسيلى . كان وجهه مختلطا ، شاحبا كالزعفران وعيناه وحشيتان . كان يتكلم بصوت متهدج متقطع :

– انا ذاهب الى موسكو . . . الى الادارة .

– اهكذا ؟ انت ذاهب تشتكى ؟ لا تفعلها يا فاسيلى ستيبانوفتش ، خل عنك . . .

– لا يا صاحبى . لن انسى ، فات الاوان . الا ترى انه ادمى وجهى ، لن انسى ذلك ابدا ، لن اترك . يجب تعليمهم الحياة هؤلاء الاوباش . . .

فاخذه سيميون من يده :

– دع عنك هذا يا ستيبانيتش . لن يتحسن الحال ، اؤكد لك .

– انا اعرف ذلك جيدا . انه برج النحس كما كنت تقول . ولكن يجب ان يدافع الانسان عن حقوقه على اى حال .

– بما بدأ ، قل لى .

– بما بدأ . . . نزل الرئيس من عربته ، دخل المنزل . كنت اعلم انه سيمد يده ويحس فاعددت كل شىء . وبينما كان على وشك الذهاب وجهت اليه شكواى فاخذ يعوى : «نحن ننتظر مفتشى الدولة ، كبار الموظفين وانت ، يا حمار ، تأتينا بقصص بستانك ! لم يبق علينا الا الملفوف» . حينئذ لم استطع كبح جماح نفسى فكلمته بجفاء ليس بالكبير ولكنه كان كافيا لاغضابه واذا هو يلكم . . . يا له من صبرنا اللعين ! كان يجب علىّ ان . . . وانا اقف من غير ان انبس بكلمة . . . لان العادة جرت على الانحناء . ورحل هؤلاء فاستعدت حواسى المضيعة وغسلت وجهى ومضيت .



– ومركزك ؟

– ستتدبره امرأتى . لقد زهقت روحى من سكتهم الحديدية .

ونهض فاسيلى .

– وداعا يا سيميون . لست ادرى هل انصف او لا .

– اذن فانت ذاهب سيرا على القدمين ؟

– حتى المحطة ، ساطلب ان يسمح لى بركوب قطار بضاعة وساكون فى موسكو غدا .

وافترق الجاران . وغاب فاسيلى طويلا . كانت زوجته تعمل بدلا منه ليل نهار وكانت مرهقة ، ينهشها القلق . واقبل المفتشون بعد الغد – قاطرة ومقطورة بضاعة وعربتان من الدرجة الاولى – وفاسيلى ابدا غائب . فى اليوم الرابع رأى سيميون المرأة منتحبة ، حمراء العينين . فتساءل :

– ألم يعد زوجك ؟

فابدت حركة يأس ومضت فى طريقها من غير ان تجيب .

كان سيميون قد تعلم فى طفولته ان يصنع من القصب مزامير . كان يفرغ القصبة بمسمار متشهب بالنار ويحدث ثقوبا على خط مستقيم وصفارة فى النهاية ، واذا بين يديك ما تستطيع ان تعزف

عليه كأنه آلة موسيقية لا شبه فيها . وكان يصنع مقادير فى اوقات فراغه ويكلف عامل فرملة من معارفه بيعها فى السوق فيدفعون له كوبيكين فى القطعة . بعد التفتيش بيومين كلف زوجته استقبال قطار السادسة مساء ومضى الى الغابة يقطع القصب . ووصل الى تخوم قطاعه حيث يرسم الخط منعطفا مفاجئا ثم هبط من المرتفع ودخل الغابة . كان على سير نصف فرسخ مستنقع يظله الصفصاف الذى يمكن ان يصنع من اغصانه مزامير ممتازة . وقطع حزمة ثم قفل راجعا . كانت الشمس تدنو من المغيب ولا يسمع فى الغابة الا زقزقة العصافير وتقصف الاغصان الجافة . لم يكن سيميون بعيدا جدا من الخط حينما خيل اليه انه سمع ضوضاء معدن يصدم معدنا فاوفض الخطى . فى ذلك الوقت لم تكن تجرى ترميمات فى القطاع . وسأل نفسه قائلا : «ما معنى هذا ؟» وخرج من الغابة فرأى رجلا يقعد فى اعلى المرتفع ويصنع شيئا . وجعل سيميون يصعد فى سكون لانه ظن رجلا يسرق العزقات . وانتصب الرجل واذا فى يده مخل حديدى وضغط واذا الخط قد انفك . اسودت الدنيا فى عينى سيميون وقد اخرسه الرعب . لقد تعرف على فاسيلى . وركض اليه ولكن الآخر تدحرج فى الطرف الآخر من المرتفع بمخله الحديدى ومفتاحه .

— فاسيلى ستيبانوفتش ! يا عزيزى ارجع ، اتوسل



اليك . اعطنى مخلك ، سنعيد الخط الى مكانه ولا يعلم احد بالامر . عد ، لا توقر ضميرك .

ولكن فاسيلى اختفى فى الغابة من غير ان يلتفت .

ووقف سيميون امام الخط المفكوك وقد سقطت قصباته . انهم ينتظرون قطار ركاب وما من اشارة لايقافه ، ما من علم . مستحيل اعادة الخط لان غرس الكلاليب باليد غير ممكن . يجب الاسراع فى جلب العدة من البيت . ليكن الله فى عوننا !

وعدا سيميون الى بيته حتى تقطعت انفاسه . اوشك على السقوط فى كل لحظة . ها هو ذا خارج من الغابة ولم يعد المنزل الا على بعد نحو من مئتى متر حينما زأرت صافرة مصنع الغزل . الساعة السادسة . . . القطار يمر فى السادسة ودقيقتين . رباه ! انقذ الابرياء ! ويرى سيميون القاطرة تترنح وتميل مفرقة العوارض شذر مذر فتخطىء المنعطف فتهوى من عشرين مترا وهى تجر العربات وراءها . . . عربات الدرجة الثالثة غاصة وفيها اطفال . . . المسافرون لا يفكرون فى شىء . يا الهى ، سدد خطاى ! . . لا ، فات اوان الركض الى المنزل .

واستدار سيميون راجعا وقد ضاعف سرعته . كان يندفع مضيعا ، من غير ان يعلم ماذا يحدث . دنا من الخط المفكوك : القصبات قربه كومة ، فاختطف سيميون احداها آليا وتابع عدوه . خيل اليه انه يسمع هدير

القطار . فى البعيـــــد دوت صفارة وبدأت الخطوط بالاهتزاز . وتوقف سيميون منهوكا محطما على بعد مئتى متر من الموضع الرهيب : اضاءته فكرة . نزع عمرته واخرج منديلا ونتر سكينا من ساق جزمته ورســـم اشارة الصليب . . . باركنى الله !

وهوى بالسكين على ذراعه اليسرى . . . وانبجس الدم فبلل سيميون منديله ونشره وربطه بالقصبـــة واشرع علمه الاحمر المرتجل .

ويلوح به ، والقطار يتقدم ؛ ولكن السائق لا يرى الاشارة . اذا لم يعد بينهما الا زهاء مئتى متر استحال وقف القطار فى الوقت المناسب .

ويتدفق الدم دائما ، وسيميون يشد جرحـــه الى حاصرته ولكن الدم لا ينقطـــع ، فالجرح اغلب الظن عميق وهو يحس الدوار ويزوغ بصره واذناه تدويان . ولم يعـــد يرى القطار ولا يسمـــع هديره ولا يخاف الا شيئا واحدا : «ان يسقـــط وعلمه ويطأه القطار . . . يا الهى ، اغثنى ، ارسل من يحـــل محلى . . .»

وغام بصره وذهنه فترك العلم . ولكن الرايـــة المدماة لم تسقط على الارض لان يدا قبضت عليهـــا ورفعتها . وابصرها السائق فاغلق المعدل وقلـــب البخار وتوقف القطار .

وهبط المسافرون من القطار مسرعين وتحلقوا حول الرجلين . كان احدهما يثوى مدمى ، فاقد الرشد ،



والآخر منتصب بكل قامته يمسك خرقة مدماة على طرف عصا .

وطوف فاسيلى نظرا دائريا فيما حوله وطأطأ رأسه وقال :

– اوقفونى ، فقد فككت الخط .

١٨٨٧

## الضفدعة الرحالة

كان ما كان ، كانت ضفدعة نقاقة تسكن فى مستنقع وتصطاد فيه البعوض وصغار الذباب ؛ فاذا جاء الربيع اخذت ترفع عقيرتها بالنقيق مع اشباهها . ولعلها كانت تقضى حياتها كلها فى امان اذا لم يأكلها لقلق طبعا ، ولكن وقع لها حادث عجيب .

ذات يوم تعلقت بفرع الجذع البارز من الماء وفى نيتها ان تستروح انفاس مطر خفيف دافىء .

وفكرت : «يا للطقس الجميل الرطب ، الحياة طيبة !»

وكان المطر يرش ظهرها الملون الارقط ويتقطر من تحت بطنها وقوائمها . وكان ذلك لذيذا جدا حتى اوشكت ان تنق من بهجة ولكن من حسن الحظ انها تذكرت ان الضفادع لا تنق فى الخريف ابدا – الفصل



الموسيقى هو الربيع – وانها تغامر بتشهيرها بين الجماعة اذا خرقت الاعراف . اذن فقد قنعت بالاسترواح الصامت .

فجأة انطلق فى الجو صفير حاد موقع . كان ثمة نوع من البط ، اذا طار ، خيل اليك ان جناحيه يصفران بل يغنيان . يو – يو – يو – يو ! هكذا صوتت تلك الطيور التى تضرب فى السماء صعدا فى بعض الاحيان حتى تغيب عن النظر . ذلك اليوم رسمت نصف دائرة عريضة وجاءت تحط فى مستنقع الضفدعة .

قالت احداها :

– كوان ، كوان ! ستكون الرحلة طويلة وعلينا ان نفطر .

واختبأت الضفدعة توا . كانت تعلم جيدا ان البط لا يأكل ضفادع ضخمة مثلها ولكنها رأت من الحكمة ان تغوص تحت الجذع . بعد هذه المحاكمة قررت ان تخرج من الماء رأسها ذا العينين الجاحظتين حتى تتعرف الى نوايا البط .

وقالت اخرى :

– كوان ، كوان ! بدأ البرد . فلنسرع بالرحيل الى الجنوب ، الى الجنوب .

فاجاب القطيع كله بصيحات الاستحسان .

وجازفت الضفدعة بقولها :

– ايتها السيدات البطات . اغفرن لى جرأتى عليكن . ما هو هذا الجنوب الذى تيممنه ؟

فاحاطت البطات بها . اشتهت بادىء الامـــر ان تاكلها ولكن ضخامتها جعلتها تخشى الا تمر من حوصلاتها ابدا . فتصايحت وهى تضرب باجنحتها :

– الجنوب جميل ! الطقس فيه الآن حـار ! واى مستنقعات ! اى ديدان ! الجنوب جميل !

واطاشت هذه الضجة رأس الضفدعة ولقيت كـــل العسر فى احلال الصمت ، وتوجهت بالسؤال الى من خيل اليها انها اسمن الجميع واعقل ما هو الجنوب . فلما اجابتها سرت سرورا عظيما ولكنها تسلحت بالحذر ايضا وتساءلت :

– هل فيه كثير من صغار الذباب والبعوض ؟

فاجابت البطة :

– سحائب .

– سحائب – افلتت الكلمة من الضفدعة وسرعان ما التفتت ترى هل فى جوارها رفيقات قد امتعضت من نعيقها الذى جاء فى غير اوانه . ولكها كانت عاجزة عن كبح جماحها .

– خذننى .

فصاحت بطة :

– نكتة ظريفة ! كيف تريدين ان نأخذك ؟ ما لك جناح .

واستفهمت الضفدعة :

– متى ترحلن ؟

فصاحت الطيور جوقة واحدة :



– قريبا ، قريبا ! كوان ، كوان ، كوان ! كوان ! هنا برد ! الى الجنوب ! الى الجنوب !

فالحت الضفدعة :

– هبننى خمس دقائق تفكيرا . سآتى حـــالا ، ساخترع شيئا ظريفا .

وقفزت من مكمنها وغاصت فى الوحل ثم قرت فى مخبأ منه تفكر فى الامر . بعد خمس دقائق ، بينمـــا كانت البطات على وشك ان تطير ، برز قرب الفـرع الذى كانت تجلس عليه ، شدق الضفدعة على اشد ما تكون اشداق الضفادع جذلا وسرورا .

قالت :

– وجدتها ! لتأخذ اثنتان منكن غصنا بمنقارهما فاتعلق فى وسطه . ستحملننى وكل شىء ينتهى الى الخير اذا تجنبتن الزبط وتحاشيت النقيق .

وعلى الرغم من الازعاج الذى يسببه الحمل الصامت ولو كان خفيفا مسافة ثلاثة آلاف فرسخ فقد اعجبت الفكرة البط اعجابا حملها على الموافقة عليها بالاجماع . وتم الاتفاق على التناوب كل ساعتين . ولما كان البط كثيرا جدا والضفدعة واحدة فلن تتكرر سخرة المثانى مرات عديدة . وجرى البحث عن غصن صلب واخذته بطتان بالمنقار وتعلقت الضفدعة بفمها وصعد القطيع فى السماء . وارتعبت الضفدعة اذ رأت نفسها على مثل هذا الارتفاع وتقطعت منها الانفاس ، ناهيك بان البط يطير فى اندفاعات وان المسكينة قد تزعزعت مصارينها

فراحت تطبق فكيها على الغصن بكل قواها حتى لا تفلته وتقع على الصخر جثة هامدة . ولكنها لم تلبث ان تعودت واخذت تتأمل المناظر . تحت ، الحقول ، المـــروج ، الانهار ، الجبال كانت تمرق كالسهم والضفدعة تلقى الجهد فى تفحصها وهى على وضعها ذاك – كانت عيناها متجهتين الى الوراء والى الاعلى قليلا – ولكن القليل الذى يتبدى لناظريها كان يملؤها زهوا .

وفكرت : «يا للفكرة الجميلة التى خطرت ببالى» .

واما البط الذى يتبع المثنى الحامل فراح يثنـى عليها ضاجا ويقول :

– ما اشد مكرها ، ضفدعتنا ! لن نعثرا لها على نظير حتى بين البط .

واغراها ذلك بشكرها ولكن خوف السقطة من هذا الحالق جعلها تزيد فكيها شدا فعزمت على الصبـــر . وتأرجحت هكذا اطراف النهار . كانت البطات تتنادى وهى تطير وتتبادل الغصن فى مهارة بهلوان . كـان شيئا مرعبا ! لقد اوشكت الضفدعة مرات عديدة ان تنق رعبا ، غير ان المهمة تتطلب رباط الجأش وهى كانت هكذا . وجاء المساء فتوقف السرب فى مستنقع وما نسم الفجر حتى عاد الى الطيران ولكن راحلتنا ، حتى ترى خيرا ، تعلقت هذه المـــرة على العكس : رأسها وظهرها الى الامام وبطنها الى الوراء . وكـان البط يطير فوق حقول تم حصادها ، وغابات ضربت الى الصفرة ، وقرى تصطف فيها بيادر القمح . كانت



تصلها اصوات انسانية وضوضاء جراجـــر . والناس ينظرون الى قطيع البط ويرى بعضهم بعضا حملـــه العجيب . وودت الضفدعة ان تكون ادنى من الارض حتى يتفرج عليها الخلق وتسمع تعليقاتهم . وقالت فى الوقفة اللاحقة :

– الا نستطيع الطيران على ارتفاع اقل ؟ انا احس الدوار واخشى ان تسوء حالى فاسقط .

ولم تعترض البطات الطيبات فلما كان الغد اسففن حتى صار فى الوسع سماع اقوال الناس كلها . شرع اطفال احدى القرى يصيحون :

– انظروا ، انظروا ! البط يحمل ضفدعة .

والضفدعة تحس ان قلبها يطفح بالغرور الراضى .

ويصرخ اناس كبار فى مكان آخر :

– انظروا ، انظروا ! يا لها معجزة !

وتسأل الضفدعة نفسها : «أيعرفون على الاقل انها فكرتى ، لا فكرة البط ؟»

وارتفعت الاصوات فى قرية ثالثة :

– انظروا ، انظروا هذه العجيبة ! من عساه ان يكون مخترع هذا ؟

ونسيت الضفدعة كل حذرها دفعة واحدة وصرخت :

– انا ! انا !

ومع هذه الصرخة هوت ، رأسها الى الاسفـــل . واطلق البط صرخات الذعر وحاولت بطة ، على غيـر جدوى ، ان تلتقط الرحالـــة التعيســـة . كانت

تسقط وهى ترمح بقوائمها الاربع ولكن ، لما كان البط يطير فى سرعة عظيمة ، فقد وقعت فى مكان بعيد جدا عن موضع صيحتها وهذا ما انقذها . لانها بدلا من ان تتحطم على طريق قاس غطست فى مستنقع موحل على تخوم قرية من القرى .

وسرعان ما طفت وصاحت من جديد :

– انا المخترع !

ولكن المكان خلا من السماع . وذعرت ضفادع البلد من انبجاس الماء المفاجىء فاختبأت فى القاع جميعا وجعلت تبرز واحدة بعد واحدة وتلقى على القادمة الجديدة نظرات متعجبة .

وقصت عليها قصة ابحاثها البديعة التى ادت الى اختراع وسيلة جديدة للرحلات وادعت انها تملك بطات شخصية تطوف بها كما تشتهى ووصفت اقامتها المزعومة فى الجنوب الذى يغص بالمستنقعات الاثيرة ومقادير من الذباب وغيره من الهوام الصالحة للاكل .

واوجزت قائلة :

– انا هنا زائرة . صرفت بطاتى التى ستعود لتأخذنى فى الربيع .

ولكن البطات لم تعد . ظنت ان الضفدعة قد تحطمت على الارض واسيت لموتها .

١٨٨٧



## محتويات


«. . . ينبغى الكفاح ضد شرور العالم دفعة واحدة» . . . . . ٥
اربعة ايام . . . . . ١٢
الجبان . . . . . ٣٢
لقاء . . . . . ٦٦
رسامان . . . . . ٩٦
Attalea princeps . . . . . ١٢٥
مذكرات الجندى ايفانوف . . . . . ١٣٧
الزهرة الحمراء . . . . . ٢٠٩
الوردة والضفدع (حكاية) . . . . . ٢٣٣
ناديجدا نيكولاييفنا . . . . . ٢٤٣
الاشارة . . . . . ٣٣٧
الضفدعة الرحالة . . . . . ٣٥٢